

جامعة العلوم الإسلامية العالمية

# المشكاة

## للعلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة علمية عالمية محكمة

تصدر عن عمادة البحث العلمي في جامعة العلوم الإسلامية العالمية

عمّان/ المملكة الأردنية الهاشمية

المجلد الثالث – العدد الثاني: رمضان ١٤٣٧هـ/ حزيران ٢٠١٦م



ما ورد في هذه المجلة يعبّر عن آراء الباحثين ولا يعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير

أو جامعة العلوم الإسلامية العالمية أو سياسة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



ISSN 2311-0538




تُوجّه جميع المراسلات إلى العنوان الآتي:

رئيس هيئة تحرير مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية

عمادة البحث العلمي- جامعة العلوم الإسلامية العالمية

المملكة الأردنية الهاشمية

ص.ب (١١٠١) الرمز البريدي (١١٩٤٧)

هاتف (٥٦٠٠٢٣٠ ٦ ٩٦٢+) فاكس (٥٦٠٠٢٣٧ ٦ ٩٦٢+)

البريد الإلكتروني: **al_mishkat.journal@wise.edu.jo**

موقع الجامعة الإلكتروني: **www.wise.edu.jo**

# المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة علمية عالمية محكّمة

المجلد الثالث – العدد الثاني: رمضان ١٤٣٧هـ/ حزيران ٢٠١٦م



رئيس هيئة التحرير

**أ. د. عبد الحليم حسين الهروط**

هيئة تحرير المجلة

أ.د. عبدالقادر أحمد رباعي — جامعة العلوم الإسلامية العالمية

أ.د. فاروق الروسان — جامعة العلوم الإسلامية العالمية

أ.د. محمد موفق الأرناؤوط — جامعة العلوم الإسلامية العالمية

أ.د. محمود خضر الخربطلي — جامعة العلوم الإسلامية العالمية

أ.د. نهاد ياسين الموسى — جامعة العلوم الإسلامية العالمية

أ.د. أنور عليان أبو سويلم — جامعة مؤتة

د. محمد فلاح الخوالدة — جامعة العلوم الإسلامية العالمية

الهيئة الاستشارية

أ.د. سمير محمود الدروبي — جامعة مؤتة

أ.د. عبد الكريم خليفة — مجمع اللغة العربية

أ.د. عفيف عبد الرحمن — رئيس هيئة التحرير سابقا

أ.د. علي توفيق الحمد — جامعة اليرموك

أ.د. يحيى عطية عبابنة — جامعة اليرموك

المحرّر اللغوي/ اللغة العربية

د. حسين غوانمة

المحرّر اللغوي/ اللغة الإنجليزية

د. ليلى فاروق عابدين

أمينة سر المجلة
و إخراج العدد

شيماء عبد الكريم حمدونة


فإذا عزمت فتوكل على الله
١٣٥٠

# مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية

## مجلة علمية عالمية محكّمة

**قواعد النشر:**

- لغة المجلة هي العربية، ويمكن أن تُقبل بحوثٌ باللغة الإنجليزية أو بأي لغة أخرى، بعد موافقة هيئة التحرير.
- يُقبل للنشر في المجلة البحوث والنصوص المحقّقة والمترجمة ومراجعات الكتب المتعلقة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية.
- يُشترط فيما يُقدّم للمجلة أن يكون أصيلاً وليس مقدّماً لمجلة أو أي جهة ناشرة أو أكاديمية. ويتعهّد الباحث بذلك خطياً عند تقديم البحث للنشر.
- أن يكون البحث المقدَّم خاضعاً لأسس البحث العلمي وشرائطه.
- يُصبح البحث بعد قبوله حقاً محفوظاً للمجلة، ولا يجوز النقل منه إلا بالإشارة إلى المجلة.
- يجوز للباحث إعادة نشر بحثه في كتاب بعد مضي سنتين على نشره والحصول على موافقة هيئة التحرير الخطية على أن يُشار إلى المجلة حسب الأصول.
- يتولّى تقييم البحث محكّمان، ويمكن أن يُرسل إلى ثالث حسب تقريري هذين المحكمين.
- يقدِّم الباحث أربع نسخ مطبوعة ونسخة إلكترونية على قرص مدمج (C.D) باستخدام البرنامج الحاسوبي (MS Word) بمسافات مزدوجة بين الأسطر وهوامش (٢,٥)، وعلى وجه واحد من الورقة (A4)، بحيث لا يزيد عدد صفحات البحث على (٤٠) صفحة.
- يكون نوع الخط المستخدم في المتن Simplified Arabic بنط ١٤. أما الحواشي فتكون بالخط نفسه وبنط ١٢.
- يذكر الباحث على الصفحة الأولى من البحث اسمه ورتبته الأكاديمية والمؤسسة التي يعمل فيها.
- تحتفظ الهيئة بحقّها في عدم نشر أي بحث وتُعدُّ قراراتها نهائية.
- الأبحاث التي لا تُقبل لا تُردّ لأصحابها.
- يترتّب على الباحث، في حالة سحبه لبحثه أو إبداء رغبته في عدم متابعة إجراءات التحكيم، دفع النفقات المالية التي تحملتها الجامعة.
- يلتزم الباحث بإجراء التعديلات التي يقترحها المحكمون خلال شهر من تاريخ تسلُّمه القرار.
- تقدّم المجلة للباحث نسخة من عدد المجلة المنشور بحثه فيه مع عشرين مستلة من البحث.

- يخضع ترتيب الأبحاث في المجلة لمعايير فنية تراها هيئة التحرير.
- لا يجوز نشر أي جزء من هذه المجلة أو اقتباسه دون الحصول على موافقة مسبقة من رئيس هيئة التحرير.
- الأبحاث المنشورة في المجلة تعبّر عن آراء أصحابها ولا تعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو الجامعة.

**تعليمات النشر:**

- أن يُكتب ملخص للبحث باللغة العربية وآخر بالإنجليزية بما لا يزيد على (١٥٠) كلمة لكلٍّ منهما، وعلى ورقتين منفصلتين، بحيث يكتب في أعلى الصفحة عنوان البحث، واسم الباحث (الباحثين) من ثلاثة مقاطع مع العنوان (البريدي والإلكتروني) والرتبة العلمية، وتُكتب الكلمات الدالة (Keywords) في أسفل صفحة الملخص بما لا يزيد على خمس كلمات، بحيث تعبّر عن المحتوى الدقيق للبحث.
- يُشار إلى المصادر والمراجع في متن المخطوط بأرقام متسلسلة توضع بين قوسين إلى الأعلى هكذا: [١]، [٢]، [٣]، ويكون ثبتها في أسفل صفحات البحث، وتكون أرقام التوثيق متسلسلة موضوعة بين قوسين في أسفل كل صفحة، فإذا كانت أرقام التوثيق في الصفحة الأولى مثلاً قد انتهت عند الرقم (٦) فإن الصفحة التالية ستبدأ بالرقم (١)، ولا يُعاد إيراد المصادر والمراجع عند نهاية البحث، ويكون ذكرها للمرة الأولى على النحو الآتي:

**الكتب المطبوعة:**

اسم شهرة الكاتب متبوعاً باسمه الأول والثاني وملحقاً به تاريخ وفاته بالتاريخين الهجري والميلادي، واسم الكتاب مكتوباً بالبنط الغامق، واسم المحقِّق أو المترجم، والطبعة، والناشر، ومكان النشر، وسنته، ورقم المجلد – إن تعددت المجلدات– والصفحة. مثال:

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م): **الحيوان**. تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط٢، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥م، ج٣، ص٤٠. ويُشار إلى المصدر عند وروده مرة ثانية على النحو الآتي: الجاحظ، الحيوان، ج، ص.

**الكتب المخطوطة:**

اسم شهرة الكاتب متبوعاً باسمه الأول والثاني وملحقاً به تاريخ وفاته بالتاريخين الهجري والميلادي، واسم المخطوط مكتوباً بالبنط الغامق، ومكان المخطوط، ورقمه، ورقم اللوحة أو الصفحة. مثال:

الكناني، شافع بن علي (ت٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م): **الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور**. مخطوط مكتبة البودليان بأكسفورد، مجموعة مارش رقم (٤٢٤)، ورقة ٥٠.

**الدوريات:**

اسم كاتب المقالة، عنوان المقالة موضوعاً بين علامتي تنصيص " "، واسم الدورية مكتوباً بالبنط الغامق، رقم المجلد والعدد والسنة، ورقم الصفحة، مثال: جرار، صلاح: "عناية السيوطي بالتراث الأندلسي- مدخل"، **مؤتة للبحوث والدراسات**، المجلد العاشر، العدد الثاني، سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص١٧٩-٢١٦.

**وقائع المؤتمرات وكتب التكريم والكتب التذكارية:**

- ذكر اسم الكاتب، واسم المقالة موضوعاً بين علامتي تنصيص " "، واسم الكتاب كاملاً بالبنط الغامق، واسم المحرّر أو المحرّرين إن كانوا غير واحد، ورقم الطبعة، واسم المطبعة والجهة الناشرة، ومكان النشر، وتاريخه، ورقم الصفحة. مثال: الحياري، مصطفى: "توطين القبائل العربية في بلاد جند قنسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري"، **في محراب المعرفة: دراسات مهداة إلى إحسان عباس**، تحرير: إبراهيم السعافين، ط١، دار صادر ودار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م، ص٤١٧.
- تُكتب الأعلام الأجنبية حين ورودها في البحوث باللغة العربية وتكتب بعدها مباشرة بالإنجليزية محصورة بين قوسين ( ).
- يُراعى النظام المتبع في دائرة المعارف الإسلامية عند كتابة الأسماء والمصطلحات العربية بالحروف اللاتينية.
- تُرسم الآيات القرآنية بالرسم العثماني بين قوسين مزهرين ﴿ ﴾ مع الإشارة إلى السورة ورقم الآية، وتثبت الأحاديث النبوية بين قوسين مزدوجين « » بعد تخريجها من مظانها.
- **تكون المراسلات على النحو الآتي:**

**رئيس هيئة تحرير مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية**

**عمادة البحث العلمي/ جامعة العلوم الإسلامية العالمية**

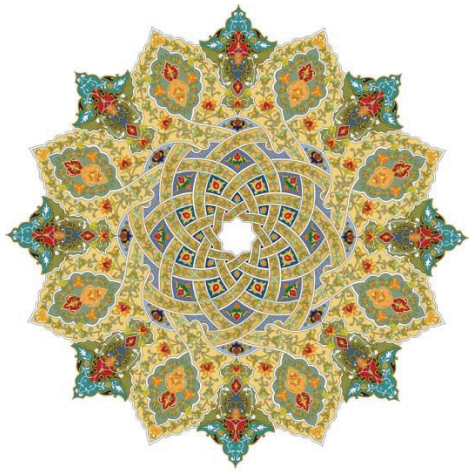
**المملكة الأردنية الهاشمية**

**ص.ب (١١٠١) الرمز البريدي (١١٩٤٧)**

**هاتف (٥٦٠٠٢٣٠ ٦ ٩٦٢+) فاكس (٥٦٠٠٢٣٧ ٦ ٩٦٢+)**

**البريد الالكتروني: al_mishkat.journal@wise.edu.jo**

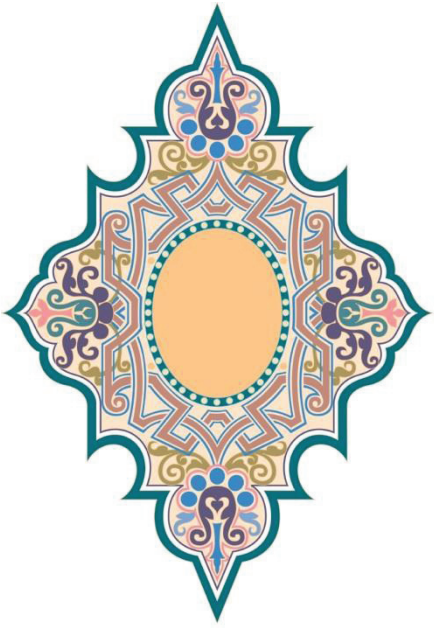
**موقع الجامعة الالكتروني: www.wise.edu.jo**



# محتويات العدد

(باللغة العربية)


| الباحث/ الباحثون | عنوان البحث | الصفحات |
|---|---|---|
| - د. رغدة علي الزبون | رسالة أبي عبد الله الصغير "الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس" دراسة موضوعية نفسية. | ٢٦١-٢٨٥ |
| - د. مبارك محمد الطراونة | دور الوقف في رعاية المصادر المائية في بلاد الشام | ٢٨٧-٣٢٢ |
| - د. صالح علي الشورة | إسهام السلطان سليمان القانوني في التطور العمراني للقدس (١٥٢٠-١٥٦٦م) | ٣٢٣-٣٤٧ |
| - د. حسين علي محافظة | التحصين العسكري للثغور الشامية البرية والساحلية في العهد الراشدي | ٣٤٩-٣٦٢ |
| - د. طه حسين عوض هديل | المشكلات الاجتماعية في مدينة زبيد في عهد السلطان الظافر عامر الثاني بن عبدالوهاب الطاهري الجريمة والأمراض الاجتماعية أنموذجاً | ٣٦٣-٤٠٥ |
| - د. آمنة محمود الذيابات | أحمد بابا التنبكتي ومنهجيته في كتابه (نيل الابتهاج بتطريز الديباج). | ٤٠٧-٤٤٩ |
| - د. فايز مدالله الذنيبات | التعدد الدلالي السياقي وظلاله الأسلوبية | ٤٥١-٤٧٨ |



# رسالة أبي عبدالله الصّغير "الرّوض العاطر الأنفاس في التوسّل إلى المولى الإمام سلطان فاس"/ دراسة موضوعيّة نفسية.

د. رغدة علي الزّبون *

تاريخ وصول البحث: ٢٢/ ٣/ ٢٠١٥م تاريخ قبول البحث: ٢٩/ ٦/ ٢٠١٥م


## ملخص

سعى هذا البحث إلى تقديم دراسة موضوعية نفسية لرسالة أبي عبدالله الصّغير "الرّوض العاطر الأنفاس في التّوسّل إلى المولى الإمام سلطان فاس"، التي كتبها على لسانه الكاتب أبو عبدالله محمّد بن عبدالرّحمن العُقَيلي وتوجّه بها إلى الشّيخ الوطّاسي سلطان فاس، يعتذر فيها عن ضياع غرناطة، ويدافع عن نفسه ويسوّغ موقفه ممّا اتّهم به، وقف فيها على العنوان وعلاقته بالموضوع، ودوافع كتابة هذه الرّسالة، والوسائل التي استعان بها أبو عبدالله الصّغير لتحقيق غايته المتمثّلة في: التّوسّل إلى الشّيخ الوطّاسي والاستجارة به، والاعتذار عن ضياع غرناطة وتسويغ موقفه ممّا حلّ بها والدّفاع عن نفسه من التّهم التي رُمي بها. ولقد حاول أبو عبدالله الصّغير تحقيق غايته الأولى بتصوير المأساة التي حلّت به والشّكوى من المعاناة التي عاشها بعد ضياع غرناطة وخلعه عن ملكها، واستعان لتحقيق هذه الغاية أيضا بالمدح، مركّزا في هذا الجانب على ذكر الفضائل والمناقب التي يبتغي تحصيلها عنده. وأمّا غايته الثّانية المتمثّلة بالاعتذار عن ضياع غرناطة والدّفاع عن نفسه من التّهم التي رُمي بها؛ فسعى أبو عبدالله إلى تحقيقها متذرّعا بأعذار ومسوّغات تدرأ عنه التّهم التي رمته بالتآمر مع الأعداء وتسهيل تسليم غرناطة لهم، محمّلا مسؤولية ما حلّ بغرناطة للقضاء والقدر ونوائب الدّهر وتقلّباته.

## Abstract

This paper aims at presenting an objective psychological study of Abu Abdullah's letter entitled "Gardens of Scented Breaths in Supplicating Imam al-Mawla, Sultan of Fez", which was composed on his behalf by writer Abu Abdullah Muhammad Ibn Abdul-Rahman al-Oqaili, addressing al-Sheikh al-Wattasi, Sultan of Fez.


* أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

This letter reports an apology for the loss of Granada, adefense of himself and a justification of his state of affairs, in which he was accused of. In addition, Abu Abdullah al-Saghayer tried to achieve his first purpose in showing the tragedy that happened to him, complaining about the suffering that he had experienced after the loss of Granada and dethroning him from his position. To achieve this goal, he praised al-Sheikh al-Wattasi, Sultan of Fez, focusing on describing the virtues and qualities that he hoped to obtain. However, his second purpose was presented by an apology for the loss of Granada, defending himself from charges he was accused of. In order to achieve this, he defended himself by citing excuses and justifications that made him innocent from the charges he was accused of, one of which was that he was an accomplice with enemies by facilitating the delivery of Granada to them, bearing the responsibility of what happened in Granada to destiny, fate, and the ravages of time.

**المقدمة:**

"الرّوض العاطر الأنفاس في التّوسّل إلى المولى الإمام سلطان فاس" هي رسالة من إنشاء الكاتب البارع البليغ أبي عبدالله محمّد بن عبدالرّحمن العُقَيلي العربي[١] كتبها على لسان آخر ملوك الأندلس أبي عبدالله الصّغير إلى سلطان فاس الشّيخ الوطّاسي،[٢] يتوسّل إليه بها ويعتذر عن ضياع غرناطة على يديه، ويدافع فيها عن نفسه ويبرئها من الأقاويل التي اتّهمته بالتآمر مع الأعداء والتّحالف معهم، ويطلب فيها إقالته من عثرته، ويلتجئ إلى الشّيخ الوطاسي للعيش في كنفه بأمن وحماية، بعد الذّل والهوان الذي لقيه بعد ضياع غرناطة، وخلعه عن ملكها.

ولكي نتبيّن موقف أبي عبدالله الصّغير بصورة واضحة جليّة فقد تناول هذا البحث دراسة هذه الرّسالة وتحليلها تحليلا موضوعيا ونفسيّا، فبدأ بتوطئة موجزة لأهم الأحداث التاريخية التي مرّ بها أبو عبدالله الصّغير إبّان حكمه لغرناطة بدءاً من عام (٨٨٧هـ)، حتى خلعه عن حكمها

وتسليمها للقشتاليين عام(٨٩٧هـ)، ثم شرع البحث بتحليل مضامين هذه الرّسالة ودراستها دراسة موضوعيّة ونفسيّة في بعض الأحيان، ووقف على العنوان وعلاقته بالمضمون، وحاول تَبَيّن دوافع كتابة هذه الرّسالة، التي تمثّلت بـ: الاستجارة بالشّيخ الوطّاسي، والاعتذار عن ضياع غرناطة آخر الثّغور العربية في الأندلس، وتسويغ موقفه مما حلّ بها، والدّفاع عن نفسه من التّهم التي رُمي بها.

## توطئة تاريخيّة:

تولّى أبو عبدالله الصّغير[٣] حكم غرناطة في جمادى الأولى عام(٨٨٧هـ)، بعد أن هرب هو وأخوه أبو الحجّاج يوسف "خوفا من أبيهما أن يفتك بهما بإشارة حظيّته الرّوميّة ثريّا، واستقرّا بوادي آش، وقامت بدعوتهما، ثمّ بايعتهما تلك البلاد المرية وبَسْطة وغرناطة، وهرب أبوهما السّلطان أبو الحسن إلى مالقة"[٤].

خاض أبو عبدالله الصّغير في السّنة الثّانية من توليه الحكم (٨٨٨هـ) معركة ضد جيوش قشتالة، انتصر فيها المسلمون، ثمّ قاد جيشا اتّجه به نحو قرطبة، غلب في عدّة معارك محليّة، ولكنّه أُسِرَ في معركة عند قلعة اللسّانة (Lucena) جنوب شرق قرطبة، وتولى حكم غرناطة بعده عمّه: محمد بن سعد، أبو عبدالله الزّغل[٥].

وفي عام (٨٩٠هـ) توغّل القشتاليون في البلاد فاستولوا على حصون عدّة من مالقة، وذكوان، ورندة وضواحيها[٦]، "وضيّق العدوّ بجميع بلاد المسلمين، ولم يتوجّه لناحية إلا أطاعته وحصّلها، ثمّ إن العدو دبّر الحيلة مع ما هو عليه من القوّة، فبعث إلى السّلطان أبي عبدالله الذي تحت أسره وكساه ووعده بكل ما يتمنّاه، وصرفه لشرقي بَسْطة، وأعطاه المال والرّجال، ووعده أن من دخل تحت حكمه من المسلمين وبايعه من أهل البلاد فإنّه في الهدنة والصّلح والميثاق الواقع بين السّلطانين"[٧]، وأفرج عن أبي عبدالله الصّغير "بعد أن أخذ عليه ملكا قشتالة سائر العهود والمواثيق التي تكفل تحقيق سياستهما في القضاء على مملكة غرناطة، وبعد أن أتى بالرّهائن المشترط تسليمهم، وسار أبو عبدالله وصحبه الذين قدموا لمرافقته، ومعه سريّة من الجند القشتاليين، إلى بعض الحصون الشّرقيّة النّائية التي قامت بدعوته"[٨].

وفي عام(٨٩١هـ) قامت طائفة من أهل ربض البيازين من أرباض غرناطة بدعوة الأمير محمد بن علي، فاشتعلت الفتنة بينهم وبين أهل غرناطة وأميرها محمد

ابن سعد، ووقع بينهم القتال[٩]، "وبينما أهل ربض البيازين ينتظرون قدوم الأمير محمّد بن علي عليهم إذا به سار إلى مدينة لَوْشَة، ووقع الصّلح بينه وبين عمّه الأمير محمّد بن سعد أمير غرناطة"[١٠]، "وبينما هم في هذا إذ بصاحب قَشْتالة قد خرج بجند عظيم ومحلة قويّة وعَدد وعُدد، ونازل لوشة حيث السّلطان أبو عبدالله الصّغير الذي كان أسيراً، وضيّق بها الحصار"[١١]، ولم يلبث أن وقع أبو عبدالله الصّغير في قبضة القشتاليين مرة أخرى، "وخاف أهل لوْشَة من استئصال شأفتهم؛ فطلبوا الأمان على الأنفس والأهل فوفى لهم العدو بذلك"[١٢]، "ولم يسرح صاحب قشتالة الأمير محمد بن علي بل حبسه عنده ليستأصل به بقية الأندلس"[١٣]، "وارتحل العدو إلى بلاده فبقي بها بضعة أشهر وسرّح الأمير محمّد بن علي وأمره بالخروج إلى حصون الشّرقية وذلك كيداً منه ومكراً ليعمل الحيلة على تلك الجهة"[١٤]، وخرج أبو عبدالله لبلش وأطاعته، ثمّ بعث لمن والاه من البلاد أنّه أتى بصلح صحيح وعقد وثيق، ولكنّ النّاس لم يقبلوا بذلك الصّلح، وأخذوا يقولون فيه الأقاويل، إلا القليل من أهل البيازين لهجوا به وأقاموا على صحته الدّلائل"[١٥]، "واشتعلت نار الفتنة حول هذا الصّلح بين أهل ربض البيازين وبين أهل غرناطة واشتدّ ضرامها وبلغ العدو دمره الله ما أمّله"[١٦].

وشهدت غرناطة ما بين (٨٩١-٨٩٧هـ) أحداثاً كثيرة تضمّنت صراعات بين المسلمين أنفسهم من جهة، وبين المسلمين والقشتاليين من جهة أخرى، قاتل فيها المسلمون النّصارى فانتصروا حينا وانهزموا أحياناً"[١٧]. ولّما جاء عام (٨٩٧هـ) كانت غرناطة قد بلغت الهاوية، وضيّق القشتاليون على المسلمين الخناق، فعانوا معاناة كبيرة، حيث "قلّ الطّعام، واشتدّ الغلاء، وعظم البلاء، واستولى العدوّ على أكثر الأماكن خارج البلاد، ومنع المسلمين من الحرث والسّبب، وضاق الحال، وبان الاختلال، وعظم الخطب، وذلك أول عام سبعة وتسعين وثمانمائة، وطمع العدوّ في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب"[١٨]، ونظرا لهذه الأوضاع السّيّئة التي عاشتها غرناطة وأهلها" اجتمع أعيان النّاس من الخاصّة والعامّة والفقهاء والأمناء والأشياخ والعرفاء ومن بقي من أنجاد الفرسان ومن لهم النّظر بغرناطة وساروا إلى أميرهم محمد بن علي فأعلموه بحال النّاس وما هم فيه من الضّعف وشدّة الجوع وقلّة الطّعام. وأن أنجاد الفرسان هلكوا وفنوا ومن بقي منهم أثخن بالجراحات وقد امتنع عنهم الطّعام والزّرع والحرث، وأنّ

رجالهم هلكوا في تلك الملاحم ثمّ قالوا له: إن إخواننا (المسلمون)[١٩] من أهل عُدوة المغرب بعثنا إليهم فلم يأتنا أحد منهم، ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا وعدوّنا قد بنى علينا وسكن وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفا، والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا مدد لنا"[٢٠]، "واتّفق رأي الجميع من العامّة والخاصّة على أن يبعثوا لملك الرّوم من يتكلّم معه في أمر بلدهم، وقد زعم كثير من النّاس أن أمير غرناطة ووزيره وقوّاده كانوا قد تقدّم بينهم وبين ملوك النّصارى النّازل عليهم الكلام في إعطاء البلاد لهم إلا أنّهم خافوا من العامّة وكانوا يحتالون عليهم ويلاطفونهم"[٢١]. وفي الثاني من ربيع الأوّل من عام (٨٧٩هـ) استولى النّصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهنا خوف الغدر، وكانت الشّروط سبعة وستين[٢٢].

وأمّا أبو عبدالله الصّغير فقد أمر العدوّ بانتقاله "إلى قرية أُلْدَرَش، من قرى البُشرة، فارتحل أبو عبدالله الصّغير بعياله وخدمه وحشمه، وأقام بها ينتظر ما يؤمر به، ثمّ ظهر للطّاغية أن يجيزه إلى العدوة، فأمره بالجواز، وأعدّ له المراكب العظيمة، وركب معه كثير من المسلمين، ممّن أراد الجواز، حتّى نزلوا بمليلة إلى فاس -حرسها الله- وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضّعفاء السّؤال، بعد الملك الطّويل العريض"[٢٣]. وقد اختلف المؤرّخون في تاريخ وفاة أبي عبدالله الصّغير فقيل إنّه توفي سنة (٩٢٤هـ/ ١٥١٨م)، وقيل توفي سنة (٩٤٠هـ/ ١٥٣٤م)، وقيل إنّه قتل في معركة (أبي عقبة) بوادي العبيد التي وقعت بين ولي نعمته وحاميه السّلطان أبي العبّاس أحمد الوطّاسي وبين خصمه القائم عليه أبي العبّاس السّعدي، وحقّت فيها الهزيمة على الوطاسيين في ٨ صفر (٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م)[٢٤].

**أوّلاً: العنوان وعلاقته بالمضمون:**

يكشف عنوان النّص الأدبي عن جوانب متعدّدة من أفكاره ومحاوره التي يدور حولها، ويجلّي في كثير من الأحيان الغاية التي يسعى المبدع إلى إيصالها، ويعكس الصّراع النّفسي الذي يعيشه، والدّوافع التي حدت به إلى التّعبير عمّا في داخله، ولا غرابة في ذلك؛ فالعنوان "رسالة لغويّة تعرّف بتلك الهوية، وتحدد مضمونها، وتجذب القارئ إليها، وتغريه بقراءتها، وهو الظّاهر الذي يدل على باطن النّص ومحتواه"[٢٥]. وتكمن أهميّة العنوان في كونه "أوّل شيفرة رمزية(Symbolical code) يلتقي بها القارئ، فهو أوّل ما يشدّ انتباهه وما يجب التّركيز عليه وفحصه وتحليله، بوصفه نصّا

أوّليا يشير، أو يخبر، أو يوحي بما سيأتي، وعلى القراءة باعتبارها تلقّيا منهجيّا، أن تلتفت إلى العنوان محاولة ربطه بجسد النّص"[٢٦]، والعنوان "عتبة أولى من عتبات النّص، وعنصر مهم في تشكيل الدّلالة، وتفكيك الدّوال الرّمزيّة، وإيضاح الخارج قصْد إضاءة الدّاخل. ليس العنوان حلية، وإنّما هو عنصر مواز ذو فعالية في موضعة النّص في الفضاء الاجتماعي للقراءة، أي خارج النّصّي، ومتجاوب قبل ذلك مع البناء النّصّي بطريقة تتطلّب الكشف"[٢٧].

ونجد في عنوان رسالة أبي عبدالله الصّغير "الرّوض العاطر الأنفاس في التّوسّل إلى المولى الإمام سلطان فاس" تصوّراً واضحاً عن الحالة النّفسيّة التي كان عليها أبو عبدالله الصّغير بعد أن أُخِذت على يديه غرناطة، وعن الغاية التي دفعته لكتابة هذه الرّسالة؛ فغير خاف ما تحمله كلمة (التّوسّل) من إيحاءات تدلّ على الضّعف والإحساس بالذّنب، والبحث عن وسيلة يدافع بها أبو عبدالله عن نفسه ويوضّح من خلالها موقفه من ضياع الأندلس، وينفي بها أن يكون هو السّبب في سقوطها، فالتّوسّل والوسيلة لغة: ما يُتقرّبُ به إلى الغَير[٢٨]، وفي لجوء أبي عبدالله الصّغير إلى التوسّل دلالة واضحة على إحساسه بالمسؤولية تجاه غرناطة وما حلّ بها؛ فهو وليّ الأمر فيها وضياعها -حتّى ولو لم يكن له يد مباشرة فيه- دليل على ضعفه وتقصيره، ومدعاة إلى لومه ومعاتبته وتحميله المسؤولية، الأمر الذي جعله يشعر بالذّنب والتّقصير، فتوجّه إلى الشّيخ الوطّاسي بهذه الرّسالة معتذراً عمّا حدث، ومحاولاً تجميل صورته التي قَبُحت بضياع ملكه وخلعه عنه. وفي لجوئه إلى الاعتذار والتّبرير أو ما يسمّى بعلم النّفس (التّسويغ) دلالة واضحة على إحساسه بالذّنب والشّعور بالضّعف، "إذ يلجأ الفرد إلى آلية التّسويغ (Rationalization) حينما يقوم بعمل غير مقبول من الغير، فيبحث عن معاذير ومسوّغات مقبولة من الغير لتسويغ مقارفته لسلوك غير مقبول"[٢٩].

ويظهر إحساس أبي عبدالله الصّغير بالذّنب واضحاً في ثنايا هذه الرّسالة، حتّى أوصله ذلك إلى حدّ التّذلّل والهوان وإراقة ماء الوجه في الدّفاع عن نفسه، ومحاولة تبرئتها مما حلّ بغرناطة، ومن ذلك قوله "هذا مقام العائذ بمقامكم، المتعلّق بأسباب زمامكم، المترجّي لعواطف إنعامكم، المقبِّل الأرض تحت أقدامكم، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم، وما الذي يقول مَنْ وجهه خَجِل، وفؤاده وَجِل، وقضيته المقضية عن التّنصّل والاعتذار تجلّ"[٣٠]، وفي

عنوان هذه الرّسالة لا سيّما في الجزء الأوّل منه "الرّوض العاطر الأنفاس" إشارة إلى الوسائل التي اتّخذها أبو عبدالله الصّغير في توسّله إلى الشّيخ الوطّاسي ومحاولته التّقرّب منه، إذ اتّخذ المدح وسيلة للأخذ بقلبه ومسح أعطانه واستجلاب رضاه، وهو أمر مندوب إليه في سياق الاعتذار أشار له ابن رشيق القيرواني في معرض حديثه عن هذا الباب[٣١]، وهذا ما فعله أبو عبدالله الصّغير في توسّله إلى الشّيخ الوطّاسي إذ توجّه إليه بروض عاطر ضمّنه سجاياه الحميدة ومآثره الطّيبة.

لقد تضمّن عنوان الرّسالة إطلالة على مضمونها ومحاورها التي دارت حولها، التي تمثّلت بإحساس أبي عبدالله الصّغير بالضّعف والمسؤولية تجاه ما حلّ بغرناطة، ومحاولته تبرئة نفسه والدّفاع عنها بالاعتذار إلى الشّيخ الوطّاسي والتوسّل إليه بالمدح، ومحاولة إيجاد العذر لنفسه وتقديم مسوّغات لما حدث، ومن هنا فقد تبيّن أن عنوان هذه الرّسالة: "الرّوض العاطر الأنفاس في التّوسّل إلى المولى الإمام سلطان فاس" قد شكّل أمام القارئ البوابة التي فتحت آفاق النّص وكشفت عن أبرز المحاور التي دار حولها، كما كشف عن نفسية من كُتب على لسانه ووسائله التي استعان بها على التّعبير عمّا في داخله ليصل إلى مبتغاه، الأمر الذي أسهم في تشكيل رؤية مسبقة عن النّص قبل الولوج إلى محتواه وتحليل مضامينه ومحاوره.

**ثانيا: دوافع كتابة الرّسالة:**

كان لسقوط غرناطة وضياعها على يد أبي عبدالله الصّغير وخلعه عن ملكها أثر بالغ في نفسه، وولّدت لديه هذه المحنة إحساساً بالغاً بالذّنب والمسؤولية عمّا حدث، لم يعبّر عنه صراحة، وإنّما نطقت به رسالته التي أرسلها إلى الشّيخ الوطّاسي "معتذرا عمّا أسلفه، متلهّفا عمّا خلّفه"[٣٢] و"تمهيدا لعذره، وتوطئة لمقصده، وتطارُحاً على تلك الأبواب وتملّقاً، وتمسّكاً بذلك الجناب، وتعلُّقا"[٣٣]، فقد كان على يقين بأنّه هو المسؤول عمّا حلّ بغرناطة، وعليه يقع اللوم والتّقصير في الذّود عنها وحمايتها، ولم يأت إحساس أبي عبدالله هذا من فراغ؛ فقد كان بين أمرين أحلاهما مرّ، أوّلهما: اتّهامه بالتّآمر مع القشتاليين والتّفاوض معهم على تسليم غرناطة لهم مقابل منافع ذاتية له ولحاشيته المتآمرة[٣٤]، وثانيهما: إحساسه بالضّعف والذّل والهوان، فهو الحاكم وولي الأمر، ومن بين يديه أُخِذت غرناطة وخُلِع عن ملكها، فأضحى مثالاً للحاكم الضّعيف الخائر، الذي عجز عن حماية ملكه والذّود عنه.

وبهذا يتبيّن لنا أنّ هذه الرّسالة أُنشئت لتحقيق غايتين أساسيّتين عند أبي عبدالله الصّغير هما:

- التّوسّل إلى الشّيخ الوطّاسي سلطان فاس والاستجارة به.
- الاعتذار عن ضياع غرناطة وتبرير موقفه مما حلّ بها والدّفاع عن نفسه من التّهم التي رُمي بها.

**أوّلا: التوسّل إلى الشّيخ الوطّاسي سلطان فاس والاستجارة به:**

بدأت محنة أبي عبدالله الصّغير تشتدّ بعد تسليم غرناطة وخلعه عن ملكها؛ فلم يَعُد له من الأمر شيء، وصار أمره كلّه بيد عدوّه الذي أسلم له، يوجهه كيف يشاء، فلم يَعُد حرّاً حتى في اختيار مكان إقامته، فأمره ملك الرّوم في البداية "بالانصراف عن غرناطة إلى قرية أندراش[٣٥] من قرى البُشرّة فارتحل الأمير محمّد بعياله وحشمه وأمواله وأتباعه فنزل قرية أندراش، وأقام فيها ينتظر ما يؤمر به"[٣٦]. وكان أبو عبدالله الصّغير إبّان إقامته بأندراش لا يغيب عن أنظار عدوّه، حيث فرضت عليه رقابة صارمة ترصد حركاته وسكناته، خشية أن يكون مثاراً للفتن والقلاقل[٣٧]، ولم يمضِ عام على إقامته في أندراش حتى رأى الملكان الكاثوليكيان فرناندو وإيسابيلا أن يصرف الأمير محمّد بن علي إلى برّ العدوة، وليتمكّنا من تحقيق هذه الغاية تمّت الاستعانة بوزيريّ أبي عبدالله الصّغير: يوسف بن كُماشَة وأبي القاسم عبدالملك، فوقعت بينهما وبين فرناندو دي ثافرا أمين الملكين الكاثوليكيين مفاوضات في شأن مغادرة أبي عبدالله الأندلس وعبوره إلى المغرب، وقام ابن كُماشَة بعرض ما تمّ الاتّفاق عليه مع أبي عبدالله الصّغير، الأمر الذي أثار غضبه حتى كاد يبطش بابن كُماشَة، غير أن ابن كُماشَة حاول إقناعه بذلك، وبيّن له أن البقاء في أرض العدوّ، وفي ظل العبودية والهوان لم يبق له محلاً، وأنه ليس مكفول السّلامة والطّمأنينة، وأن العبور إلى أرض الإسلام خير وأبقى، فتأثر أبو عبدالله بكلام ابن كُماشَة، واقتنع بأنّ تلك الحياة الذّليلة التي فرضت عليه لا تخلق به ولا تجمل، وأنه يستحيل عليه البقاء في هذا الوضع المؤلم تابعاً لملك قشتالة[٣٨].

وغادر أبو عبدالله وطنه مغلوباً منكسراً ضعيفاً مثقلاً بمشاعر الذّل والهوان التي لقيها بعد أن تنازل عن ملكه للقشتاليين وسلّم لهم غرناطة، فتوجّه إلى الشّيخ الوطّاسي متوسّلاً إليه ومستجيراً به؛ علّه يجد في كنفه الأمن الذي فارقه مذ أسلم لعدوّه وحكّمه فيه وفي ملكه.

إنّ في لجوء أبي عبـدالله الصّغـير إلى

الشّيخ الوطّاسي والتّوجّه إليه بالتّوسّل والاستجارة تصويراً واضحاً لحالة الضّعف والانكسار التي آل إليها، وإحساسه بالذّنب والمسؤولية تجاه ما حلّ بغرناطة، الأمر الذي جعله يبحث عمّن يؤمّن خوفه ويغيث لهفته ويقيله من عثرته، وفي معنى التّوسّل والاستجارة دلالة واضحة على هذه المشاعر وتصوير لحال المتوسّل والمستجير ونفسيّته، وفي التّوسّل دلالة على طلب اللجوء والاقتراب، فمعناه اللغويّ كما ذُكِر سابقا ما يتقرّب به إلى الغير، وفي معنى الاستجارة دلالة على الخوف والسّعي إلى طلب الأمن والحماية، فالجار والمجير الذي يمنعك ويجيرك، واستجار من فلان فأجاره منه، وأجاره الله من العذاب: أنقذه[٣٩].

لقد وجد أبو عبدالله الصّغير أنّ الشّيخ الوطّاسي هو المعين له، وهو وسيلته وملاذه الذي بوسعه أن يخفّف عنه ما كان يجده من مرارة الذّل والهوان الذي أحاط به في كنف القشتاليين، بعد أن سلّم لهم الأمر، وهو الذي بإمكانه أن يريحه من مرارة الإحساس بالذّنب والمسؤولية عن ضياع غرناطة، فتوجّه إليه مستجيراً به ومتوسّلاً، وكان هذا المطلب هو الصّرخة الأولى التي نفث بها صدره ونطق بها عنوان هذه الرّسالة، وصرّح بها في مُفتتح الجزء الشّعري من هذه الرّسالة، فقال:[٤٠]

مولى الملوكِ ملوكِ العُربِ

والعجمِ رَعْياً لما مثلُهُ يُرْعى من الذّممِ

بكَ استَجرْنا ونعمَ الجارُ أنتَ

لمن جار الزَّمانُ عَلَيْهِ جَوْرَ مُنْتَقِمِ

وصرّح بها أيضاً بقوله: "هذا مقام العائذ بمقامكم، المتعلّق بأسباب زمامكم، المترجّي لعواطف قلوبكم وعوارف إنعامكم"[٤١].

وحاول أبو عبدالله الصّغير أن يستدرّ عطف الشّيخ الوطّاسي ويستميل قلبه بتصوير المحنة التي ألّمت به، فاشتكى له تقلّب الدّهر عليه وتبدّل الحال به، فقال[٤٢]:

وهي الليالي وَقَاكَ اللهُ صَولتَها

تَصولُ حتّى على الآسادِ في الأجَمِ

كنّا ملوكاً لنا في أرضِنا دولٌ

نِمْنا بها تحتَ أفنانٍ من النّعَمِ

فَأيْقظتنا سهامٌ للرّدى صُيبٌ

يُرْمى بأفجع حَتْفٍ منْ بهنّ رُمي

وصوّر له مرارة الحال التي وصل إليها حتّى صار مدعاة لإثارة شفقة النّاس عليه وحزنهم لما حلّ به وبكائهم عليه بمرارة، فقال[٤٣]:

يبكي عليه الذي قد كانَ

يعرفهُ بأدْمعٍ مُزجَتْ أمواهُها بدَمِ

وكشف له عن حزنه العميق لضياع ملكه وفقدان سلطانه، بعد أن كان الأمر أمره والملك ملكه، واستحضر في هذا المقام بقول من عاش هذه المعاناة من قبله واشتكى منها، بقوله[٤٤]:

فبينا نسوسُ النّاسَ والأمرُ أمرُنا
إذا نحن فيهم سُوقةٌ نَتَنصَّفُ
فأُفٌّ لدنيا لا يدومُ نعيمُها
تَقَلَّبُ تارات بنا وتصرّفُ

وتعلو نبرة الشّكوى والتّعبير عن الألم والإحساس بالضَعف عند أبي عبدالله الصّغير، فيشكو للوطّاسي المرارة والألم الذي حلّ به فأنهك قواه وأضعفه حتى غدا كالطّفل الضّعيف الذي فرّ إلى أمه؛ لإغاثته ونجدته وتأمين ضعفه، فيصور حاله هذه بقوله: "وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقاً، وجرّعتنا من صاب الأوصاب كأساً دهاقاً، ولم نفزع إلى غير بابكم المنيع الجناب، المنفتح حين سدّت الأبواب، ولم نلبس غير لباس نعمائكم حين خلعنا ما ألبسنا الملك من الأثواب، وإلى أمّه يلجأ الطّفل لجأ اللهْفان، وعند الشّدائد تمتاز السّيوف في الأجفان من الأجفان"[٤٥].

ويحاول أبو عبدالله الصّغير أن يؤثّر في الوطّاسي؛ لينال ما يريده منه من الأمن والنّجدة والإغاثة، باستدعاء صور للنّجدة والوفاء كانت مضرب المثل في هذه الأبواب، فيطلب منه أن يكون كالسّموءل في وفائه لامرئ القيس[٤٦]، وكالمعلّى الذي أجار امرأ القيس من المنذر بن ماء السّماء[٤٧]، وقد توسّل إليه بهذه الأمثلة ليحظى بما حظي به امرؤ القيس عند السّموءل والمعلّى، فيخاطبه بقوله[٤٨]:

كنْ كالسّموألِ إذ سارَ الهمامُ له
في جَحْفلٍ كسوادِ اللّيلِ مُرتكمِ
فلم يُبِحْ أدرُعَ الكنديّ وهو يرى
أنّ ابنهُ البر قد أشْفى على الرّجمِ
أو كالمعلّى مع الضّلّيلِ الأروعِ إذ
أجاره من أعَاريب ومن عَجَمِ
وَصَارَ يَشْكُرُه شُكْراً يكافئ ما
أسدى إليهِ من الآلاءِ والنّعَمِ

ويوظّف أبو عبدالله الصّغير في توسّله إلى الوطّاسي واستجارته به المدح والثّناء عليه، مركّزاً في هذا السّياق على الفضائل والمناقب الحميدة التي تدور في مضامينها حول الغاية التي يسعى إلى الوصول إليها، وهي إجارته وتأمين خوفه وإقالته من عثرته التي أودت به إلى ضياع ملكه وإذلاله بعد خلعه عنه، فنجده يبيّن له أنّه اختار اللجوء إليه دون غيره لما اجتمع فيه من: الكرم، والنّجدة، والشّجاعة، والوفاء، وغيرها

من الفضائل التي أغرته بأن يكون هو المقصود، ويستدعي في هذا السّياق أيضاً عظماء ذكرهم التّاريخ لنجدتهم وإغاثتهم الملهوفين وذوي الحاجات، فيقول(٤٩): "ألا وإنّ لله سبحانه، في مقامكم العليّ الذي أيّده بالفتوحات المتلاحقة، من قاعدته المتأصّلة، إلى أصل، فبمثله يجب اللياذ، والعياذ، ولشبهه يحق الالتجاء، والارتجاء، ولأمر ما آثرناه واخترناه، بعد أن استرشدنا الله سبحانه واستخرناه. ونرجو أن يكون ربنا، الذي هو في جميع الأمور حسبنا، قد خار لنا حيث أرشدنا وهدانا، وساقنا توفيقه وحَدانا، إلى الاستجارة بملك حفي، كريم وفي، أعزّ جاراً من أبي دواد، وأحمى أنفاً من الحارث بن عُباد، يشهد بذلك الدّاني والقاصي والحاضر والباد، إن أغاث ملهوفاً فما الأسود بن قنان يُذْكر، وإن أنعش حُشاشة هالك فما كعب بن مامة على فعله يشكر".

ويذكر أبو عبدالله الصّغير للشّيخ الوطّاسي بأنّه اختار اللجوء إليه دون غيره مع أنّه وصلت إليه دعوات من جهات مختلفة تدعوه إليها، ولكنه اختار الحضرة المرينيّة؛ لعلمه بأن حاجته ستكون مقضية عند السّلطان الوطّاسي، فهو(٥٠): "المحارب للمحاربين، والمؤمّن للمستأمنين، فهو الخليق الحقيق بأن يسوّغ أصفى مشاربه، ويبلغ أوفى مآربه، على توالي الأيّام والشّهور والسّنين، ويخلص من الثّبور إلى الحبور، ويخرج من الظلمات إلى النّور، خروج الجنين، ولعلّ شعاع سعادته يفيض علينا، ونفحة قبول إقباله تسري إلينا".

ويركّز أبو عبدالله -كما أسلفنا- في مدحه الشّيخ الوطّاسي وبني مرين عامّة على ما يبتغيه منهم، من الأمن والحماية وتأمين خوفه، فيمدحهم بذلك قائلا(٥١):

والحمْـدُ لله إذْ أبقـى خلافَتُـه
كَهْفاً لَنـا مـن يخـيِّمْ فيـهِ لم يـرِمِ
حِرزٌ حريزٌ وعـزٌّ قـائمٌ ونـدىً
غمـرٌ دراكٌ بـلا مـنّ ولا سـأمِ

وبقوله(٥٢):

يرونَ حقّـاً علـيهم حفـظَ جـارهمِ
فلـمْ يُضَـرْ نـازلٌ فـيهم ولم يُضَـمِ
فروعه بالدّواهي لا يراع ولا يغمُّ
منهـا بمـا يعـرو مـن الغمـمِ
هُـمُ البحـارُ سماحـاً غـير أنّ بهـا
ما قد أنافَ على الأطوادِ من هممِ
ولـيس يسـلم مـن حتـفٍ محـاربهمْ
حتى يكون إليهم مُلْقَيَ السَّلَمِ

ويقول في ذلك أيضا(٥٣):

إذا ابْتَغَـتْ نِعَمـاً منـه العُفَـاة لـه
لم يسـمعوا كِلْمـةً منـه سـوى نعـمِ

وإن يعـبِّس زمـانٌ في وجـوهِهم
لم يبصـروا غـير وجـهٍ منـه مُبْتَسِـمِ

ويظهر إلحاحه على ما يريده من الأمن والالتجاء والقبول عنده واضحاً أيضا في قوله(٥٤):

ذاكـم هـو الشّـيخُ فاعجـب إنـه هـرم
جـوداً وحاشـاه أن يُعْـزى إلى هـرمِ
وحسْـبُنا أن أيـدينا بـهِ اعتَصَمـتْ
مـن حَبْلـهِ بـوثيقٍ غـير منْفَصـمِ
فمـا محالـفهُ يومـاً بمضـطهَدٍ
ولا مـؤالفُهُ يـوماً بـمُـهـتَضَـمِ

وفي قوله(٥٥): "وها نحن قد وجّهنا إلى كعبـة مجـدكم وجـوه صلـوات التّقـديس والتّعظيم، بعدما زينّا معاطفها باستعطافكم بدُرّ ثناء أبهى من درّ العقد النّظيم، منتظمين في سلك أوليائكم، متشرّفين بخدمة عليائكم، ولا فَقَدَ عزّة ولا عدمها من قصد مثابتكم العزيزة وخدمها، وإنّ المترامي على سنائكم لجدير بحرمتكم واعتنائكم، وكلّ ملهوف تبوّأ من كنفكم حصناً حصينا، عاش بقية عمره محروساً من الضّيم مصونا، وقد قيل في بعض الكلام: من قعدت به نكاية الأيّام، أقامته إغاثة الكرام، ومولانا أيّده الله تعالى وليُّ ما يزفّه إلينا من مَكرُمة بِكر. وما عُهِد منذ وجد إلا سريعا إلى داعي النّدى والتّكرّم، بريئا من الضّجر بالمطال والتّبرّم، حافظا للجار الذي أوصى النّبي ﷺ بحفظه، مستفرغاً وسعه في رَعْيه المستمر ولحظه".

ولم يقف أبو عبدالله الصّغير في مدح الوطّاسي عند هذه المعاني فقط، وإنّما مدحه بما جرى عليه الشّعراء في باب المدح من معان نحو: البأس، والكرم، والحكمة، وسداد الرّأي، وغيرها(٥٦)، فمن الأمثلة على مدحه بالبأس والكرم والبطولة قوله(٥٧):

وصيتُ مولى الورى الشّيخ الإمام غدا
في النّـاس أشْـهَرَ مـن نـارٍ علـى عَلَـمِ
سـلالةُ الأمـراءِ الجـلّةِ الكـبراء
العليـةِ الظّـاهراء القـادةِ الـبهمِ
بـنو مـرين ليـوثٌ في عـرين أبـوا
رؤيـا قريـن لهـم في البـأسِ والكـرمِ
النّازلين من البيضاءِ وسـط حمىً
أحمـى مـن الأبلـقِ السّـامي ومـن إرَمِ
والجائسـين بـدُهْمِ الـخيلِ كـلّ ذرا
والدّاعسين بسمر الخط كل كمي

وقوله يمدحه بالشّجاعة والحلم والعلم وصفات أخرى(٥٨):

وجـه تـبين سِـماتُ المكرمـات بـهِ
كما تبين سماتُ الصّدقِ في الكلـمِ

وراحـــةٌ لم تـــزلْ في كـــلّ آونـــةٍ
في نيْلِهـا راحـةُ الشّـاكي مـن العَـدَمِ
لله مـــا التَزَمَتْـه مـــنْ نوافـلِـــهِ
أيّـــامَ لا فـــرضَ مفـــروضٍ بملتـــزم
أنسـى الخلائـقَ في حلـمٍ وفي شـــرَفٍ
وفي ســـــخاءٍ وفي علمٍ وفي فهمِ
فجـــازَ معتـــمداً مـــنهمْومعتضـــداً
وامـــتاز عـــن واثـقٍ مـنهمْ ومعتصـمِ
ويقول في تفرّده وحكمته وبعد نظره ورجاحة عقله وحسن تدبيره[٥٩]:
فهـو الـذي مـا لـه نـــدٌّيشـــابهُهُ
مـن كـلّ متّصـفٍ بالـدّهي متَّسـمِ
يـــدبّرُ الأمـــرَ تـــدبيراً يخلّصـــهُ
ممّا عسى أن يـرى فيـه مـن الـوهمِ
ويبصرُ الغيبَ لحظُ الـذّهنِ منـهُإذا
تعمّى عن إدراكه ألحاظُ كلّ عمي
ويـــنعمُ النّظـــرَ المـــفضي بنـــاظِرِه
لصوْب وجه صواب واضح اللقمِ

**ثانيا: الاعتذار عن ضياع غرناطة والدّفاع عن نفسه وتبرئتها من التهم التي رُمي بها:**

كان أبو عبدالله الصّغير بعد ضياع غرناطة وخلعه عن ملكها في موقف حرج لا يُحسد عليه، فأصابع الاتّهام تشير إليه وتحمله مسؤولية ضياع البلاد، وهو نفسه ذاق مرارة ما حلّ بها بعد سيطرة القشتاليين عليها، وإخراجه منها ضعيفاً مهزوماً لا يملك من أمره شيئا، تصارعه مشاعر وأحاسيس كلّها مرّة وصعبة؛ فهو في أعين النّاس الذين عاشوا مأساة السّقوط أو سمعوا بخبره خائن تآمر مع الأعداء وتحالف معهم حتى ملكوا غرناطة، وهو في أعين آخرين حاكم خائر ضعيف لم يقوَ على حماية ملكه والذّود عنه، وهو في الحالتين كلتيهما ملوم، وعلى عاتقه تقع مسؤولية ضياع الأندلس وأفول شمس الإسلام عنها حتى يومنا هذا، ولهذا كلّه تولّد لديه إحساس بالمسؤولية والذّنب من جهة، وشّعور بالذّل والهوان والضّعف من جهة ثانية، فأمر البلاد كان موكلاً إليه، وعلى يديه ضاع كلّ شيء، الأمر الذي جعل صورته غير مقبولة عند كلّ من عرف خبره، وحتى عنده ذاته، فحاول أن يجد لنفسه مخرجاً ويسوّغ موقفه ويعتذر عن نفسه أمام الشّيخ الوطّاسي.

ولم يأتِ اعتذار أبي عبدالله الصّغير عمّا حل بالبلاد من فراغ أو مبالغة منه أو إفـراط فـي تـأنيب الضّمير والإحساس بالمسؤولية، وإنّما ثمّة دوافع حدت به إلى ذلك، أفصح عنها في هذه الرّسالة، فأشار إلى وجود أناس اتّهموه بالتآمر مع الأعداء

وقالوا فيه من الأقاويل التي انتشرت في البلاد، فقال[٦٠]: "ولقد قُذِفنا من الأباطيل بأحجار، ورُمينا بما لا يُرمى به الكفّار، فضلاً عن الفجّار، وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو ما لديكم منه حفظ الجار، وإذا عظم الإنكاء، فعلى تكاءة التجلّد الاتّكاء، أكثر المكثرون، وجهد في تعثيرنا المتعثّرون، ورمَونا عن قوس واحدة، ونظمونا في سلك مع الملاحدة".

وبيّن أبو عبدالله أن هناك وشاة حاولوا تشويه صورته عند الشّيخ الوطّاسي، فتوجّه إليه ملتمساً العفو، وطالباً منه عدم اللوم والمعاتبة على ما قيل فيه، فقال[٦١]:

وابسطْ لنا الخُلُقَ المرجوّ باسطُهُ
واعطف ولا تنحرف واعذر ولا تلمِ
لا تأخذنّا بأقوال الوشاة ولم نُذنب
ولو كثرت أقوال ذي الوخم

لقد كان أبو عبدالله الصّغير يعي صعوبة موقفه تجاه التّهمة التي رمي بها (التآمر مع الأعداء)، فحاول ابتداء أن يدرأها عن نفسه، وينكر أن يكون قد أقدم على فعل ذلك، وصوّر بشاعة هذه التّهمة وفظاعتها وحاول تبرئة نفسه منها فقال[٦٢]: "نعم كلّ شيء ولا ما يقوله المتقوّل، المشنِّع المهوِّل، النّاطق بفم الشّيطان المُسوِّل، ومن أمثالهم "سبّني واصدق، ولا تفتر ولا تخلق"، أفمثلي كان يفعل أمثالها، ويحتمل من الأوزار أحمالها المضاعفة؟ ويهلك نفسه ويحبط أعمالها، عياذا بالله من خسران الدّين، وإيثار الجاحدين والمعتدين، قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين، وأيّم الله لو علمت شعرة في فوْديَّ تميل إلى تلك الجهة لقطعتها، بل لقطفت ما تحت عمامتي من هامتي وقطعتها".

ويتّخذ أبو عبدالله الصّغير من القضاء والقدر مخرجاً له، فيحاول أن يختبئ وراءه ويردّ ما حلّ لغرناطة له، فيعتذر بأن ما حدث كان حتماً لا مردّ له، ويقول[٦٣]:

حكمٌ من اللهِ حتمٌ لا مردَّ لهُ
وهَلْ مردٌ لحكم منهُ منحتمِ
وهي الليالي وقاكَ اللهُ صوْلَتها
تصولُ حتّى على الآسادِ في الأجمِ

ويردّ الأمر إلى القضاء والقدر أيضاً في ردّه على الوشاة الذين طلب من الوطّاسي عدم الالتفات إلى ما قالوا فيه، ويطلب منه العفو وعدم اللوم، فيخاطبه قائلا[٦٤]:

لا تأخذنّا بأقوال الوشاةِ ولم
نُذنب ولو كثُرتْ أقوال ذي الوخمِ

فمـــا أطقنـــا دفاعـــا للقضـــاء ولا
أرادت أنْفُسُـــــنا مـــــا حلّ من نقمِ

ويبالغ أبو عبدالله الصّغير في ردّ أمر سقوط غرناطة إلى القضاء والقدر، ويكثر من الإشارة إلى ذلك حتّى بدا وكأنّه لا علاقة له بالأمر، وأن الله لم يُعنه على حمايتها والدّفاع عنها، ويظهر هذا المعنى واضحا في قوله[٦٥]: "هل اتّفق لك قطّ وعرض، خروج أمر ما عن القصد منك فيه والغرض؟ مع اجتهادك أثناءه في إصدارك وإيرادك، في وقوعه على وفق اقتراحك ومُرادك، أو جميع ما تزاوله بإدارتك، لا يقع إلا مطابقاً لإرادتك، أو كلّ ما تقصده وتنويه، تحرزه كما تشاء وتحويه؟ فلا بدّ أن يقرّ اضطرارا، بأن مطلوبه يشذّ عنه مراراً، بل كثيراً ما يفلت صيدُه من أشراكه، ويطلبه فيعجز عن إدراكه"، ويحاول أبو عبدالله أن يؤكّد مبرّره هذا ويدعمه بردّه إلى القضاء والقدر، ويستدلّ عـلى ذلـك بـالأحـاديـث النّـبويـّة، يقول: "ومسألتنا من هذا القبيل، أيّها النّبيه النّبيل، ثمّ نسرد له من الأحاديث النّبويّة ما شينا، ممّا يسايرنا في غرضنا ويماشينا، كقوله ﷺ: "كلّ شيء بقضاء وقدر حتّى العجزوالكيس[٦٦]" وقوله أيضاً: "لو اجتمع أهل السّموات والأرض على أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه[٦٧]".

ويعتذر أبو عبدالله الصّغير عمّا حل بغرناطة بمسوّغات أخرى يحيل فيها الأمر إلى نوائب الدّهر، التي جعل منها هي الأخرى حتماًلا يردّ، وأمرا متوقّعاً، وإلى جانب ذلك يعترف بأنّه كان غافلاً عن ملكه مأخوذاً به، حتّى أفاق من غفلته، وقد أصابته نوائب الدّهر وسلبته كل شيء، وفي ذلك يقول[٦٨]:

وهـــي الليـــالي وقـــاكَ اللهُ صـــولتها
تصولُ حتّى على الآسادِ في الأجمِ
كنّـــا ملوكـــاً لـــــنا في أرضـــنا دولٌ
نمنا بها تحـتَ أفـــنانٍ مـــــن الـنّعمِ
فَأيْقَظَتْنَـــا ســـــهامٌ للـــرّدى صُـــيُبٌ
يُرْمـــى بـــأفجعِ مـــــنْ بهـــنّ رُمِـــي
فـلا تـنمْ تَـــحْتَ ظـلِّ الملـكِ نومتنـا
وأيّ مـــلك بـــظلّ الملـــكِ لم يَـــنَمِ

لقد أدرك أبو عبدالله الصّغير بأنّه يدين نفسه عندما صرّح بغفلته عن ملكه فحاول في الشّطر الثّاني من البيت الأخير أن يجعل غفلة الملوك عن ملكهم أمراً معتاداً فقال: "وأيّ ملك بظلّ الملكِ لم يَنَمِ"، فكأنه يريد بهذا الاستدراك أن يجد لنفسه مخرجاً حتّى للغفلة التي صرّح بها.

ويتوسّل أبو عبدالله بذريعة أخرى يلوذ بها، ليرفع عن نفسه اللوم، فيبيّن أنه

كان يسعى إلى تحقيق ما يصبو إليه كلّ حاكم -دون أن يوضح ماهيته- ولكنّ الأمر لم يأت وفق مراده، وعلّة ذلك عنده هي نكبات الدّهر، التي حالت بينه وبين ما كان يصبو إليه، وأقعدته قعدة لا قيام بعدها، وفي ذلك يقول[٦٩]:

تـالله مـا أضـمرتْ غشّـاً ضـمائرنا
ولا طَوَتْ صـحّةً منهـا علـى سَـقَمِ
لكن طَلَبْنا من الأمـرِ الـذي طَلَبـتْ
ولاثُنـا قبلنـا في الأعصـرِ الـدُّهُمِ
فخاننـا عنـده الجَـدُّ الخـؤون ومـن
تقعُـدْ بـــه نَكَبَـاتُ الـدّهرِ لم يَقُـمِ

وبعد النّظر في المسوّغات التي حاول أبو عبدالله الصّغير أن يدافع بها عن نفسه ويردّ على من اتّهمه بالتآمر مع القشتاليين يتبيّن أنّه حاول الاختباء وراء مسوّغات وأعذار تُحْسَبُ عليه لا له، إذ عدّ ما حلّ بغرناطة من باب القضاء والقدر والحتم الذي لا يمكن ردّه، دون أن يبيّن ما الذي قام به إزاء ذلك، وما التّضحية التي قدّمها غير أنّه وافق على فكرة التّسليم للأعداء والانصياع لأوامرهم، والخروج من بلاده ضعيفاً يكبله الإحساس بالذّنب والمسؤولية؛ فهو مقصّر بالفعل، وهو من سهّل للقشتاليين الأمر مقابل النّجاة بأهله ونفسه، دون أدنى مقاومة منه، وعدّ النّجاة بالأهل والأرواح والمال نعمة منّ الله عليه بها، وهو من اعترف بهذا فقال[٧٠]: "فمن سلمتْ له نفسه التي هي رأسُ ماله، وعياله وأطفاله اللذان هما من أعظم آماله، وكلّ أو جلّ أقلّ رياشه، وأسباب معاشه الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه، ثمّ وجد مع ذلك سبيلا إلى الخلاص، في حال مياسرة ومساهلة دون تعصّب واعتياص، بعدما ظنّ كلّ الظّنّ أن لا محيد ولا مناص، فما أحقّه حينئذٍ وأولاه، أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه، على ما أسداه إليه من رِفْده وخيره، ومعافاته ممّا ابتُليَ به كثير من غيره".

إنّ هذا الكلام يدلّ دلالة واضحة على أنانيّة أبي عبدالله الصّغير وحرصه على مصلحته الشّخصيّة وتقديمها على مصالح العامّة من أهل غرناطة، وتفريطه في كلّ شيء مقابل سلامته، ويكشف أيضاً عن تقصيره وضعفه، حيث أسلم لهم بمياسرة ومساهلة دون مقاومة، وفي هذا المقام يظهر الفرق الكبير بينه وبين المعتمد بن عبّاد الذي فضّل الموت على أن يسلم للأعداء ويخضع لهم فقال ردّا على من عرض عليه التّسليم لأعدائه[٧١]:

قـالوا: الخُضُـوعُ سياسـةٌ
فَلْيَبْـد منـك لهـم خضـوعُ

وألـذُّ مـــن طعْـمِ الخُضُـو
ع عَلـى فَمِـي السّـمُّ النّقيـعُ
إن يسْلِبِ القـــومُ الــعدَى
مُلْكـي وَتُسْـلِمني الجمـوع
فـــالقلبُ بـــينَ ضُلُوعـــه
لَمْ تُسْـلِمِ القلـبَ الضُّـلوعُ
لـــمْ أسْـتَلِب شـرف الطِّبـاعِ
أيُسْـلَبُ الشّـرَفُ الرّفيـعُ

ويتبيّن لنا بعد النّظر في المسوّغات التي توسّل بها أبو عبدالله الصّغير للدّفاع عن نفسه أنّ إحساسه بالضّعف والتّقصير في الدّفاع عن ملكه وعجزه عن حمايته كان أكبر من أن يحاول إنكاره أو إخفاءه، إذ كشفت عنه عبارات عدّة، منها قوله يقرّ بالذّنب ويطلب من الله المغفرة[٧٢]: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾، ومنها قوله يقرّ فيه بالذّنب عجزه عن أن يجد لنفسه العذر[٧٣]: "وما الذي يقول منْ وجهه خجِل، وفؤاده وَجِل، وقضيّته المقضيّة عن التّنصّل والاعتذار تجلّ، بيد أنّني أقول لكم ما أقوله لربي واجترائي عليه أكثر، واحترامي إليه أكبر: اللهمّ لا برئ فأعتذر، ولا قوي فأنتصر، لكنّي مستقيل، مستنيل مستعتب مستغفر﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[يوسف:٥٣].

وتبيّن أيضا أن أبا عبدالله الصّغير لم يحسن في توسّله للشّيخ الوطّاسي ودفاعه عن نفسه إخفاء ما تولّد عن إحساسه بالذّنب والتّقصير من الذّل والضّعف والهوان، حتّى زالت من خطابه أنفة الملوك وعزّتهم، وبدا بصورة المذنب الضّعيف الذي أنساه ذنبه قدْرَ نفسه وأعجزه حتّى عن الكلام، ودفعه إلى تقبيل الأرض تحت الأقدام، وهو الذي قدّم هذه الصّورة عن نفسه بقوله[٧٤]: "هذا مقام العائذ بمقامكم، المتعلّق بأسباب زمامكم، المترجّي لعواطف قلوبكم وعوارف إنعامكم، المقبّل الأرض تحت أقدامكم، المتلجلج[٧٥] اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم".

## الخاتمة:

فقد تناول هذا البحث دراسة رسالة أبي عبدالله الصّغير "الرّوض العاطر الأنفاس في التّوسّل إلى المولى الإمام سلطان فاس" التي أنشأها الكاتب البليغ أبو عبدالله محمّد بن عبدالله العربي العُقيّلي على لسانه بعد سقوط غرناطة وخلعه عن ملكها عام ٨٩٧هـ، وبعث بها إلى صاحب فاس الشّيخ الوطّاسي، الذي استقر مقام أبي عبدالله

الصّغير عنده بعد أن أبعده القشتاليون عن الأندلس كلّها، يعتذر فيها عن ضياع غرناطة ويدافع عن نفسه ويبرِّئُها من التّهم التي رمته بالتآمر مع الأعداء.

ولقد درس البحث هذه الرّسالة دراسة موضوعية نفسيّة، فبدأ بمقدّمة تاريخيّة عرض فيها لأهم الأحداث التي مرّت بها غرناطة منذ تولي أبي عبدالله الصّغير حكمها وحتّى سقوطها وخلعه عن ملكّها؛ وذلك لرسم صورة عامّة عن الواقع السّياسي الذي عاشه أبو عبدالله الصّغير وتبيّن الظّروف التي أودت به إلى تسليم غرناطة وخلعه عن ملكها، والحال التي آل إليها بعد تلك المحنة.

وتناول البحث عنوان الرّسالة وعلاقته بالمضمون، ودوافع كتابتها، فتبيّن أن ثمّة علاقة واضحة بين عنوان الرّسالة "الرّوض العاطر الأنفاس في التّوسّل إلى المولى الإمام سلطان فاس" ومضمونها والحالة النّفسية لأبي عبدالله الصّغير، الذي كان هدفه من كتابة هذه الرّسالة تحقيق غايتين أساسيّتين هما: التّوسّل إلى الشّيخ الوطّاسي والاستجارة به، والاعتذار عن ضياع غرناطة وتبرير موقفه من ذلك، والدّفاع عن نفسه وتبرئتها من تهمة التآمر مع القشتاليين والتّفاوض معهم على تسليم غرناطة لهم مقابل منافع ذاتية له ولحاشيته المتآمرة.

أمّا غايته الأولى المتمثّلة باللجوء إلى الشّيخ الوطّاسي والتّوسّل إليه فسعى إلى تحقيقها من خلال تصوير المأساة التي حلّت به، فاشتكى من المعاناة التي لقيها بعد زوال ملكه وتبدّل الحال به، وتوجّه إليه أيضا بالمدح والثّناء عليه، مركّزا في هذا الجانب على ذكر الفضائل المتّصلة بالحاجات التي يسعى إلى تحقيقها كالأمن واللجوء والعفو والوفاء، واستعان في هذا الجانب على استدعاء نماذج من التّراث عُرِفت بنجدة الملهوفين وإغاثتهم وتأمين الخائفين وحمايتهم.

وأمّا غايته الثّانية المتمثّلة بالاعتذار عن ضياع الأندلس وتبرئة نفسه من تهمة التّآمر مع القشتاليين فقد سعى إلى تحقيقها من خلال تقديم أعذار ومسوّغات تذرّع بها ليبيّن سلامة موقفه تجاه ما حلّ بغرناطة، واتّكأ في هذا الجانب على القضاء والقدر، فبيّن أنّ ما حدث حكم من الله لا يمكن ردّه أو التّصدّي له، واتّكأ أيضا على نوائب الدّهر وتقلّباته، وعدّها أيضا من باب القضاء والحتم الذي لا يمكن دفعه.

واتّضح بعد النّظر في الأعذار التي توسّل بها أبو عبدالله الصّغير في دفاعه عن نفسه

وتبرير موقفه من ضياع غرناطة أنّه لم يستطع إخفاء إحساسه بالذّنب والمسؤولية تجاه ما حلّ بغرناطة؛ فوظّف في الرّسالة كلمات وعبارات تكشف عن ذلك بوضوح، وغابت عن خطابه هيبة الملوك وأنفتهم وعزّة أنفسهم، فقدّم نفسه بصورة المذنب الذي يسعى إلى العفو والمغفرة، وقد ألح على هذا المطلب، وقدّم نفسه أيضا بصورة الضّعيف المهزوم العاجز عن الكلام، ورضي على نفسه الذّل بأن يقبّل الأيادي والأرض تحت الأقدام، ومبعث هذا كلّه صعوبة موقفه وعظم المحنة التي عاشها، فكان كما أسلفنا بين أمرين أحلاهما مرّ، وتهمتين كلتيهما صعبة وقاسية، فهو إمّا متآمر مع الأعداء، وإمّا ضعيف خائر عجز عن تأمين بلاده.

**الهوامش:**

(١) ذكر المقّري ترجمته نقلا عن الوادي آشي في: المقّري، أحمد بن محمّد المقّري، نفح الطّيب، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ج٤، ص٥٤٨، ٥٤٩: إمام الصّناعة، وفارس حلبة القرطاس واليراعة، وواسطة عقد البلاغة والبراعة الذي قطف الكمال لمّا نوّر، ورتّب محاسن البديع في درر فِقَرة وطوّر، وغرف من بحر عجاج، واقتطف من خاطر وهّاج، أبو عبدالله محمّد ابن عبدالله العربي العقيلي. ووصفه الوادي آشي بأنه شاعر العصر ومالك زمامي النّظم والنّثر، والفقيه المتفنّن العارف الأوحد النّبيل. وذكره المقّري أيضا في أزهار الرّياض فقال: وصفه الإمام ابن داود بقوله "الفقيه الخطيب الفاضل، خاتمة الأدباء بالأندلس" يُنظر: المقّري، شهاب الدين أحمد بن محمد المقّري، أزهار الرّياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السّقا وآخرين، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والتّرجمة والنّشر، ١٩٣٩م، ج١، ص١٠٣.

(٢) أبو زكرياء محمد الشيخ المهدي المعروف بمحمد الشيخ الوطاسي سلطان المغرب من الوطاسيين، تولى الحكم سنة (٨٧٦هـ/ ١٤٧٢م)، بعد دخوله فاس قادما من أصيلا. يُنظر أخباره في: أبو العبّاس، أحمد بن خالد النّاصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى/ الدّولة المرينيّة**، القسم الثّاني، الجزء الرّابع، تحقيق جعفر النّاصري ومحمّد النّاصري، دار الكتاب، الدّار البيضاء، ١٩٩٧م، ص١١٩-١٢٠.

(٣) ذكر المقّري نسبه في معرض حديثه عن نهاية الأندلس فقال: والسّلطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة هو أبو عبدالله محمد الذي انقرضت بدولته مملكة الإسلام بالأندلس، ومحيت رسومها، ابن السّلطان أبي الحسن ابن السّلطان سعد ابن الأمير علي ابن السّلطان يوسف ابن السّلطان محمد الغني بالله، واسطة عقدهم، ومشيد مبانيهم الأنيقة، وسلطان دولتهم على الحقيقة، وهو المخلوع الوافد على الأصقاع المرينيّة بفاس. يُنْظر:

المقّري، أحمد بن المقّري، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق، احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧، ج٤، ص٥٢٨.

(٤) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥١٤.

(٥) وثائق عربيّة غرناطيّة، تحقيق لويس سيكو دي لوثينا، مدريد، ١٩٦١م، ص٤٦٨-٤٧٠، عن الحجّي عبدالرّحمن علي، **التّاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة**، دار القلم، دمشق، ط٢، ٢٠٠٨، ص٥٩٤. وينظر تفصيل هذا الحدث أيضا في كتاب: نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، مؤلّف مجهول، ضبطه وعلّق عيف الفريد البستاني، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٢-١٣.

(٦) ينظر في المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص ٥١٥-٥١٦، وفي نبذة العصر، ص١٢-١٤.

(٧) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥١٦.

(٨) عنان، محمد عبدالله، **دولة الإسلام في الأندلس**، العصر الرّابع، نهاية الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٩٧، ص٢٠٥-٢٠٦.

(٩) يُنْظر تفصيل ذلك في: المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥١٦-٥٢٤.

(١٠) مؤلّف مجهول، **نبذة العصر**، ص١٦-١٧.

(١١) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥١٧.

(١٢) حتاملة، محمد عبده، **محنة مسلمي الأندلس**، مطابع دار الشّعب، عمّان، ط١، ١٩٧٧، ص٣٦.

(١٣) مؤلّف مجهول، **نبذة العصر**، ص١٧.

(١٤) المصدر نفسه، ص٢٠.

(١٥) يُنْظر تفصيل ذلك في، المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥١٨-٥١٩.

(١٦) **نبذة العصر**، ص٢٠.

(١٧) يُنْظر تفصيل ذلك في: المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤،٥١٩-٥٢٤، وفي نبذة العصر ص٢٠-٣٩.

(١٨) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥٢٥.

(١٩) هكذا وردت في المصدر والصّواب المسلمين.

(٢٠) مؤلّف مجهول، **نبذة العصر**، ص٤٠.

(٢١) المصدر نفسه، ص٤١.

(٢٢) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥٢٥، وينظر تفصيل الشّروط التي تمّ الاتّفاق عليها ص٥٢٥-٥٢٦.

(٢٣) المقّري، **أزهار الرّياض**، ج١، ص٦٧.

(٢٤) يُنْظَر تفصيل هذا في: حتاملة، محمد عبده، **محنة مسلمي الأندلس/ عشية سقوط غرناطة وبعدها**، ط١، ١٩٧٧، مطابع دار الشّعب، عمّان، ص٧٣-٧٤.

(٢٥) البستاني، بشرى، **قراءات في النّص الشّعري الحديث**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص٣٤.

(٢٦) قطّوس بسّام، **سيمياء العنوان**، وزارة الثّقافة، عمّان، الأردن، ٢٠٠١، ص٥٣، وَيُنْظر في: الجزّار، محمّد فكري، العنوان وسيموطقيا الاتّصال الأدبي، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، ١٩٩٨م، ص٦٨.

(٢٧) قطّوس، بسام، **سيمياء العنوان**، ص٥٣-٥٤، عن: بنّيس، محمد، التّقليديّة، الدّار البيضاء، دار توبقال، ١٩٨٩، ص١١٣.

(٢٨) الرّازي، محمّد بن أبي بكر، **مختار الصّحاح**، قرأه وضبطه محمّد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م، مادّة وسل.

(٢٩) الوقفي، راضي، **مقدّمة في علم النّفس**، دار الشّروق، عمّان، ط ٣، ٢٠٠٣م، ص ٥٧٦.

(٣٠) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥٣٦.

(٣١) أشار ابن رشيق القيرواني إلى هذه المعاني في باب الاعتذار فذكر أنّه على المعتذر إن وقع منه ما يقتضي الاعتذار أنْ يعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر إليه ويمسح أعطانه ويستجلب رضاه. ينظر في تفصيل ذلك، القيرواني، أبو الحسن ابن رشيق، العمدة في صناعة الشّعر وتقده، تحقيق عبدالحميد الهنداوي، المكتبة العصريّة، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ج٢، ص١٩٥.

(٣٢) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥٢٩.

(٣٣) المقّري، **أزهار الرّياض**، ج١، ص٧٢.

(٣٤) يُنْظَر تفصيل هذا في: المقّري، نفح الطّيب، ج٤، ص٥٢٥، وفي: عنان، محمد عبدالله، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الرّابع/ نهاية لأندلس، ص٢٤١-٢٤٢. وهذه ليست المرة الأولى التي يتّهم فيها أبو عبدالله الصّغير بالتآمر مع القشتاليين وإنّما اتّهم بذلك أيضا عندما أسر لأوّل عام ٨٨٨هـ، وقد سبقت الإشارة إلى هذا في المقدّمة التّاريخيّة لهذه الدّراسة، ويُنْظر تفصيل ذلك في نفح الطّيب، ج٤، ٥١٦-٥٢٠.

(٣٥) أندرش (Andarax)، من أعمال المرية على نهر باسمها. يُنْظر: **نفح الطّيب**، ج١، ص١٦٦.

(٣٦) مؤلّف مجهول، نبذة العصر، ص٤٣.

(٣٧) يُنْظَر في: عنان، محمّد عبدالله، **دولة الإسلام في الأندلس**، العصر الرّابع/ نهاية الأندلس، ص٢٧٦.

(٣٨) يُنْظَر تفصيل هذا في المصدر السّابق، ص٢٧٦.

(٣٩) ابن منظور، جمال الدّين محمّد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، مادة جور.

(٤٠) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥٢٩.

(٤١) **المصدر نفسه**، ج٤، ص٥٣٦.

(٤٢) **المصدر نفسه**، ج٤، ص٥٢٩-٥٣٠.

(٤٣) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥٣٠.

(٤٤) قالتها حرقة بنت النّعمان بن المنذر ابن امرئ القيس تخاطب فروة بن اياس بن قبيصة، تشكو تمزق ملك أبيها وتبدّل الحال عليهم. يُنْظر: شرح ديوان الحماسة، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٨٤٥.

(٤٥) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥٤١.

(٤٦) هو السموءل بن عاديا من أهل تيماء، وهو الذي كان امرؤ القيس قد استودعه سلاحه، فسار إليه الحارث بن شَمِر الغسّاني فطلبه، فأغلق الحصن دونه، فأخذ ابنا له خارجا من القصر وقال: إمّا أن تؤدّي إليّ السّلاح، وإمّا أن أقتله، قال اقتله، فلن أؤدّيها، ووفى، فضرب به الأعشى المثل فقال: كن كالسّموأل إذ طاف الهمام به في جحفل كسواد الليل جرّار، يُنْظر في: الجمحي، ابن سلام، طبقات فحول الشّعراء، قرأه وشرحه محمود محمّد شاكر، دار المدني، جدّة، السّفر الأوّل، ص٢٧٩.

(٤٧) طلب المنذر ابن ماء السّماء امرأ القيس ففرّ

منه ونزل على المعلّى أحد بني تميم بن ثعلبة، فأجاره ومنعه، قال امرؤ القيس يمدحه: كأنّي إذ نزلت على المُعلّى نزلتُ على البواذخِ من شَمَامِ. ينظر تفصيل الخبر في: شرح ديوان امرئ القيس، حسن السّندوبي، المكتبة الثّقافية، بيروت، ط٧، ١٩٨٢م، ص٢٠٣.

(٤٨) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥٣٠.

(٤٩) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥٤٣-٥٤٤. وأبو دواد هو جارية بن الحجّاج، وقيل حنظلة بن الشّرقي الإيادي، كان بعض الملوك أخافه، فصار إلى بعض ملوك اليمن وأحسن إليه، فضرب به المثل بحسن هذا الجوار. وكعب ابن مامة الإيادي هو الذي آثر بنصيبه من الماء رفيقه النّمري، فمات عطشاً، وضرب به المثل في الإيثار، عن أزهار الرّياض، ج١، هامش٦،٧، ص٩٥.

(٥٠) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥٤٢.

(٥١) **المصدر نفسه**، ج٤، ص٥٣٤.

(٥٢) **المصدر نفسه**، ج٤، ص٥٣٣.

(٥٣) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص ٥٣٣.

(٥٤) **المصدر نفسه**، ج٤، ص٥٣٥.

(٥٥) **المصدر نفسه**، ج٤، ص٥٤٧.

(٥٦) يُنظَر تفصيل ذلك في كتاب، **العمدة في صناعة الشّعر ونقده**، ج٢، ص١٤٨-١٦١.

(٥٧) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥٣٢.

(٥٨) المصدر نفسه، ج٤، ص٥٣٣.

(٥٩) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥٣٤.

(٦٠) **المصدر نفسه**، ج٤، ص٥٣٧.

(٦١) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥٣٠.

(٦٢) **المصدر نفسه**، ج٤، ص٥٣٦.

(٦٣) **المصدر نفسه**، ج٤، ص٥٢٩.

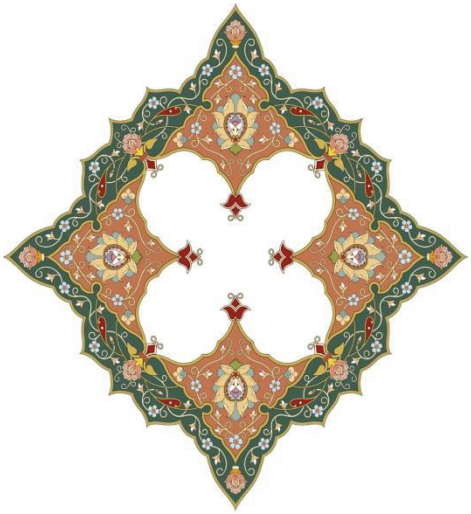
(٦٤) **المصدر نفسه**، ج٤، ص٥٣٠.

(٦٥) **المصدر نفسه**، ج٤، ص٥٣٨.

(٦٦) ورد الحديث في صحيح مسلم، برقم ٢٦٥٥، ونصّه: "حدّثني عبدالأعلى بن حمّاد، قال: قرأت على مالك بن أنسﷺ وحدثنا قتيبة ابن سعيد عن مالك، فيما قرئ عليه، عن زياد بن سعد، عن عمرو بن مسلم، عن طاوس أنّه قال: أدركت ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كلّ شيء بقدر، قال وسمعت عبدالله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: "كُلّ شيءٍ بِقَدَر حتّى العَجْزُ والكَيْسُ، أو الكيْسُ والعجزُ" يُنظر في: مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، المحقق، نظر محمّد الفاريابي أبو قتيبة، دار طيبة، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٢٢٥.

(٦٧) اشارة إلى قوله ﷺ: عن ابن عباسﷺ قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال: "يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف" حديث حسن صحيح، يُنظر الحديث في: التّرمذي، أبو عيسى محمد ابن عيسى بن سوْرة. **الجامع الكبير**، سنن التّرمذي، تحقيق، شعيب الأرنؤوط وعبداللطيف حرزالله، دار الرّسالة، ج٤، حديث رقم ٢٦٨٥، ص٤٨٩.

(٦٨) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥٢٩.
(٦٩) **المصدر نفسه**، ج٤، ص٥٣١.
(٧٠) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥٤٠.
(٧١) ابن عبّاد، **المعتمد، الدّيوان**، تحقيق رضا الحبيب السّويسي، الدّار التونسيّة للنّشر، ١٩٧٥م، ص١٥٠.
(٧٢) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤.
(٧٣) **المصدر نفسه**، ج٤، ص٥٣٦.
(٧٤) المقّري، **نفح الطّيب**، ج٤، ص٥٣٦.
(٧٥) اللجلجة، ثقل اللسان، ونقص الكلام، وألا يخرج بعضه في أثر بعض. واللجلجة: التردّد في الكلام. يُنظر في: ابن منظور، لسان العرب، باب لجّ.



# دور الوقف في رعاية المصادر المائية في بلاد الشام في العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٢هـ / ١٢٥٠-١٥١٦م)

د. مبارك محمد الطراونة *

تاريخ وصول البحث: ١٤ / ٢/ ٢٠١٥م تاريخ قبول البحث: ٣٠ / ٧/ ٢٠١٥م


## ملخص

نظراً لتميز منطقة بلاد الشام بأمطارها الشتوية، وصيفها الجاف؛ وتذبذب هذه الأمطار وتباينها من سنة لأخرى ومن منطقة لأخرى، وانخفاض تصريف أنهارها في فصل الصيف، توجه العديد من السلاطين، والأمراء، والأعيان المماليك، والميسورين من سكان بلاد الشام إلى الاهتمام بتوفير المياه وجلبها إلى المناطق التي تفتقر إليها في المدن الرئيسة والبعيدة عن مصادر الماء، وفي الحرمين الشريفين القدسي والخليلي، والعديد من المساجد الرئيسة، وعلى طول محطات البريد وطرق قوافل الحج، والطرق الواصلة بين المدن الرئيسة؛ عن طريق إنشاء الأسبلة، وحفر الآبار والصهاريج، وعمارة البرك وتشيدها، وشق القنوات وترميمها وتنظيفها، وجر مياه الانهار، والينابيع، وبناء العديد من المطاهر الملحقة بالمساجد والمزودة بحاجتها من المياه لتأمين الطهارة للمصلين، إضافة إلى قيامهم بأعمال الصيانة والتجديد للعديد من المنشآت المائية المقامة في المنطقة، والإنفاق على إنشائها ووقف العديد من العقارات والمؤسسات الاجتماعية ليسهم ريعها في توفير المخصصات اللازمة لديمومة جريانها وعموم فائدتها؛ وذلك كله ابتغاء مرضاة الله، ونيل أجره وثوابه على اعتبار أن سقيا الماء من أفضل الصدقات القُربات التي لا ينقطع أجر واقفها بعد وفاته.


الكلمات المفتاحية: الوقف، الأسبلة، الصهاريج، البرك، العيون، المنشآت المائية.


## Abstract

As the Levant is known for its winter rainfalls, dry summers, the inconsistency of annual rain in different areas, and its decreasing rate of the drainage of its rivers in the summer, several Sultans, Princes, Mamluk Senates, and rich residents became interested in water saving and the ways of transferring water to main and distant cities that are away


* أستاذ مساعد، كلية الآداب والعلوم، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

from water sources, such as to the two holy mosques in Jerusalem and Hebron, to several main mosques, to mail offices, and to the routes of Pilgrimage as well as to the routes connecting main cities together. This was conducted by building the drinking public fountains or *al-Sabeel*, by digging wells, by building ponds, and by erecting channels to transmit water from rivers and springs.

In addition, water closets were attached to mosques in order to provide worshippers with the needed water to ensure their purity. These Sultans, Princes, Mamluk Senates, and rich residents of the Levant used to spend money on the erection and construction of water facilities in the region, and considered many of the real estate and social institutions as endowment or *Waqf* for the benefit of the public. All this was done seeking the blessings of God, especially that it is believed that offering free water to the public is considered as a donation or *Sadaqah* which is one of the best practices that will ensure ongoing rewards for Muslims after death.

Keywords: Endowment, free water fountains, cisterns, ponds, springs, water facilities.

**المقدمة:**

لعبت الأوقاف الإسلامية دوراً رئيساً في توفير الماء الصالح للشرب سواءً ما كان مخصصاً لمنفعة الناس أو لسقاية الحيوانات[١]، وذلك في أماكن كثيرة أهمها المدن والمناطق الواقعة على جوانب الطرقات التي يشكل الحصول على المصادر المائية فيها صعوبة بالغة، لأسباب يعود بعضها إلى بعد المصدر المائي عن التجمعات السكانية، ويعود بعضها الآخر إلى شح المياه في تلك المناطق التي يرتادها الناس لقلة الأمطار فيها وندرتها؛ لهذا حرص الواقفون على الاهتمام بتوفير المصادر المائية في أسواق المدن، وخاصة في الأماكن المقدسة أو على الطرقات التي تربط الأقاليم الإسلامية بعضها ببعض، وتنافس السلاطين المماليك والكثير من الأمراء والأعيان وأهل الخير من الميسورين في الإنفاق على تأمين المصادر المائية وسلكوا في ذلك طرقاً متنوعة تمثلت في عمارة الأسبلة[٢]، وترميمها، وحفر القنوات والآبار، وعمارة

العيون، وإنشاء البرك وتوسيعها وصيانتها، وأوقفوا عليها الكثير من الممتلكات والعقارات.

ففي بلاد الشام نلاحظ أن أهل الخير والسعة وجّهوا جلّ عنايتهم إلى إنشاء الأسبلة في المدن التي تعاني من نقص واضح في مصادر المياه، أو في تلك التي يواجه أهلها وزوارها مشقة في الحصول على المياه بسهولة ويسر. فعلى سبيل المثال نجد أن أهالي مدينة دمشق حرصوا على توفير المياه الصالحة للشرب في معظم شوارعها عن طريق حفر القنوات لإيصال المياه من نهر بردى وتفرعاته إلى معظم السقايات[٣]، والأحواض المنتشرة في شوارعها، ولكثرة أعداد سقاياتها وروعة تدفق المياه من صنابيرها استرعى هذا كله انتباه الرحالة والجغرافيين الذين زاروا مدينة دمشق، فوصف الجغرافي ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) توفر الماء الصالح للشرب في كل أسواقها قائلاً: "ومن خصائص دمشق التي لم أر في بلد آخر مثلها كثرة الأنهار بها، وجريان الماء في قنواتها، فقلّ أن تمر بحائط إلا والماء يخرج منه في أنبوب أو حوض يشرب منه ويسقي الوارد والصادر"[٤]. وهو بذلك يبين استفادة الواقفين من مياه نهر بردى وتفرعاته التي تخترق أحياء مدينة دمشق جميعها وتزود أرضها وسبلها وحماماتها بالماء[٥].

أما الرحالة ابن جبير (الذي استغرقت رحلته ثلاثة أعوام (٥٧٨-٥٨١هـ/ ١١٨٣-١١٨٥م)، فقد أفاض في وصفه لمدينة دمشق إذ يقول:"البلد كله سقايات فلم تخلُ سكة من سككه أو سوق من أسواقه من سقاية"[٦]، كما يذكر انتشار السقايات في أحياء مدينة دمشق مثل المزة[٧]، والنيرب[٨]، والصالحية[٩].

ويشير ابن شداد (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) إلى كثرة السواقي "السبيل" الملحقة بمساجد مدينة دمشق، التي تعتمد غالبا في نقل المياه إليها على ما يرصد لها من ريع الوقوف المخصصة للمساجد، فيقول: "إن أمام معظم المساجد في مدينة دمشق ساقية ينتفع بها المصلون"[١٠].

ويؤكد ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) أثناء رحلته وتجواله في بلاد الشام في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي في زمن الناصر محمد بن قلاوون وتحديدا في الأعوام ما بين (٧٢٥-٧٢٨هـ/ ١٣٢٤-١٣٢٧م) ما ذكره ابن جبير من كثرة الأوقاف في الشام وتعدد المؤسسات الموقوف عليها وتنوعها. فعند وصفه الخانات

التي مرّ بها في بلاد الشام يقول: "وبخارج كل خان ساقية سبيل"[١١]. وليس هذا فحسب، بل نجده يسهب في وصف الأعمال الخيرية التي تُعنى بتوفير مياه السبيل وسقايات الماء التابعة للمسجد المحيط بمصلى الخضر عليه السلام والمقام في الربوة قائلا: "له سقاية حسنة ينزل إليها الماء من مكان مرتفع ويصب في شاذورات[١٢] من الجدار يتصل بحوض من رخام، ويقع فيه الماء، ولا نظير له في الحسن والغرابة في الشكل. وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجري فيها الماء."[١٣] وفي مسجد قرية النيرب سقاية ماء رائعة الحسن ومطهرة وحمام، وفيها بيوت عدة يجري فيها الماء[١٤]. ولمسجد قرية المزة جامع وسقايا معينة[١٥].

يشير البدري -الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وسكن في مدينة دمشق- إلى كثرة ما كان ينفقه السلاطين المماليك من مخصصات الوقوف ومن أموالهم الخاصة على حفر آبار الجمع داخل قلعة دمشق، وملئها بمياه الشرب بواسطة قنوات ومجاري ومصارف مائية شُقّت من نهر بردى وتفرعاته، وذلك كأحد التدابير الحربية الاحترازية التي اتخذوها لتأمين المياه في قلعة مدينة دمشق حال تعرضها للحصار وقطع الماء عنها[١٦].

ولكي تؤدي التحصينات والإجراءات العسكرية المملوكية هدفها المتمثل في الدفاع عن مدينة دمشق، وأملاً في كسب ود السكان من أبناء المجتمع الشامي وترغيبهم في سلطانهم، كان لابد من الاهتمام بالمنشآت المدنية التي تتعلق بمصالح المجتمع ومنفعته العامة، وخاصة المباني ذات الصفة الدينية الملحقة بالمساجد أو الواقعة على الطرق المؤدية إليها، عن طريق حفر البرك، وشق القنوات، وإنشاء السقايات، وإعمار الأسبلة لسد حاجة الأهالي والمصلين والزوار من المياه. لهذا حرص السلاطين المماليك أثناء صيانتهم المتكررة للجامع الأموي وترميمه على الاعتناء بتنوع مصادر المياه فيه، ففي عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م شرع السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٩-٦٧٦هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧م) بتجديد بركة وشاذرون، وقناة الماء التي تجري من نهر القنوات، كي ينتفع بها رواد المسجد أوقات انقطاع الماء من نهر بانياس المغذي الرئيس لصهاريج[١٧] الجامع الأموي. وحرصاً منه على عدم انقطاع المياه عن المسجد نفسه جدّد عام ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م الحوض الذي يقع شرقي

قناة باب البريد وزوّده بالماء بواسطة أنابيب وشاذرون نصب في حائط القناة التي أنشاها العام الماضي[١٨]. ولتذبذب مياه نهر بانياس أحد تفرعات نهر بردى- وعدم كفاية مياهه في تأمين حاجة المسجد الأموي بشكل منتظم طوال العام سار السلطان الناصر بن قلاوون (٦٩٣-٦٩٤هـ/ ١٢٩٣-١٢٩٤م) على خطى الظاهر بيبرس بزيادة نصيب هذا المسجد من ماء نهر القنوات ما مقداره سبعة عشر أصبعاً من أصابع الماء، وخاصة أثناء نقص مياه نهر بانياس في سنوات انحباس الأمطار، وعدم كفايتها بتأمين المياه اللازمة لسد حاجة البركة الموجودة في الكلاسة[١٩]، والبركة المجددة، والقسطل المساق للبيمارستان الدقاقي[٢٠] ومشهد ابن عروة داخل باب البريد، وأوقف من أجل ذلك أملاك يبلغ مجموعها قريتين ونصف القرية ومنطقة فيها مطاحن وخمسة وثلاثون حانوتاً وإسطبل وخانات[٢١].

وفي عام ٨٩٤هـ/ ١٤٨٩م أسهم فاعلو الخير والباحثون عن الأجر والثواب بما تجود به أنفسهم من تبرعات لإيصال المياه إلى الجامع البزوري[٢٢] بواسطة قناة شُقّت داخل باب سوق البصل واستخدمت مياهها للشرب والوضوء واستفاد منها أهل السوق وسكان المنطقة والمصلون[٢٣].

ولعلّ إدراك السلاطين والأمراء والأعيان والميسورين من أهل الخير في العصر المملوكي أن جلب المياه وتوفيرها للمحتاجين في الأماكن العامة - وخاصة البعيدة عن مصادر المياه الرئيسة - لا يقل أجرها وثوابها عن أجر وثواب توفيرها في المساجد جعلهم يوعزون إلى عمالهم بحفر الآبار، وتشيد السقايات، وبناء الأسبلة بالقرب من الأسواق التجارية العامة، مثل: سبيل البريدي في محلة السويقة الذي يعد من أقدم الأسبلة الموجودة في مدينة دمشق إذ يعود تاريخ بنائه إلى أوائل العصر المملوكي[٢٤] وسبيل الخزنة في سوق القطن، والذي جدّده وأوقف عليه الأمير سيف الدين جركس سنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م[٢٥]. وحتى يخلد نائب دمشق سيباي (٩١١-٩٢٢هـ/ ١٥٠٥-١٥١٦م)[٢٦] ذكره قام بنقش اسمه على السبيل المقام جنوبي دار السعادة وإلى الغرب من البيمارستان النوري الذي جدّد فيه قناته وبركته وساق الماء إليه عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، وبعد وفاة سيباي أوقف عليه أبو بكر بن شعبان الرجبي[٢٧] قيسارية[٢٨] البهار الواقعة إلى الجنوب من قيسارية الأمير تنكز[٢٩].

ورغبة في عمل الخير واغتنام البرور

والصالحات، وامتثالاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[الحج:٧٧]، تدافع أهل الخير من أبناء المجتمع الشامي إلى تزويد المدارس- التي في الغالب لم تكن بناءً مستقلاً قائماً بذاته، وإنما كانت مباني كبيرة تشتمل على العديد من المنشآت والمرافق الخدمية التي تساعدها على القيام بدورها التعليمي على أكمل وجه- بحاجتها من الماء الطاهر والصالح للشرب والوضوء، فبُنيت الأسبلة بطرق وتصاميم هندسية في غاية الإتقان وقد أثر هذا الأمر ابن جبير مما جعله يعجب بروعة تصميم السبيل الملحق بالمدرسة النورية[٣٠] بدمشق وكيفية جريان الماء فيه في شاذورات وسط فناء المدرسة، حيث كان جماله يثير الدهشة لكل من يشاهده ويدعو لمنشئه بالرحمة والقبول عند الله[٣١]. وسار السلاطين المماليك على خطى أسلافهم من ملوك بني أيوب وسلاطينهم في إقامة العديد من المنشآت المائية وتزويدها بحاجتها من المياه تقرباً إلى الله ورغبة في نيل أجره وثوابه. ففي عام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م عمّر الملك السعيد ابن الظاهر بيبرس ساقية لنقل الماء من البئر إلى صحن وفسقية المدرسة الظاهرية[٣٢] التي أنشأها تنفيذاً لوصية والده صدقة جارية آملاً بتقبل ثوابها وأجرها بعد وفاة والده[٣٣].

ونظراً لحاجة الناس الملحة إلى تزويد السبيل المقام بالقرب من مدرسة القيمرية[٣٤] بما يسد حاجة سكان المنطقة من الماء تبرع أحد المحسنين -وعلى نفقته الخاصة- بإيصال الماء إليه سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م رغبة منه في فعل الخير وادخار أجر عمله إلى يوم القيامة، ولأهمية فعلته وعموم نفعها أثنى عليه ابن طولون بقوله: "أثاب الله الساعي في ذلك الثواب الجزيل"[٣٥].

وهذه العناية بالمصادر المائية التي وجدناها في مدينة دمشق نجدها في مدينة حلب أيضا فقد تنافس أهل الجميل وأصحاب الأموال ممن جبلت أنفسهم على أعمال البر والإحسان بالإنفاق على الأعمال العمرانية الضرورية لجر مياه نهر قويق[٣٦] إلى داخل مدينة حلب للاستفادة من مياهه في تسهيل حصول أهل المدينة على حاجتهم من مياه الشرب، والاستعمالات المنزلية المتنوعة، بالإضافة إلى تزويد المساجد والمدارس والترب بحاجتها من المياه اللازمة لتأدية وظائفها،

وكل ذلك كان عن طريق بناء الأسبلة والسقايات، وحفر الترع، وشق القنوات، وسقفها، وترميم التالف منها وصيانته، وعدوا فعلتهم هذه من أعمال البر والإحسان التي يُراد بها مرضاة الله والتقرب إليه. ولّما كان أهل حلب يشربون من نهر قويق الذي يجري في فصلي الشتاء والربيع وتقل مياهه وتتذبذب كمياتها في فصل الصيف، مما جعل السكان يعانون من مشكلة حقيقة في توفير المياه في فصل الصيف، اجتهد نائب حلب الأمير سودون الناصري[٣٧] عام (٧١٣هـ/ ١٣١٣م) في تحويل مياه نهر الساجور لتصب في مجرى نهر قويق للعمل على زيادة تدفقه، وتأمين المدينة بحاجتها الفعلية من المياه، ورصد من أجل ذلك ثلاثمائة ألف درهم معظمها من ماله الخاص، أنفقت على تصغير غدران نهر الساجور، وأجور حفر قناة الخندق الواصلة إلى نهر قويق والبالغ طولها أربعون ذراعا، إلا أن مشروع التحويل توقف في منتصف رجب من عام (٧١٤هـ/ ٢٥ تشرين أول ١٣١٤م) قبل إتمامه بسبب وفاة المتبرع الأمير سودون في العام نفسه، وشعوراً مع الأهالي بإيجاد حل حقيقي لمشكلة المياه المتفاقمة تكفل نائب السلطنة في حلب الأمير سيف الدين آرغون[٣٨] عام (٧٣١هـ/ ١٣٣٠م) بإتمام المشروع الذي كان بدأه سودون قبل سبعة عشر عاماً لتحويل مياه نهر الساجور[٣٩] لتغذية مياه نهر قويق بما يحقق المحافظة على دوام جريانه، وعدم جفاف مياهه في فصل الصيف، وحتى يتم إنجاز العمل بسرعة قُسّم المشروع إلى مراحل كل مرحلة كُلّفَ بها أمير من الأمراء وبتضافر جهود معظم الأمراء والأعيان في مدينة حلب، وبمشاركة الجم الغفير من الأهالي، أنجزت القناة في مدة ستة أشهر بعد كد وتعب، وأنفقوا لإتمام المشروع الكثير من الأموال. ولأهمية فعلته هذه في إدخال السرور على أهالي مدينة حلب أقاموا المراسيم الاحتفالية احتفاء بوصول المياه، وعُدَّ يوم وصولها للمدينة في سنة (٧٣١ هـ/ ١٣٣٠م) من الأيام المشهودة حيث خرج النائب والأمراء والأعيان إلى ظاهر البلد مشياً على الأقدام وهم يكبرون ويهللون فرحين بانتظار وصول تدفق المياه في القناة خارج مدينة حلب. ولأهمية هذا الحدث تغني به الشعراء[٤٠]: إذ يقول الرئيس شرف الدين بن عبدالله الحسين بن سليمان:

لّما أتى نَهَرُ الساجورِ قلتُ له
ماذا التأخّرُ من حينٍ إلى حينِ

فقـــال أخّرنـــي ربـــي لـــيجعلني

من بعض معروفِ سيفِ الدّينِ أرغونِ

وفي المعنى نفسه يقول الشيخ بدر الدين الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب:

قد أصبحت الشهباء تُثني على

أرغـــونَ في صُـــبحٍ ودَيجُـــورِ

مـن نَهَـر الساجور أجـرى بهـا

للنـــاس بحـــراً غـــير مســـجور

ولاستمرارية جريان نهر الساجور في رفد نهر قويق بما يمكّنه من سقاية أهل حلب وسد حاجتهم المتزايدة للمياه، توجه ابن الشحنة ورفاقه قضاة حلب برفقة نائبها الأمير سيف الدين جلبان المؤيدي[٤١] لإصلاح ما تلف من قناة نهر الساجور وتنظيفها من تراكم المخلفات والأتربة فيها وبناء ما تهدم من مجراها[٤٢].

وللمحافظة على مياه نهر الساجور وتجنب هدرها وعدم استخدامها إلا للشرب والطهارة والأعمال المنزلية، أصدر السلطان المملوكي الملك الناصر محمد بن قايتباي (أبو السعادات ناصر الدين محمد بن الملك الأشرف أبـو النصر قايتباي المحمودي الظاهري( ٩٠١-٩٠٥هـ/ ١٤٩٦-١٥٠٠م) مرسومين ينصان على عدم استخدام مياهه لري المزروعات، وعدم التصرّف بوقفه على الوجه غير الشرعي، وقد وجدا مكتوبين على بوابة الجامع الكبير ونصهما:

- الأول: وُجد مكتوب على إحدى عضادات الجامع حلب الكبير بتاريخ (٤ جمادى الآخرة سنة ٩٠١هـ/ الجمعة في التاسع عشر من شباط عام ١٤٩٦م):

"ورد المرسوم الكريم العالي المولوي الملكي المخدومي الكافلي السيفي الأشرفي مولانا الملك الناصر كافل المملكة الحلبية بان لا يسقى من ماء الساجور الواصل إلى حلب زرع جاسيون وفافين (قريتان يقعان على بعد مرحلة شمالي مدينة حلب) وملعون من يزرع على ماء الساجور زرعاً"[٤٣].

- والثاني: مكتوب على عضادة أخرى من الجامع في(٢٧ جمادى الآخرة سنة ٩٠٢هـ/ الخميس في الثاني من آذار ١٤٩٧م) وفيه يمنع التصرف بوقف النهر بطريقة غير شرعية: "ورد المرسوم العالي المولوي المخدومي كافل المملكة الحلبية المحروسة الملك الناصر بإبطال ما كان يؤخذ من وقف نهر الساجور الواصل إلى حلب وملعون ابن ملعون من يأخذ على جباية الوقف المذكور"[٤٤].

كما ذكر ابن الشحنة أن لمدينة حلب قناة مباركة تخترق شوارعها، ودورها،

وحماماتها، وسبلها وماؤها عذب فرات"[٤٥] ويستخدمها الأهالي لملء صهاريجهم بالماء الصالح للشرب، وبمرور الزمن ونتيجة للإهمال وعوامل الطبيعة تعرضت بعض أجزائها إلى الاندثار والخراب أو الطمر، وهذا يتطلب العمل على صيانتها وتنظيفها؛ ولهذا أمر السلطان الظاهر برقوق بتكليف العديد من الأشخاص، للقيام على خدمتها وترميمها وإصلاحها وجر الماء منها إلى خارج باب المقام بالقرب من المدرسة الجمالية[٤٦]. ولديمومة صيانتها أوقف عليها قرية رحاء بظاهر مدينة حلب التي تعرف بالكاملية بالقرب من مشهد الدكة[٤٧]. كما أوقف الأمير آرغون الدوادار نائب حلب لعمارة قناطرها وجسورها ولصيانتها وترميمها والمحافظة على نظافتها وقفاً وصفه الغزي بأنه"وقفا عظيما"[٤٨] وفي هذا إشارة واضحة إلى كثرته وتنوعه. ولديمومة جريانها تعهدها الأمراء والقضاة والمحسنون من بعده بالرعاية والاهتمام، وكُلّف ابن الشحنة عام ٨٣٣هـ/ ١٤٣٠م على إيصال مياهها إلى تربة آشقتمر[٤٩].

وقد تنادى الطامعون في ادخار الأجر والثواب يوم القيامة إلى عمارة الأسبلة في شوارع مدينة حلب والوقف عليها تيسيراً على الأهالي والمصليين والزوار في الحصول على الماء بسهولة ويسر ومن هؤلاء نائب حلب الأمير أشقتمر الذي أوقف عام (٧٧٣ هـ/ ١٣٧١م)، العديد من الأوقاف لعمارة السبيل الذي سمي باسمه، وفي أثناء ولاية السلطان فرج بن برقوق الثانية (٨٠٨ -٨١٥ هـ/ ١٤٠٥-١٤١٢م) أنشأ المتبرعون عام (٨١٣هـ/ ١٤١٠م) سبيل باب المقام بملاصقة السور الشمالي لمدينة حلب. وفي عام (٨٩٧ هـ/ ١٤٩١م) بنى بردبك[٥٠] تاجر المماليك السلطانية سبيلاً بجوار جامع شرف الدين سماه باسمه لينتفع به المارة ورواد المسجد[٥١]. ولخدمة المشهد الأحمر تبرع أحد المحسنين من أهل مدينة حلب بحفر صهريج ماء ليشرب منه سكان المنطقة وزوار المشهد[٥٢].

أما في مدينة طرابلس أنشأ المحسن محمد بن زين الدين مباركشاه[٥٣] (عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م) سبيلاً عرف باسم "سبيل التينة" ويقع على الضفة اليسرى من نهر أبي علي[٥٤].

أثناء زيارة السلطان الظاهر بيبرس في العاشر من شعبان عام ٦٨٥هـ/ ١ تشرين الأول ١٢٨٦م مدينة الكرك لتفقد أحوالها، وفي أثناء أقامته في قلعتها أمر بتنظيف بركة

الماء الواقعة بالقرب من باب النصر، أحد أبواب مدينة الكرك لتعرضها للطمر نتيجة لإهمالها وعدم صيانتها فترة من الزمن[٥٥]. ووجِد في مدينة الكرك سبيل للماء يعلوه كتاب لتعليم الأطفال الأيتام وقد جدّد قاضي مدينة الكرك عماد الدين أحمد بن عيسى المقيري (ت٨٠١هـ/١٣٩٨م) [٥٦] بناءه. وعُثِر على لوحة حجرية في قلعة الكرك نُقش عليها "جدد هذا السبيل أحمد ابن عيسى الحاكم بالكرك سنة ثمان وسبعمئة"[٥٧]. ولم يعرف مكانة، ووجود الحجر في القلعة لا يعني بالضرورة أن يكون في مبنى القلعة نفسها.

يضاف إلى هذا كله مآثر السلطان الظاهر بيبرس في مدينة الخليل الذي أصدر مرسوماً سلطانياً عام ٦٦٦هـ/١٢٦٧م بعمارة مسجد الخليل عليه السلام وترميم ميضأته وإصلاحها[٥٨]. وفي عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م قرر السلطان الملك المنصور قلاوون أن ترصد إيرادات جوالي [٥٩] الذمة في كل من القدس، وبلد الخليل، وبيت لحم، وبيت جالا للإنفاق على عمارة بركة في الحرم الخليلي[٦٠]. وبأمر من السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الأولى (٦٩٣-٦٩٤هـ/١٢٩٣-١٢٩٤م) قام الأمير سنجر[٦١] بإيصال الماء إلى مدينة الخليل وتعمير المسجد الإبراهيمي[٦٢]. وحتى يكسب السلطان قايتباي التأييد الشعبي لتقوية نفوذه، وإحكام سيطرته على العالم الإسلامي أولى جلّ اهتمامه للعناية بمدينة الخليل عليه السلام ففي عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م أصدر العديد من المراسيم السلطانية التي تفرض على الأمراء المماليك أن يتكفلوا بدفع نفقات صيانة قنوات الماء المؤدية للحرم والتعهد بصيانتها وترميمها إضافة إلى العمل على بناء العديد من القنوات، والنوافير، وحفر الآبار، وإقامة العديد من المشاريع المائية الجديدة في الحرم الإبراهيمي وذلك لتحقيق مطالب شيوخها وقضاتها وأعيانها وأهاليها [٦٣].

ونذكر من صور اهتمام السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٥٩-١٢٧٧م) بالوضع المائي في مدينة صفد الصهريج الكبير المدرج من جهاته الأربع الذي أنشأه في قلعتها، لتخزين مياه الأمطار الهاطلة في فصل الشتاء والاستفادة منها في فصل الصيف، ولكبر حجمه وسعته وُصِف بأنه يكفي أهل القلعة حولاً كاملاً، ولعمقه استخدمت تقنية عالية لرفع الماء منه، وصفها شيخ الربوة بأنها من عجائب

الدنيا[٦٤]. ولم يقف دوره عند هذا الحد بل زوّد قلعة القاقون[٦٥] بعد بنائها عام ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م بالمرافق والمنشآت الضرورية اللازمة إذ بنى فيها جامعا، وألحق به حوض ماء للسبيل[٦٦] يوفر الماء للأهالي وسكان القرى والمناطق المجاورة للمدينة وزوارها من المسافرين الذين يرتادونها لوقوعها على إحدى محطات طريق البريد أو للمتاجرة والتسوق في أسواقها التي كانت تقام أسبوعيا، وتحقيقا لمطالب السكان بتوفير المياه الصالحة للشرب أقام الأمير الكبير بكتمر الجوكندار[٦٧].-الذي تولي نيابة صفد عام ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م- صهريجا بالقرب من المغارة التي حولها تربة لزوجته [٦٨] لينتفع منه سكان المنطقة وزوارها. ولما زار السلطان قايتباي مدينة صفد ليتفقد أحوالها، كلّف نوابها بتشييد العديد المشاريع المائية، حيث أمر بحفر قناة من إحدى العيون وإيصال مياهها الصالحة للشرب إلى بوابة القلعة داخل المدينة، وأوقف عليها العديد من الأوقاف[٦٩].

كما اعتنى السلاطين الأيوبيون ومن بعدهم السلاطين المماليك بتوفير المياه الصالحة للشرب في العديد من ولايات نيابة حمص لموقعها المتوسط بين النيابات الشامية، ووقوعها على طرق البريد المتنوعة وخطوطه المطروقة من قبل المسافرين. وبما أن توفير الماء في مثل هذه المواقع من الأعمال الخيرية التي ينطبق عليها ثواب الصدقة الجارية التي حث عليها رسولنا الكريم ﷺ فقد شيّد السلطان الظاهر برقوق في مدينة قارا[٧٠] صهريجاً وسبيلاً في وسط خانه يتم تزويده بحاجته من الماء من عيون المياه الموجودة في كل من جوسية[٧١] وولاية قارا[٧٢] بهدف تأمين الحجاج، والمسافرين باحتياجاتهم من الماء على إحدى محطات طريق الحاج بين كل من مدينتي حمص ودمشق.

ولكثرة العيون في ولاية سلمية[٧٣]، شُقّت قناة منها في الفترة الأيوبية توفّر مياه الشرب إلى أهالي مدينة حماة. وقد تعرضت هذه القناة إلى التلف والاندثار لتراكم الطين والوحل فيها مما دفع أبو الفداء عام ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م إلى الأمر بتنظيفها[٧٤] نظراً لأهميتها الكبيرة لمدينة حماة تعهدها النواب المماليك بالرعاية والصيانة كغيرها من عيون الماء في النيابات الشامية.

ومن صور اهتمام الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٥٩-١٢٧٧م) بالوقف نلاحظ أنه بنى في مدينة أرسوف[٧٥] حوضاً للسبيل في جامعها بعد إعماره للطهارة وشرب المصلين[٧٦].

وقد أمر المحسن الأمير أبو الفضل المصري[٧٧] ناظر الخاص السلطاني بالقاهرة بحفر الآبار، وتشيد الصهاريج على الطريق المؤدية إلى مدينة الرملة لتجميع مياه الأمطار في فصل الشتاء وتخزينها ليستفيد منها المسافرون، وينتفع منها المارة، وسكان تلك المناطق من البدو وغيرهم[٧٨].

وفي جنين أتم الأمير طاجاز الدوادار[٧٩] في عام ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م عمارة خانه، والحق فيه حوض ماء للسبيل يجري إليه الماء من الصهاريج، وأوقف عليهما ما يتحصل من إيرادات الحمام والحوانيت المزودة بكل ما يحتاجه المسافر[٨٠].

وقد توسع السلاطين الأيوبيون ومن جاء بعدهم من السلاطين المماليك، وأهل الخير واليسار في الإنفاق والوقف على توفير مياه الشرب لأهل بيت المقدس، وزوّارها، واعتبروا أن جلب الماء العذب الطاهر وتسهيل الحصول عليه في منطقة مجدبة، وشحيحة المياه من أوجه البر والصدقة التي لا يقل أجرها وثوابها عن إطعام الطعام وإيواء الأيتام وغيرها من أعمال الخير، ولهذا اهتم السلاطين المماليك بتنويع المصادر المائية فيها وحرصوا على أن يكون إنشاؤها على الطريق المؤدية لقبة الصخرة والمسجد الأقصى[٨١]، وتمثل ذلك بإنشاء القنوات وتنظيفها وترميمها، وعمارة الصهاريج، وحفر أبار لجمع مياه الأمطار وتخزينها. وللاستفادة من هذه المنشآت المائية في تامين مياه الشرب والوضوء لرواد المسجد وزواره بنى السلطان الأيوبي الملك العادل أبو بكر بن أيوب سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م مطهرة في ساحة الحرم القدسي تتكون من غرف متعددة خصصت للطهارة ومتوضأ للرجال وآخر للنساء[٨٢]، وأنشأ الملك المعظم عيسى بن العادل الأيوبي عام ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م في مدينة القدس صهريجاً يقع إلى الجنوب من بداية درج البكائة الغربية على مستوى المسجد الأقصى المبارك[٨٣]، ولأهمية آبار الجمع في توفير مياه الشرب والوضوء لأهالي بيت المقدس وزواره اعتنى بحفرها أيضاً السلاطين المماليك وشاركهم في هذه الأعمال الخيرية الميسورون من الأمراء والأعيان والأهالي حتى بلغ عددها في ساحة الحرم القدسي أربعة وثلاثون بئرا[٨٤].

ومما يؤكد متابعة السلطة المملوكية الحاكمة والطامحة إلى زيادة نفوذها الشعبي، لهموم الناس وتلبية احتياجاتهم المائية، ومساعدتهم على انجاز أنشطتهم المتنوعة عناية السلاطين والأمراء والأعيان المماليك

برعاية الأماكن المقدسة وحرصهم على تزويدها بحاجتها من المنشآت المائية التي أقاموها بالقرب من قبة الصخرة والمسجد الأقصى ليس لشح الموارد المائية فيها فحسب، بل بسبب الحاجات الطبيعية المتزايدة لسكان المدينة، وزوارها ونزلائها. ومن صور هذا الاهتمام نجد أن السلطان الظاهر بيبرس بعد معرفته بمعاناة سكان مدينة القدس من شدة العطش – لضعف المياه المتدفقة من بئر السقاية المقام أسفل قبة الصخرة – أمر في عام ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢م نائب القدس الأمير علاء الدين الحاج الركني[٨٥] بإحضار البنائين والصناع للكشف على البئر والعمل على تنظيفه وترميم ما تلف منه[٨٦].

كما أمر ببناء بركة عُرفت باسمه في مدينة القدس لتخزين مياه الأمطار الهاطلة في فصل الشتاء، التي يعتبرها عثامنه أول مشروع مائي للري يجري في المدينة المقدسة في العهد المملوكي ومن بعدها أخذ السلاطين المماليك يتسابقون في إنشاء الكثير من المشاريع المائية[٨٧]. فقد عني السلطان الظاهر بيبرس بتأمين الطرق المؤدية إلى بيت المقدس بحاجتها من المنشآت العمرانية والمائية اللازمة وخصص لها من الأوقاف ما يمكّنها من تقديم خدماتها الخيرية للمسافرين والزوار والمحتاجين، حيث أمر ببناء خاناً خارج أسوار مدينة القدس في الجهة الشمالية الغربية في موقع يشكل نقطة مهمة على الطريق ما بين يافا والقدس، عرف باسم "خان السبيل" وزوّده بحاجته من المياه عن طريق حفر الآبار، وإنشاء، الصهاريج وبناء البرك لتزويد الحوض الذي يتوسطه بحاجته من الماء وأوقف عليه قرية لفتا وغيرها من القرى التابعة لمدينة دمشق[٨٨]. وأضاف السلطان المنصور بن قلاوون عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م على ما أنشأه سلفه من مصادر مائية بعمارة قناة السبيل عند بركة السلطان الظاهر بيبرس بظاهر القدس من الجهة الغربية، وخصص لها من المصروفات السنوية ما يكفي لتأمين المسجد بحاجته من المياه[٨٩].

ولعدم كفاية الإجراءات السالفة الذكر في حل مشكلة المياه في مدينة القدس، ولشدة معاناة الناس من شح المياه وخاصة في سنوات انحباس مياه الأمطار وتذبذبها، تركز اهتمام السلاطين والأمراء المماليك على إيصال المياه لمدينة القدس الشريف من قناة العروب[٩٠] التي تعد المصدر المائي الذي يسهم في حل مشكلة المياه في المدينة المقدسة لذا فقد أوكل السلطان الناصر

محمد بن قلاوون (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤٠م) في فترة سلطنته الثالثة إلى الأمير سيف الدين قطلو بغا بن قراسنقر الجاشنكير[٩١] بإعادة عمارة قناة السبيل الكائنة عند بركة السلطان الظاهر بيبرس بظاهر مدينة القدس واستغرق العمل في إيصالها لمدينة القدس مدة عام حيث انتهى من عمارتها وإيصال الماء إلى وسط المسجد الأقصى في أواخر العام ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م(٩٢)، وللتخفيف من معاناة الناس بتوفير حاجتهم من مياه الشرب والوضوء أمر السلطان الناصر الأمير تنكز نائب دمشق عام ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م بترميم البركة -الواقعة ما بين قبة الصخرة والمسجد الأقصى- والعمل على تنظيفها مما علق بها من الوحل وتبليطها بالرخام لحفظ المياه وتخزينها، ورممت ثانية وعمّرت في عهد السلطان قايتباي[٩٣] وأطلق عليها فيما بعد اسم "متوضأ الكأس"[٩٤].

وفي عام ٧٣٠ هـ/ ١٣٣٠م أحضر الأمير تنكز الصناع والعمال والحجارين لاستخراج عين الماء من الجبل وشق القنوات فيه حتى أوصلها لمدينة القدس وعمل على تجميع مياهها في بركة مساحتها مائتا ذراع واحتفل بوصول مياهها المدينة ولعظمة الاحتفال عُدّ من الأيام المشهودة[٩٥]. كما اجتهد السلطان برقوق على إعادة عمارة قناة العروب وترميمها لإيصال مياهها للمدينة المقدسة في عام ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م[٩٦]، وبنى البرك الكبيرة، وعمّر الصهاريج الضخمة وذلك لحفظ، المياه وتخزينها وخاصة مياه الأمطار[٩٧] حتى يستفاد منها في فصل الصيف.

كما أمر السلطان برسباي (٨٢٥-٨٤١ هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٧ م) عام ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م نائب القدس شاهين الذباح بتجديد وعمارة سبيل شعلان[٩٨] الواقع في ساحة الحرم بين زاوية صحن الصخرة الشمالية الغربية وباب الناظر في بيت المقدس[٩٩]، حيث وجد نقش بخط النسخ على بلاطة موجودة في الواجهة الغربية "جدد هذا السبيل والمصلى والمحراب العبدالفقير إلى الله تعالى شاهين ناظر الحرمين الشريفين في أيام مولانا الملك الأشرف برسباي خلد الله ملكه بتاريخ شهر رمضان المعظم سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م"[١٠٠]. وبعد سبعة أعوام من تجديد عمارة سبيل شعلان كلّف السلطان برسباي في عام ٨٣٩هـ/ ١٤٣٦م نائب القدس وناظر الحرمين الشريفين بالإشراف على

تجديد عمارة سبيل علاء الدين البصيري[١٠١] (المعروف بسبيل باب الحبس أو سبيل باب الناظر)، والواقع في ساحة الحرم القدسي إلى الشمال الشرقي من باب الناظر، ثم جدد بناؤه في عام ٨٣٣هـ/ ١٤٧٨م في عهد السلطان الأشرف قايتباي[١٠٢]. وخلد هذا العمل الخيري بنقشه على لوحتين رخامتين تم تثبتهما في الزاويتين الشرقية والغربية في أعلى الجدار الجنوبي للسبيل ونصتا على الآتي[١٠٣]:

النقش على اللوحة الشرقية:

بسم الله الرحمن الرحيم جُدّد هذا البئر في أيام مولانا السلطان الملك الأشرف برسباي، وذلك بنظر المقر الحسامي حسن قجا نائب السلطنة الشريفة وناظر الحرمين الشريفين أعز الله أنصاره".

النقش على اللوحة الغربية:

"وسعى في عمارته العبدالفقير إلى الله تعالى الحاج إبراهيم الرومي غفر الله له ولجميع المسلمين وأشرط أن لا يسقي منه إلا الفقراء والمساكين ولا يباع لأحد يملأ بقربة بتاريخ جمادي الآخر سنة تسع وثلاثين وثمانمئة".

وفي عام ٨٥٦هـ/ ١٤٥٣م أمر السلطان الملك الأشرف إينال (٨٥٨-٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦٠م) بإنشاء السبيل القائم بين المطهرة ومسجد الصخرة المعروف في يومنا بسبيل قايتباي[١٠٤]، ولكون قناة العروب التي أطلق عليها "قناة السبيل" بحاجة مستمرة إلى أعمال التنظيف والصيانة والترميم فقد أخذ العديد من السلاطين الجراكسة على عاتقهم القيام بتلك الأعمال، ففي عهد السلطان خشقدم (٨٦٥-٨٧٢هـ/ ١٤٦٠-١٤٦٧م) تم تكليف دولات باي[١٠٥] بالتجهز عام ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م لإعادة إعمار قناة السبيل وعمارة البركة الشرقية من بركتي المرجيع[١٠٦] وتوقف العمل بالإعمار بعد وفاة السلطان. ولأهمية القناة (عين العروب) في سُقيا أهل بيت المقدس حاول السلطان بلباي المؤيدي( ربيع أول -جمادى الأولى٨٧٢هـ/ أيلول- تشرين الثاني ١٤٧٦م) وخليفته السلطان تمربغا الظاهر (جمادي الأول -رجب٨٧٢هـ/ تشرين الثاني- كانون الثاني١٤٧٦م) في عام ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م إتمام ما بدأه السلطان خشقدم إلا أن محاولتيهما لم تنجحا[١٠٧].

وذلك لقصر فترة حكمهما التي لم تتجاوز لكليهما مائة وخمسة عشر يوماً،

وانشغالهما بالصراعات والفتن بين الأمراء المماليك أنفسهم.

وفي عام ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م واستجابة لمطالب أهل بيت المقدس من المشايخ والقضاة والأعيان، أصدر السلطان قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٧-١٤٩٦م) مرسوماً شريفاً إلى الأمير قانصوه اليحياوي[١٠٨] لعمارة قناة العروب وبركة المرجيع وصيانتهما، ورصد من أجل ذلك خمسة آلاف دينار من الخزائن السلطانية الشريفة منها ألف دينار نفقة للأمير قانصوه اليحياوي، وأربعة آلاف دينار خصصت أجوراً للعمال وثمناً لشراء المستلزمات والمواد الأولية اللازمة للعمارة، وفي العام نفسه توجّه الأمير قانصوه وبصحبته مائتا عامل للمباشرة في العمل الذي استغرق مدة خمسة أشهر وخمسة عشر يوما، وعندما انتهى العمل كُتبت التقارير والمحاضر التي تبين سير العمل وإجراءاته، ووقع عليها زعماء المدينة وأعيانها وبعد عرضها على السلطان، ومباركته لتلك الجهود الخيرة أُمر بتزيين البلد ثلاثة أيام احتفاءً بوصول المياه مدينة القدس وأقيمت المراسيم الاحتفالية التي تخللها قيام الأمير قانصوه اليحياوي بتوزيع العديد من الهدايا على مستحقيها من المعلمين المتميزين، وفي نهاية الاحتفال مُدّت الأسمطة المتنوعة من الطعام ووزعت العديد من أصناف الحلوى[١٠٩].

ومن جمله مآثر السلطان قايتباي المائية في مدينة القدس ما قام به من وضع البدائل التي تساعد في التخفيف من مشكلة المياه حيث أمر بعمارة السبيل والفسقية داخل المدرسة الأشرفية[١١٠] فوق البئر المقابل لدرج الصخرة المشرفة الغربي بين باب السلسلة وباب سكينة[١١١]، وإيعازه عام ٨٧٧هـ/ ١٤٨٢م بإعادة تجديد وترميم وبناء ما تهدم من السبيل الذي أنشأه السلطان الأشرف إينال(٨٥٨-٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦٠م) في ساحة الحرم القدسي عام ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م فوق الآبار التي تتجمع فيها مياه الأمطار[١١٢] في المنطقة بين المدرسة العثمانية[١١٣] والطرف الغربي لصحن الصخرة المشرفة في الساحة الغربية للمسجد الأقصى أمام درج البائكة الغربية. وبُني هذا السبيل من طابقين يضم أولهما بئر للماء تعلوه خرزة ويرتفع ثانيهما مترا عن الأرض حيث يشتمل على المزملة لتسيل الماء للواردين، وعُقد أعلى الطابق الثاني بشكل مثمن لحمل القبة، ولمتابعة السلطان أعمال البناء والصيانة بنفسه بُني

بشكل جميل، وبأسلوب فني يسر الناظرين، ولروعة بناء واجهاته الحجرية الأربع، وأعمدته الركنية وقبته الجميلة والمزخرفة بزخارف نباتية، ومصطبته يعدُّ من أجمل الأسبلة في القدس بشكل خاص، وفي بلاد الشام بشكل عام ولكثرة التغييرات والأموال التي أنفقها عليه سمى باسمه "سبيل قايتباي" كما أشرف بنفسه على ترميم العديد من أقنية الماء داخل مدينة القدس وخارجها[١١٤].

ونظراً لشح مياه الأمطار وتذبذبها ولقلة المصادر المائية وعدم كفايتها في المدينة المقدسة فقد انشغل الأمراء المماليك بهذه المشكلة وحرصوا من أجل نيل الأجر والثواب وكسب احترام السكان على مشاركة السلاطين في حل تلك المشكلة من خلال تزويد المؤسسات الخدمية التي ينشؤونها بما يسد حاجة روادها من المياه عن طريق حفر الآبار، والصهاريج، وإنشاء الأسبلة، وجر مياه العيون والينابيع إلى داخل المدينة المقدسة، فقد قام الأمير تنكز الحسامي[١١٥] أثناء نيابته على مدينة دمشق عام ٧٢٧هـ/١٣٢٦م باستنباط المياه من إحدى العيون في مدينة القدس[١١٦]. وأوقف الأمير تشتمر السيفي أحد أمراء الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون في عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧م سبيل الماء المقام لخدمة المدرسة التشتمرية[١١٧] على طلبة المدرسة وزوارها[١١٨]. وقام الأمير طشتمر العلائي[١١٩] عام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م بإنشاء سبيل للماء كأحد ملاحق المدرسة الطشتمرية[١٢٠] لينتفع من مياهه طلبة المدرسة وروادها[١٢١].

وسعى الحاج إبراهيم الرومي لدى السلطان برسباي بتجديد عمارة سبيل علاء الدين البصير والكائن بباب النصر في الجهة الغربية من الحرم الشريف، وتلبية لرغبته كلف السلطان نائب السلطنة في بيت المقدس سنة ٨٣٩هـ/١٤٥٣م بالإشراف على أعمال التجديد[١٢٢].

ولتأمين المدينة المقدسة بحاجتها من مياه الشرب، ساهم بعض سكانها من أهل الخير والسعة في الحد من هذه المشكلة في وقف العديد من العقارات والحوانيت؛ ليشكل ريعها مصدراً ثابتاً لديمومة تزويد المدينة بحاجتها من الماء. مثال ذلك ما نصت عليه الوثيقة رقم(٢٢) من وثائق المتحف الإسلامي في القدس والمؤرخة بسنة ٧٠٦ هـ/١٣٠٩م، وهي نهاية حكم السلطان محمد بن قلاوون في سلطنته الثانية (٦٩٨-٧٠٧هـ/١٢٩٨-١٣٠٨م)، بوقف إحدى

القرى من معاملة القدس على أن يصرف جزء من ريعها على مصارف السقاية في القدس الشريف. ولتحقيق المنفعة العامة في مدينة القدس نصت وثيقة رقم (٧٧) على وقف عشرة حوانيت في سوق الليل معقودة بحجر ارتفاع كل واحدة منهم ستة أذرع ومعها بئر ماء عمقها أربعون ذراعا تنفق إيراداتهم لتأمين النزلاء والأهالي والزوار بما يحتاجونه من ماء الشرب في بيت المقدس[١٢٣]. ولتوفير ما تحتاجه قناة العروب من أموال للقيام بأعمال الصيانة المطلوبة والدورية فرض على القصابين المخالفين من اليهود في مدينة القدس غرامة وقدرها" عشرة آلاف درهم لعمارة قناة المسلمين الجارية إلى الحرم الشريف" وذلك في السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة ٧٩٦هـ/ التاسع والعشرين من شهر آذار عام ١٣٩٤م[١٢٤]. وكما نصت إحدى الوقفيات الموجودة في بيت المقدس والمؤرخة بتاريخ ٩١٦هـ/ ١٥٠٠م على تخصيص دينارين سنوياً لإنفاقها على سبل الماء في كل من بيت المقدس وغزة[١٢٥].

ولم يقتصر اهتمام الميسورين في بيت المقدس على إنشاء الأسبلة بل تجاوزها إلى بناء المطاهر وفسقيات الوضوء ومنه متوضأ الكأس الواقع بين قبة الصخرة والمسجد الأقصى الذي أنشأه السلطان العادل أبو بكر بن أيوب عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م وجدده نائب الشام الأمير سيف الدين تنكز الناصري عام ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧ م[١٢٦].

اهتم السلاطين والأمراء المماليك وأهل الخير من الميسورين في توفير مصادر للماء يسهل على الناس الوصول إليها باستمرار، وخاصة في المناطق الواقعة على الطريق المؤدية إلى مركز السلطنة في القاهرة كما هو الحال في نيابة غزة. ففي رجب من عام ٦٦٧هـ/ آذار ١٣٦٩م أمر الأمير بلبان بن عبدالله [١٢٧] أثناء سلطنة السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٥٩٠-١٢٧٧م) ببناء مسجد في مدينة أسدود[١٢٨] فوق مزار الصحابي الجليل سلمان الفارسي-وهو في مغارة ينزل إليها بدرج- وأوقف عليه بئر المـاء الملحـق بـه قطعة الأرض المجاورة للمسجد، وعلى باب المغارة يوجد نقش يتألف من تسعة أسطر ينص على ما يأتي:

- بسملة إنما يعمر مساجد
- الله من آمن بالله واليوم الآخر أمر بعمارة هذا
- المسجد المبارك على هذا المشهد المبارك

- المعروف بسلمان الفارسي العبدالفقير إلى ربه.
- الراجي عفوه بلبان بن عبدالله عتيق الأمير الكبير.
- علم الدين سنجر التركستاني[١٢٩] في أيام مولانا السلطان.
- الأجل الملك الظاهر ركن الدين والدنيا بيبرس الصالحي.
- خلد الله ملكه ومن ذلك إنشاء البير(البئر) والأرض وقفا له.
- نفعه الله به وملعون من يغيره أو يبدله بتاريخ رجب سبع وستين وستمئة هـ/ آذار ١٣٦٩م[١٣٠].

وحتى تستمر خدمات الأسبلة ولا تتوقف حرص المنشئون في وصاياهم على تخصيص جزء من ريع أوقافهم للعمل على صيانتها وإصلاحها وترميمها، ففي شوال من عام ٧٩٧هـ/ ١٣٩٥م أوقف السيفي أرزمك الملكي الظاهري[١٣١] جزءاً من ريع القيسارية وعدة حوانيت على السبيل المجاور لجامع ابن عثمان[١٣٢] والواقع في حي الشجاعية، وقد نصت الوقفية التي تتألف من أربعة أسطر والمنقوشة على البلاطة الموضوعة فوق الباب الشرقي للمسجد على ذلك، وعلى النحو الآتي:

- بسملة هذا ما أوقف العبدالفقير إلى الله تعالى السيفي الملك الظاهري
- أعزه الله تعالى جميع القيسارية والأربع حوانيت مجاورة الشيخ ابن مروان والدار سكن الواقف جميع
- وذلك وقفا على مصالح المدرسة والسبيل وكتّاب الأيتام وخبز الصدقة والمسجد المجاور وما فضل عن ذلك يكون للجامع بتاريخ شوال ٧٩٧هـ:

ويحوي جامع ابن عثمان المذكور سابقاً العديد من النقوش التي تبين ما طرأ عليه من تحديثات منها نقش كتب في أواخر شهر رجب سنة ٨٣٤هـ/ أوائل نيسان ١٤٣١م ينص على عمارة الحاج علم الدين سنجر المعامل[١٣٣] فسقية مبني عليها قبة في صحن الجامع، حيث وجدت رخامه مثبته فوق محراب الجامع نفسه من الداخل مكتوب عليها ما نصه:

- بسملة، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم، وإنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلوة (الصلاة) وآتى الزكوة ( الزكاة) ولم يخش إلا الله فعسى أولائك(أولئك) أن يكونوا من المهتدين والمحراب أشرف مكان من المسجد عمر هذا المحراب والقبة أعلاه.

- وكذلك الفسقية والقبة أعلاها بصحن الجامع ابتغاء لوجه الله تعالى ال عبدالفقير إلى الله تعالى الصدر الأجل الحاج علم الدين سنجر المعامل بغزة أعزه الله وجعله في كنفه وحرزه وذلك في مدة آخرها العشر الآخر من شهر رجب سنة أربع وثلاثين وثمانمئة[١٣٤].

كما أنشأ الأمير شاهين بن عبدالله الكجكي عام ٨٢١هـ/١٤١٨م بجوار مسجد الطواشي مدرسة الكجكي والتي سماها باسمه، وعلى بابها نقش يتألف من أربعة أسطر:

- بسملة، أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة والبئر المقر السيفي شاهين.
- الكجكي[١٣٥] مقدم القصر الشريف كان وجعل البئر وقفاً على المدرسة المذكورة وعلى السقاية الشتا(الشتاء).
- والحوض داخل المدرسة ذلك في مستهل شهر الله الحرام إحدى وعشرين وثمانمائة.
- أثاب الله واقفها الجنة[١٣٦].

## النتائج والتوصيات:

خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها:

أدى تذبذب مياه الأمطار وتفاوتها شتاءً في بلاد الشام، وصعوبة حصول الناس على حاجتهم من الماء، وخاصة في فصل الصيف الجاف إلى شحذ همم بعض أفراد السلطة الحاكمة من السلاطين والأمراء والأعيان بالتعاون مع الخيرين والميسورين من أهالي بلاد الشام، وعلى مر العصور الإسلامية للتفكير عملياً بضرورة توفير الماء للمحتاجين بسهولة ويسر، وبالقرب من أماكن سكناهم ومواقع أعمالهم مستخدمين طرق وأساليب متنوعة.

- اهتمام المسلمين ومنذ عصر النبوة بالإنفاق والوقف على توفير مياه الشرب والوضوء امتثالاً للهدي النبوي الشريف بأنّه سُقيا الماء من أفضل الصدقات التي لا ينقطع أجرها وثوابها بعد وفاة واقفها، إضافة إلى رغبة الواقفين بالدعاء لهم وتخليد أسمائهم بكتابتها على المنشآت المائية التي أنشاؤها.
- ساهم الوقف الإسلامي في تأمين المياه في المدن الرئيسة، والولايات، والقرى الشامية الواقعة على امتداد محطات البريد والطرق الرئيسة ولاسيما شحيحة الأمطار أو البعيدة عن مجاري الأنهار والبحيرات والعيون عن طريق سقاة الروايا أو حفر القنوات، وإنشاء الأسبلة، وعمارة البرك، والآبار، وذلك من خلال الاتفاق المادي المباشر أو الوقوف العقارية التي يخصص جزء من إيراداتها أو كلها لصالح إنشاء

المصالح المائية وضمان ديمومتها.

- سار السلاطين المماليك على خطى أسلافهم من حكام المسلمين بالوقف والإنفاق على إنشاء العديد من المصالح المائية في بلاد الشام وتعهدها بالصيانة والرعاية طلبا للمغفرة ونيل الأجر والثواب، وحرصا على زيادة نفوذهم الشعبي وتثبيت أركان دولتهم في وسط مجتمع لا ينتمون إليه عرقيا.

- تعددت أساليب وطرق توفير المياه الصالحة للشرب في مدن بلاد الشام، وأماكنها المقدسة، وعلى امتداد محطات البريد وطرقها الرئيسة، وفقا لتنوع الأنماط المناخية، وطبيعة المنطقة الجغرافية والتضريسية السائدة، عن طريق جر مياه بعض الأنهار أو العيون إلى داخل المدن بواسطة قنوات حفرت بطرق هندسية ومعمارية تثير الدهشة.

- تم جر جزء من مياه نهر بردى وتفرعاته بواسطة قنوات أرضية إلى داخل مدينة دمشق حيث تم استغلالها بتزويد البرك والصهاريج بحاجتها من المياه، وإنشاء العديد من الأسبلة والسقّايات ولكثرتها استرعت انتباه بعض الرحالة العرب والأجانب الذين زارو المدينة.

- وفي مدينة حلب استخدمت تقنية هندسية ومعمارية غاية في الدقة لشق قناة عظيمة جُمِعَت فيها مياه نهري قويق والساجور لتزويد دور المدينة، ومساجدها، وحماماتها، وأسبلتها بحاجتها من المياه.

تنافس السلاطين والأمراء المماليك والميسورون من المسلمين بتوفير الماء في الحرم القدسي، على طول الطرق المؤدية إليه عن طريق جر مياه عين العروب وحفر الصهاريج وآبار الجمع وإقامة الأسبلة في ساحة الحرم القدسي الشريف والعمل على تنظيفها وترميمها وصيانتها بشكل دوري لمعالجة مشكلة شُح المياه في مدينة القدس.

ولم تقتصر رعاية المحسنين بالتبرع والوقف على المصالح المائية في المدن الرئيسة في بلاد الشام، بل تعدتها لتشمل أيضا تزويد بعض الولايات والقرى الواقعة على طرق محطات البريد الرئيسة بحاجتها من المياه بحفر القنوات، وصيانة شبكات النقل من العيون والبرك والأنهار القريبة لكل منها.

كانت تقام في أعقاب الانتهاء من حفر القنوات وعمارة الأسبلة وغيرها من المنشآت المائية مراسم احتفالية يشارك فيها النواب والمحسنون وجمع غفير من أهل البلد وزوارها، يليها إقامة الولائم وتوزيع الحلوى كما حصل أثناء الاحتفال بوصول المياه إلى كل من مدينة حلب وبيت المقدس.

**الهوامش:**

(١) عاشور، سعيد عبدالفتاح، **المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك**، القاهرة، ١٩٦٢م، ص٩٠. وسيشار إليه فيما بعد.

(٢) السبيل: مشتق من سبل الشيء أي جعله مباحا في سبيل الله، ومن أسبل الماء أي صبه، والماء المسبل أي الموقوف في سبيل الله بهدف ابتغاء مرضاته ونيل الأجر والثواب، والسبيل منشأة خيرية أقيمت بالقرب من الأماكن المقدسة وفي المناطق المزدحمة في السكان وعلى الطرقات بهدف توفير الماء للمحتاج رغبة في عدم انقطاع ثوابها بعد وفاة واقفها. أمين، ليلى محمد إبراهيم، **المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية**، الجامعة الأمريكية، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٦٢، وسيشار إليه فيما بعد، أمين، المصطلحات المملوكية؛ ماهر، سعاد محمد، **مساجد مصر وأولياؤها الصالحون**، الأهرام التجارية، القاهرة، ١٩٧٠م. ص١٤، وسيشار إليه فيما بعد، ماهر، مساجد مصر؛ لدويك، سماح محمد، **تصميم السبيل العثماني وإمكانية توظيفه في العمارة الداخلية الإسلامية المعاصرة**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة العلوم الإسلامية، عمان، ٢٠١٣م، ص١٣. وسيشار إليه فيما بعد، الدويك، تصميم السبيل العثماني.

(٣) السقاية: موضع السّقي والإناء يسقى به، كانت تطلق على من يتولى حمل الماء إلى البيوت ونحوها و نقل الماء من الأنهار والعيون بالروايا والقِرب إلى صهاريج الأسبلة، وهى مهنة من يقوم بإدارة (الساقية). الدويك، **تصميم السبيل العثماني**، ص ٢٣.

(٤) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤م، ج٢، ص٤٦٥ وسيشار إليه فيما بعد، ياقوت، معجم.

(٥) كيال، منير، **الحمامات الدمشقية**، دمشق، ١٩٨٦م، ص٢٥٥، وسيشار إليه فيما بعد، كيال، الحمامات الدمشقية.

(٦) ابن جبير، محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٨م)، **رحلة ابن جبير**، دار صادر، دار بيروت، بيروت ١٩٦٤م، ص٢٤٦، ٢٤٩، وسيشار إليه فيما بعد، ابن جبير، رحلة.

(٧) المزة: قرية كبيرة غناء في أعلى الغوطة قبلي النيرب في سفح الجبل من أعلى دمشق. ابن جبير، رحلة، ص٢٤٩. البغدادي، صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق، (ت:٧٣٩هـ/ ١٣٣٩م) **مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع**، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، ١٩٥٤م، ج٣، ص١٢٦٦، وسيشار إليه فيما بعد، البغدادي، مراصد الاطلاع.

(٨) النيرب، قرية كبيرة ومشهورة على نصف فرسخ من أنزه موضع وسط البساتين تقع في أسفل الربوة ابن جبير رحلة ص ٢٦٥. ابن جبير، رحلة، ص٢٤٩؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، ج٣، ص١٤١٠.

(٩) الصالحية: قرية كبيرة ذات أسواق وجامع تقع في سفح جبل قاسيون المطل على مدينة

دمشق. ابن جبير، رحلة، ص٢٤٩؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٨٣٠.

(١٠) الصالحية: قرية كبيرة ذات أسواق وجامع تقع في سفح جبل قاسيون المطل على مدينة دمشق. ابن جبير، رحلة، ص٢٤٩؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٨٣٠.

(١١) ابن بطوطة، أبو عبدالله اللواتي، (٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، حققه وقدم له وعلق علية على المنتصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م، ج١، ص ٧٠، وسيشار إليه فيما بعد، ابن بطوطة، رحلة.

(١٢) شاذورات: كلمة فارسية مفردها شاذرون هي ألواح خشبية مثبته يوضع خلفها أعمدة لتثبيتها في الأنهار فيرتفع مستوى المياه وتستخدم لرفع مياه الأنهار لسقي الأماكن المرتفعة، وتطلق أيضا على ألواح الرخام الذي تجري عليه المياه في الأسبلة لتبريدها قبل تجميعها في الفساقي. دهمان، محمد أحمد، **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٠م، ص٩٥، وسيشار إليه فيما بعد، دهمان، معجم الألفاظ؛ نويصر، حسني، **مجموعة سبيل قايتباي**، القاهرة، ١٩٧٠م، ص١٤، وسيشار إليه فيما بعد، نويصر، مجموعة سبيل.

(١٣) ابن بطوطة، **رحلة**، ص٢٣٣-٢٣٤.

(١٤) **المصدر نفسه**، ص١٠٣.

(١٥)**المصدر نفسه** ، ص١٠٣-١٠٤.

(١٦) البدري، أبو البقاء عبدالله بن محمد، (من علماء القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) **نزهة الأنام في محاسن الشام**، القاهرة، ١٣٤١م، ص٦٠. وسيشار إليه فيما بعد، البدري، نزهة الأنام؛ نقولا زيادة، **دمشق في عصر سلاطين المماليك**، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٦م، ص٩٩ وسيشار إليه فيما بعد، زيادة، دمشق.

(١٧) البدري، أبو البقاء عبدالله بن محمد، (من علماء القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي)**نزهة الأنام في محاسن الشام**، القاهرة، ١٣٤١م، ص٦٠. وسيشار إليه فيما بعد، البدري، نزهة الأنام؛ نقولا زيادة، **دمشق في عصر سلاطين المماليك**، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٦م، ص٩٩ وسيشار إليه فيما بعد، زيادة، دمشق.

(١٨) البدري، أبو البقاء عبدالله بن محمد، (من علماء القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) **نزهة الأنام في محاسن الشام**، القاهرة،١٣٤١م، ص٦٠. وسيشار إليه فيما بعد، البدري، نزهة الأنام؛ نقولا زيادة، **دمشق في عصر سلاطين المماليك**، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٦م، ص٩٩ وسيشار إليه فيما بعد، زيادة، دمشق.

(١٩) الكلاسة: مدرسة لصيقة بالجامع الأموي من الجهة الشمالية عمرها السلطان نور الدين زنكي عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م وسميت بهذا الاسم لبنائها في المكان الذي كان يصنع فيه، الكلس أثناء بناء الجامع الأموي وجددت في أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي أي في سنة ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م، وجدد بركتها وبلطها جمال الدين يغمور. النعيمي، عبدالقادر بن

محمد، (ت: ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م)، **الدارس في تاريخ المدارس**، تحقيق جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية، دمشق، ١٩٨٨م، ج١، ص٣٤١، وسيشار إليه فيما بعد، النعيمي، الدارس

(٢٠) يقع في منطقة الصالحية أنشأه الأمير سيف الدين القيمري المتوفى سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م في ايام السلطان الناصر يوسف وموقعه مشرفا على مدينة دمشق ويشبه في تخطيطه، تخطيط البيمارستان النوري. اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م) **ذيل مرآة الزمان**، ٤ج، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٣٧٤–١٣٨٠هـ/ ١٩٥٤–١٩٦١م، ج١، ص٣٤–٤٤، وسيشار إليه فيما بعد، اليونيني، ذيل مرآة.

(٢١) ابن شداد، عز الدين محمد بن علي، (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق ونشر دومنيك سورديل دمشق، ١٩٥٣م، ج٢، ص٨٧–٩٧

(٢٢) الجامع البزوري: يقع بالقرب من قبر عاتكة في مدينة دمشق. ابن طولون، شمس الدين محمد بن على، (ت٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان تاريخ مصر والشام**، تحقيق محمد مصطفى، المؤسسة العامة للتأليف والنشر، لقاهرة، ١٩٦٢م، ص١٠٧. وسيشار إليه فيما بعد، ابن طولون، مفاكهة الخلان.

(٢٣) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ق١، ص١٠٧.

(٢٤) الريحاوي، عبدالقادر، **العمارة العربية الإسلامية**، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٩م، ص١٧٠–١٧١، وسيشار إليه فيما بعد، الريحاوي، العمارة العربية.

(٢٥) الريحاوي، العمارة العربية، ص١٧٠–١٧١.

(٢٦) سيباي: أمير مملوكي يتصف بكثرة الظلم والجور والبطش نقل إلى نيابة دمشق عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م واستمر فيها مدة إحدى عشرة سنه وبقي نائبا إلى أن قتل في عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م. ابن طولون مفاكهة الخلان، ق١، ص٢٩٨، ٣٠٣، ٣٧٩، ق٢، ٣؛ وله **أعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى**، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق، ١٩٦٤، ص١٧٥–٢١٥، وسيشار إليه فيما بعد، أعلام الورى.

(٢٧) تقي الدين أبو بكر بن شعبان الرجبي شغل وظيفة الدوادار الثالث لنائب الشام سيباي وناظر مدرسته ابن طولون، ١٩٦٢م مفاكهة الخلان، ق١، ص٣٣٥، ٣٣٩؛ ق٢، ص٧.

(٢٨) القيسارية جمعها قياسر وهي العمارة الكبيرة المسقوفة التي تحتوي على العديد من الغرف ومخازن التجار ويعلوها طابق ثانٍ يستخدم سكن للتجار، وأحيانا يطلق. عليها اسم الخان. بن حجر، **إنباء الغمر بأبناء العمر**، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٩٦٧–١٩٦٨م، ج٢، ص٧٢–٧٣؛ العبادي، أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩م، ص٩١. وسيشار إليه فيما بعد، العبادي، دولة المماليك.

(٢٩) ابن طولون، **مفاكهة الخلان**، ق١، ص٣٣٩؛ وله **أعلام الورى**، ص٢١١.

(٣٠) أنشأها الملك العادل نور الدين زنكي بن أق سنقر عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٨م في مدينة دمشق. ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ج١، ص٢٠٣؛ النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٦٠٧.

(٣١) ابن جبير، **رحلة**، ص ٢٧٣.

(٣٢) بناها الملك السعيد مقابل المدرسة العادلية تنفيذا لوصية والده.ليدفن فيها وأشرف على بنائها الأمير عزالدين أيدوم ألسيفي نائب دمشق رغبة في طلب الرحمة لصاحب المدرسة بوصفها المكان الذي تدرس فيه المباحث الإسلامية. الزورباء، **الحياة الاجتماعية**، ص ٢٣١.

(٣٣) التنويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب، (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، **نهاية الرتبة في فنون الأدب**، تحقيق علي ملحم، دار الكتب العلمية بيروت، ٢٠٠٤م، ج٨، ص٣٤١. وسيشار إليه فيما بعد، النويري، نهاية الرتبة. الفسقية: حوض يقام في الحديقة، أو في الميادين العامة أو في ساحة البيوت أو في داخل القاعات لتبريدها بمرور الماء. دهمان، **معجم الألفاظ** ص١٢٠.

(٣٤) أنشئت داخل باب الفرادسة إلى الشمال من جيرون وأوقفها الأمير الكبير ناصر الدين أبو المعالي الحسن بن العزيز بن أبي الفوارس القيمري الكردي، ابن كثير، إسماعيل بن عمر، (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، **البداية والنهاية في التاريخ**، دار السعادة، القاهرة، ١٩٢٩-١٩٣٩م، ج١٣، ٢٥٠، وسيشار إليه فيما بعد، ابن كثير، البداية؛ الزورباء، **الحياة الاجتماعية**، ص٢٢٠.

(٣٥) ابن طولون، **مفاكهة الخلان**، ق١، ص٢٢.

(٣٦) تصغير قاق وله مخرجان أحدهما من قرية الحسينية قرب أعزار والثاني تجمع لعيون الماء قرب سنياب ويتجمع الرافدان في نهر واحد هو نهر قويق ويسير إلى دابق وتمده العديد من العيون قبل وصوله حلب وشرب أهل حلب منه يضعف ماؤه صيفا لذلك جر إليه الأمير أرغون مياه نهر الساجور. ابن الشحنة، أبو الفضل محمد، (ت ٨٥٠هـ/ ١٤٨٥م)، **الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبدالله درويش**، دار الكتاب العربي، عالم التراث، دمشق، ١٩٨٤م، ص ١٣٦، وسيشار إليه فيما بعد، ابن الشحنة، الدر لمنتخب.

(٣٧) تصغير قاق وله مخرجان أحدهما من قرية الحسينية قرب أعزار والثاني تجمع لعيون الماء قرب سنياب ويتجمع الرافدان في نهر واحد هو نهر قويق ويسير إلى دابق وتمده العديد من العيون قبل وصوله حلب وشرب أهل حلب منه يضعف ماؤه صيفا لذلك جر إليه الأمير أرغون مياه نهر الساجور. ابن الشحنة، أبو الفضل محمد، (ت ٨٥٠هـ/ ١٤٨٥م)، **الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبدالله درويش**، دار الكتاب العربي، عالم التراث، دمشق، ١٩٨٤م، ص ١٣٦، وسيشار إليه فيما بعد، ابن الشحنة، الدر لمنتخب.

(٣٨) الأمير الكبير آرغون بن عبدالله نائب حلب أصله من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون ورقاه بتولية نيابة السلطنة في مصر ثم نقله إلى نيابة حلب وباشرها أربع سنوات.

ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٩، ص٢٨٨.

(٣٩) سأجور اسم نهر بمدينة منبج، وهو من روافد نهر الفرات ويبعد عن حلب إلى الشمال الشرقي مسافة ٨٠ كم تقريبا. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٣، ص٩؛ زكريا، احمد وصفي، **جولة أثرية في بعض البلاد الشامية**، دار الفكر، ط١، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٢١٧، ٢١٨، وسيشار إليه فيما بعد، زكريا، جولة أثرية.

(٤٠) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٩، ص٢١١؛ الغزي، كامل بن حسين بن مصطفى بن بابي الحلبي، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، المطبعة المارونية، حلب، (د: ت)، ج١، ص٥٥، ٦٥. وسيشار إليه فيما بعد، الغزي، نهر الذهب.

(٤١) سيف الدين جلبان المعروف بأمير خور رقاة الملك المؤيد من رتبة أمير طبلخانة إلى أمير خور ثاني ثم إلى رتبة مقدم ألف في الديار المصرية، وبعد وفاة المؤيد حبسه ططر.وأطلق سراحه الأشرف إينال وأنعم عليه بإمرة مائة تقدمة ألف، وتنقلت به الأحوال حيث تولى نيابة حماة سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٢٣م، ونقل إلى نيابة حلب سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤٢م وأخيراً تولى نيابة الشام عام ٨٤٣هـ/ ١٤٢٤م وتوفي عام ٨٥٩هـ/ ١٤٥٥م. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، (ت:٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م)، **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م، ج ٥، ص٦-١٢، وسيشار إليه فيما بعد، ابن تغري بردي، المنهل الصافي؛ وله **النجوم**، ج١٥، ص ٥٦.

(٤٢) ابن الشحنة، **الدر المنتخب**، ص١٣٦.

(٤٣) الغزي، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، ج١، ص٥٦.

(٤٤) الغزي، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، ج١، ص٥٧.

(٤٥) ابن الشحنة، **الدر المنتخب**، ص١٤١. قناة حلب. مجموعة من عيون الماء في قرية جيلان إلى الشمال الشرقي من مدينة حلب جمعت في قناة حفرت قديما بالأرض محكمة البناء وتمر وهي في طريقها إلى حلب بقرية بابلي ثم جباب ومنها تجري تحت الأرض إلى أن تدخل باب الأربعين أحد أبواب مدينة حلب ومن هناك تتفرع إلى نواحي حلب جميعها، ومع مرور الزمن اندثرت أجزاء منها وتكفل بترميمها الخليفة عبدالملك بن مروان وثم السلطان نور الدين زنكي، وفي عام ٦٠٥ هـ/ ١٢٠٨م انخفض منسوب مياهها وضعف تدفقها ونقصت كمية المياه الواصلة لمدينة نتيجة للإهمال لهذا أمر الأمير غياث الدين بن غازي الصناع من مدينة دمشق بالكشف على القناة لمعرفة سبب ضعف المياه وبعد معاينتهم للقناة تعهدوا للأمير بتجديد طريقها وإصلاحها وترميمها وتغطيتها بالصخور -ما عدا بعض الأماكن من أجل تنقيتها وتنظيفها- في مدة أقصاها ثمانية وخمسين يوما ولّما وصلت مدينة حلب تكفل الأمير غياث الدين ببناء القساطل ووصول مياهها إلى جميع دور أهل حلب ومدارسها

وحماماتها. ابن الشحنة، **الدر المنتخب**، ص ٧٦، ١٤٢-١٤٣.

(٤٦) الجمالية: مدرسة أوقفها الأمير جمال الدين يوسف وتقع في سفح جبل قاسيون. النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٢٧٤.

(٤٧) مشهد الدكة بظاهر مدينة حلب أنشأه الأمير سيف الدولة الحمداني على اسم المحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب وبني عليه عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م بناية أيام قسيم الدولة آق سنقر ابتغاء لوجه الله، وجدده ورممه السلطان نور الدين محمود بن زنكي وبنى فيه صهريجا وميضأة ينتفع منها زوار المشهد والوافدين على القرية وأهلها، ووقف عليها أثناء سلطنة الملك الظاهر. ابن الشحنة، **الدر المنتحب**، ص ٨٨.

(٤٨) الغزي، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، ج١، ص٥٦، ٥٧.

(٤٩) ابن الشحنة، **الدرر المنتحب**، ص ١٣٦. اشقتمر الأمير سيف الدين بن عبدالله المارديني أحد أعيان الأمراء تنقل بين العديد من الوظائف، تولى نيابة حلب عام ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢م وتردد عليها نائبا خمس مرات متفرقة تولى خلالهما نيابة طرابلس مرتين ونيابة دمشق مرتين ثانيهما كانت عام ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م وبعدها عزل لكبر سنه، وعجزه، ورسم له الإقامة في مدينة حلب إلى أن توفي عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م، ج ٢، ص٣٥١-٣٥٤، وسيشار إليه فيما بعد، ابن تغري بردي، المنهل الصافي؛ ابن طولون، **أعلام الورى**، ص٥٣.

(٥٠) لم اعثر له على ترجمة.

(٥١) الريحاوي، **العمارة العربية**، ص١٧٠-١٧١.

(٥٢) مشهد على رأس جبل الجو شن وفيه بيت عليه قبة يقصده أهل حلب للتبرك لاعتقادهم باستجابة الدعاء فيه كون أحد الصالحين رأى في منامه أن فاطمة بنت الرسول ﷺ تصلي فيه. ابن الشحنة، **الدر المنتخب**، ص٩١.

(٥٣) لم أعثر له على ترجمة.

(٥٤) سالم، السيد عبدالعزيز، **طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٦٦م، ص٤٥٦. وسيشار إليه فيما بعد، سالم، طرابلس.

(٥٥) الدواداري المنصوري، الأمير ركن الدين بيبرس، **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، تحقيق دونالدس. ريتشاردز، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، ١٩٩٨م، ص٢٥٥. وسيشار إليه فيما بعد، المنصوري الدواداري، **زبدة الفكرة**.

(٥٦) أحمد بن عيسى بن موسى المقيري قاضي القضاة عماد الدين الكركي ولد في مدينة الكرك عام ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م ولي قضاء الكرك فترة طويلة حتى سجن الظاهر برقوق في قلعتها عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٢م وقام هو وأخيه على خدمته وتعهداه بالرعاية وبعد استعادة الظاهر برقوق عرش السلطنة ثانية استدعاه إلى القاهرة وولاه قضاء الشافعية في القاهرة وعزل سنة ٧٩٤هـ/ ١٣٨٥م وأسند إليه تدريس الفقه في جامع أحمد بن طولون ثم تولى خطابة القدس وبقي فيها حتى وفاته

عام ٨٠١هـ/١٣٩٨م. ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ج٢، ص٣٥-٥٥.

(٥٧) غوانمة، يوسف درويش، **التاريخ الحضاري لشرق الأردن**، دار الفكر للنشر، عمان، ١٩٨٢ م، ص١٦٣ وسيشار إليه فيما بعد، غوانمة، **التاريخ الحضاري**.

(٥٨) ابـن شـاكر الكتبي، محمد، (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) **فوات الوفيات والذيل عليها**، م١، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٣م، ج١، ص٢٤٣، وسيشار إليه فيما بعد، ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات؛ ابن عبـدالظاهر، محـيي الديـن، (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م)، **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق ونشر عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧١م، ص٢٨٧، وسيشار إليه فيما بعد، ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق أحمد عبدالوهاب، القاهرة، ٢٠٠٢م، ج١٣، ٣٠٧.

(٥٩) الجوالي: المال الذي يؤخذ كجزية من أهل الذمة مقابل بقائهم ومعيشتهم داخل دار الإسلام، وسميت الجوالي لأنه المال المأخوذ ممن أجلاهم عمر بن الخطاب عن جزيرة العرب. دهمان، **معجم الألفاظ التاريخية**، ص٥٨.

(٦٠) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، **السلوك** لمعرفة دول الملوك تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٧م، ج٢، ص١٦٥.وسيشار إليه فيما بعد، المقريزي، السلوك.

(٦١) سنجر الشجاعي المنصوري وزير الديار المصرية دخل مدينة دمشق في شهر جمادي الأخر سنة ٦٩٠ هـ/ ١ حزيران ١٢٩١م. ابن طولون، **أعلام الورى**، ص٣٥.

(٦٢) نمر، عباس، **مقدساتنا وأطماع اليهود**، وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات العربية، ١٩٩٩م، ص٧٩، وسيشار إليه فيما بعد، نمر، مقدساتنا.

(٦٣) لابيدوس، إيرا مارفين، **مدن إسلامية في عهد المماليك**، ترجمة على ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٢٤، وسيشار إليه فيما بعد، لابيدوس، مدن إسلامية.

(٦٤) شيخ الربوة، محمد بن طالب الأنصاري، **(ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م، ص٣٠، وسيشار إليه فيما بعد، شيخ الربوة، نخبة الدهر؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص١٩٥؛ ابن شاكر الكتبي **فوات الوفيات**، ج١، ص٢٤٤.

(٦٥) قلعة بناها السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٧م إلى الشمال من مدينة طولكرم لتكن حصنا لمراقبة الأعداء ومستودع للمؤن والذخيرة وكانت تشكل في العصر المملوكي إحدى محطات البريد الرئيسة ويقوم فيها الأسواق التجارية الأسبوعية لخدمة سكان المنطقة والمناطق المجاورة. الطراونة، طه، **مملكة صفد في عهد** المماليك، دار الأفاق الجديدة، بيروت،

١٩٨٢م، ص١٢٥، وسيشار إليه فيما بعد، الطراونة، مملكة صفد.

(٦٦) ابن تغري بردي **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص ١٩٤؛ ابن عبدالظاهر، **الروض الزاهر**، ص٢٧٥.

(٦٧) الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار، تولى نيابة صفد عام ٧٠٧ هـ/ ١٣٠٨ م كان من المقربين للسلطان هو وولده ووشي به عند السلطان فنقله إلى قلعة الصبيبة وأقام بها مدة. الصفدي، صلاح الدين خليل إيبك، (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الارناؤوطي، وتركي مصطفى، نشر دار أحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ج١٠، ص١٢٤، وسيشار إليه فيما بعد، الصفدي، **الوافي**.

(٦٨) **الصفدي**، ٢٠٠٠م، ج١٠، ص١٢٤.

(٦٩) **المصدر نفسه**.

(٧٠) ق ارا: قرية كبيرة تقع في منتصف الطريق بين دمشق وحمص وتبعد عن حمص إلى الجنوب مسافة ٩٦كم، وكانت تشكل إحدى ولايات نيابة حمص في العهد المملوكي، العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله، (ت ٧٤٧هـ/١٣٤٦م) **التعريف بالمصطلح الشريف**، تحقيق سمير الدروبي، الكرك، ١٩٩٢م، ص٢٥٧، وسيشار إليه فيما بعد، العمري، التعريف؛ القلقشندي، أحمد بن علي، (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، شرح وتحقيق عدة محققين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ح٤، ص١١٧، وسيشار إليه فيما بعد، القلقشندي، صبح الأعشى؛ المكي، محمد بن السيد الحاج مكي الخانقاة، (ت ١١٣٥هـ/ ١٧٢٢م)، **تاريخ حمص**، تحقيق عمر نجيب العمر، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، دمشق، ١٩٨٧م، ص٢٨٨، وسيشار إليه فيما بعد، المكي، تاريخ حمص.

(٧١) تقع إلى الجنوب من حمص على مسافة ٣٨كم على الطريق المؤدية إلى لبنان وتشتهر بكثرة العيون فيها لهذا شقت قناة منها إلى مدينة حمص الإدريسي، محمد بن محمد بن عبدالله، (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٦ م)، **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م، ج١، ص٣٧٤، وسيشار إليه فيما بعد، الإدريسي، نزهة المشتاق؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٨٥؛ ابن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، ج٢، ص ٢٥٨؛ الحميري، محمد بن عبدالمنعم، (ت٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص١٩٨، وسيشار إليه فيما بعد، الحميري، الروض المعطار

(٧٢) ابن الصيرفي، الخطيب الجوهري علي بن داود، (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م)، **نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان**، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠م، ج١، ص٥٠٢، وسيشار إليه فيما بعد، ابن الصيرفي، **نزهة النفوس**.

(٧٣) سلمية: تبعد عن مدينة حمص ٤٠كم إلى الشمال الشرقي، كانت في العصر المملوكي

تشكل إحدى محطات البريد المتفرعة من دمشق. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١٤، ص٤٢٨؛ زكريا، **جولة أثرية**، ص٢٦٤.

(٧٤) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن الأفضل، (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١ م) **المختصر في أخبار البشر**، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، ١٩٠٧م، ج٤، ص٩٤.

(٧٥) ارسوف: مدينة ساحلية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين قيسارية في الشمال ويافا في الجنوب، كانت مسورة وفيها علماء المرابطين. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي، (ت ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م)، **الدرر الكامنة أعيان المائة الثامنة**، تحقيق محمد سيد جاد الحق، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٦-١٩٦٧م، ج٢، ص٣٢٣؛ أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر(ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، **تقويم البلدان**، تحقيق م. رينود، مالك كوكين ديسلان، المطبعة الملكية، باريس، ١٨٤٠، ص٥٣٨، وسيشار إليه فيما بعد، أبو الفداء، تقويم البلدان.

(٧٦) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص١٩٤-١٩٥؛ المقريزي، **السلوك**، ج١، ص٥٥٧.

(٧٧) أبو الفضل القبطي المصري، ولد بمصر وتنقل في الخدمة إلى أن اتصل بخدمة الأمير يلبغا الناصري، غضب منه السلطان الظاهر برقوق وسجنه ثم أفرج عنه واستمر بطالا إلى أن توفي. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن، (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م، ج٤، ص٣١٢، وسيشار إليه فيما بعد، السخاوي، الضوء اللامع.

(٧٨) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص٣٤٨؛ الزاملي، فايز إبراهيم، **الأوقاف في فلسطين في عهد المماليك**، رسالة ماجستير غير منشوره، الجامعة الإسلامية، غزه، ٢٠١٠م، ص١٤٩، وسيشار إليه فيما بعد، الزاملي، الأوقاف في فلسطين.

(٧٩) الأمير سيف الدين طاجاز بن عبدالله الناصري، ولاه الملك الناصر الدوادارية بعد أن رقي إليها من طبلخانة وإمرة مائة وتوفي عام ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م. ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج٢، ص٣١٤؛ ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ج٦، ص٣٦٠، وله **الدليل الشافي على المنهل الصافي**، تحقيق فهيم شلتوت، من منشورات مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، القاهرة، ١٩٨٤م، ج١، ص٣٥٧، وسيشار إليه فيما بعد، الدليل الشافي.

(٨٠) الدباغ، مصطفى مراد، **بلادنا فلسطين**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥-١٩٧٦، ج٣، ص٣٦، وسيشار إليه فيما بعد، الدباغ، بلادنا فلسطين.

(٨١) ابن حجر، الدرر **الكامنة**، ج٢، ص٣١٧.

(٨٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤م، ج١، ص١٦٢، وسيشار إليه فيما بعد ابن فضل الله، مسالك الأبصار؛ رائف نجم وآخرون، كنوز القدس، مؤسسة آل البيت، ط١،

عمان، ١٩٨٣م، وسيشار إليه فيما بعد نجم، كنوز.

(٨٣) ابن فضل الله، مسالك الأبصار، ج١، ص١٥٠؛ نجم، **كنوز القدس**، ص ١٢٤؛ جمعية برج اللقلق المجتمعي، ٢٠١٣م، ص٧.

(٨٤) على السيد على، **القدس في العصر المملوكي**، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٢٤٣، وسيشار إليه فيما بعد، علي، القدس.

(٨٥) الأمير علاء الدين الحاج الركني: لم أعثر له على ترجمة.

(٨٦) المقريزي، **السلوك**، ج٢، ص٤٤.

(٨٧) عثامنه، خليل، **فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي (١١٨٧-١٥١٦م)**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ٢٠٠٦م، ص٤٢٥، ٤٢١-٤٢٧، وسيشار إليه فيما بعد، عثامنه، فلسطين.

(٨٨) الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي بن العماد، (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار أحياء التراث العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج٢، ص٨٧، ٢٣٢، ٣٥٥، ٣٦٨-٣٦٩، وسيشار إليه فيما بعد، الحنبلي، شذرات الذهب؛ خلف، علي سعيد، **شيء من تاريخنا**، وكالة أبو عرفة للصحافة، القدس، ١٩٧٩م، ص١٨، وسيشار إليه فيما بعد، خلف، شيء من تاريخنا؛ على، **القدس**، ص٢٨.

(٨٩) المقريزي، السلوك، ج٤، ص١٠٨؛ العسلي، كامل جميل، **القدس في التاريخ**، ط١، عمان، ١٩٩٢م، ص٢١٦، وسيشار إليه فيما بعد، العسلي، القدس في التاريخ.

(٩٠) عين العروب: العروب بتشديد الراء اسم قريتين تبعدان ٢٢كم إلى الجنوب من القدس فيهما العديد من العيون منهما عينان عظيمتان وبركتان تدعى أحداهما الشط وبعدها تخرج المياه وتشكل بعد التقائها بمياه ينابيع أخرى قناة تصب في برك سليمان "المرجيع" ويطلق علي هذا القسم اسم قناة العروب وبعد جريان القناة بمسافة تلتقي بمياه أرطاس وتشكل المجاري المائية جميعها في قناة واحدة تصل بيت لحم ومن ثم القدس ويطاق على هذا القسم من القناة اسم السبيل، ويغلب على القسمين اسم قناة السبيل. المقريزي، **السلوك**، ج٥، ص٤٤٧؛ ابن قاضي شهبه، تقي الدين أحمد، (ت ٨٥١ هـ/ ١٤٤٨ م)، **تاريخ ابن قاضي شهبه**، ج٣، تحقيق عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٧، ج٣، ص١١٧، وسيشار إليه فيما بعد، ابن قاضي شهبه، تاريخ؛ ابن تغري بردي، **النجوم**، ج١٢، ص٨٨؛ العارف، عارف، **المفصل في تاريخ القدس**، مكتبة الأندلس، ١٩٩٩م، ص٢١٠،٢٠٥. وسيشار إليه فيما بعد، العارف، المفصل.

(٩١) سيف الدين قطلو بغا: نائب السلطنة بالقدس وناظر الحرمين بالقدس والخليل وهو الذي بنى مئذنة الأسباط. العارف، **المفصل**، ج١، ص٢٢٤.

(٩٢) العليمي، مجير الدين بن عبدالرحمن بن محمد، (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م) **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، تحقيق عدنان يونس

عبدالمجيد نباته، مكتبة دنديس، عمان، ١٩٩٩م، ج٢، ص٩٢، وسيشار إليه فيما بعد، العليمي، الأنس الجليل.؛ المقريزي، (ت: ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، تحقيق محمد زينهم ومديحه الشرقاوي، راجعه وضبط هوامشه أحمد زيادة، ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٨م، ج٣، ص١٠٦، وسيشار إليه فيما بعد، المقريزي، المواعظ والاعتبار؛ عارف، باشا عارف، **تاريخ القدس**، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١م، ص٩٢، وسيشار إليه فيما بعد، العارف، القدس؛ وله **المفصل**، ج١، ص٢٠٤.

(٩٣) العليمي، **الأنس الجليل**، ج٢، ص٣٤؛ العارف، المفصل، ج١، ص٢٠٤؛ عارف العارف، قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك ولمحة عن تاريخ القدس، مطبعة دار الأيتام الإسلامية الصناعية، القدس، ١٩٥٥م، ص٢١٠، وسيشار إليه فيما بعد، العارف، قبة الصخرة.

(٩٤) الكأس متوضأ وهو حوض رخامي دائري يتوسطه نافورة تشبه الكأس وعلى جوانبه الخارجية صنابير يخرج منها الماء ليتوضأ منه المصلون أمر ببنائه السلطان سيف الدين أبو بكر بن أيوب سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م في الجهة الجنوبية الأمامية للمسجد الأقصى، رممه الأمير تنكز عام ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م وأعيد إعماره وترميمه ثانية في العهد المملوكي زمن السلطان قايتباي، العارف، **تاريخ القدس**، ص٩٢؛ نجم، كنوز القدس، ص ١٠٨.

(٩٥) المقريزي، **السلوك**، ج٣، ص١١٣.

(٩٦) ابن الفرات، ناصرالدين محمد بن عبدالرحيم، (ت ٧٠٨هـ/ ١٤٠٤م) **تاريخ الدول والملوك أو تاريخ ابن الفرات**، ج٩، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عزالدين، المطبعة الأمريكية، بيروت، ١٩٣٦-١٩٤٢م، ج٩، ص٨٩، وسيشار إليه فيما بعد، ابن الفرات، تاريخ؛ ابن قاضي شهبه، **تاريخ**، ج٣، ص٤٠، ١١٧؛ ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ج٣، ص٣٤١؛ ابن إياس، محمد بن احمد، (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م)**بدائع الزهور في وقائع الدهور**، حققها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى، دار النشر فرانز ستاينر، فيسبادن، ١٩٧٥م، ج١، ق٢، ص٥٣٣، وسيشار إليه فيما بعد، ابن إياس، بدائع الزهور

(٩٧) المقريزي، **السلوك**، ج٥، ص٤٤٧؛ ابن الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج١، ص٥٠٢.

(٩٨) سبيل شعلان: سبيل يعود للفترة الأيوبية بناه الملك المعظم عيسى بن العادل سيف الدين أبي بكر الأيوبي عام ٦١٣هـ/ ١٢١٦م، ويتكون من بناء مربع الشكل وفيه بئر للماء لتزويد السبيل بالماء. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، نشر محمد عبدالحميد، القاهرة، ١٩٤٨م، ج٣، ص٤٩٤، وسيشار إليه فيما بعد، ابن خلكان، **وفيات الأعيان**؛ ابن العديم، كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبةالله، (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م)، **زبدة الحلب في تاريخ حلب**، عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه سامي الدهان، المعهد

الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥١-١٩٥٤، ص٤٦٧، وسيشار إليه فيما بعد، ابن العديم، زبدة الحلب؛ العارف، قبة الصخرة، ص٢١٢؛ نجم، كنوز، ص١٣٣.

(٩٩) المقريزي، **السلوك**، ج١، ص٣٠٥؛ العارف، **تاريخ القدس**، ص٩٦.

(١٠٠) العسلي، **من أثارنا في بيت المقدس**، جمعية عمال المطابع الأردنية، عمان ١٩٨٢م، ص٢٢٣، وسيشار إليه فيما بعد، العسلي، من أثارنا؛ جمعية برج اللقلق المجتمعي، بإشراف مؤسسة التعاون، ٢٠٠٣م، ص٩، وسيشار إليه فيما بعد، جمعية برج اللقلق.

(١٠١) سبيل البصيري: يتكون من بئر للماء أُقيم فوقه غرفة مربعة وفي أسفلها صنابير للماء لتسيله للمحتاجين. نجم، كنوز القدس، ص٢٨٣-٢٨٤.

(١٠٢) ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ٣٩، ٥٥، ١٩٢، ٢٠٤؛ العارف، **المفصل**، ص٢٠٨؛ الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج١، ص٢٧٩، ٢٨٥.

(103) van Berchemm Cropusin scriptionum, jersalam,ville, (lecaire:1922)ii, 139.

(١٠٤) العارف، **تاريخ القدس**، ص٩٧-٩٨.

(١٠٥) دولات باي الجراكسي المحمودي الساقي المؤيدي احد أمراء العشرات ورأس نوبة باستقراره أمير خور توفي سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٣٧.

(١٠٦) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٩٩، ٢٦٥، ٢٨٥؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٣، ص١١٢؛ العارف، تاريخ القدس، ص٩٨،٩٧.

(١٠٧) العارف، **المفصل**، ص٢١١.

(١٠٨) الأمير قانصوه اليحياوي: تولى نيابة صفد في ٢٥ محرم ٩٠٥هـ/ أيلول ١٤٩٦م وبقي فيها إلى أن تم نقله منها إلى حجوبية دمشق في ١٢ ذي الحجة سنة ٩٠٦هـ/ تموز ١٥٠١م. ابن طولون، **مفاكهة الخلان**، ق١، ص٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٣، وله **أعلام الورى**، ص٩٩.

(١٠٩) العليمي، **الأنس الجليل**، ج٢، ص٢٨٤، ٣٣٠، ٣٣١.

(١١٠) المدرسة الأشرفية بناها في الأصل الأمير حسن الظاهري بالقرب من باب السلسلة باسم السلطان الظاهر خشقدم، وبسبب وفاة الأخير توسل الأمير حسن من الأشرف قايتباي فتقبلها وسماها الأشرفية. العليمي، **الأنس الجليل**، ج٢، ص٢٨٤، ٣٣٠، ٣٣١؛ العارف، **المفصل**، ج١، ص٢١٣، ٢٥٤، ٢٥٥.

(١١١) العليمي، **الأنس الجليل**، ج٢، ص٣٦.

(١١٢) العليمي، **الأنس الجليل**، ج٢، ص٣٣٠؛ ابن شاهين، عبدالباسط بن خليل، (ت ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م)، **نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين**، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٧٨م، ص١٤٥، ١٤٦، وسيشار إليه فيما بعد، ابن شاهين، نزهة الأساطين

(١١٣) العثمانية: تقع بباب المتوضأ في الجهة الغربية من ساحة الحرم القدسي بالقرب من سبيل قايتباي، أوقفتها السيدة اسفهان شاه خاتون بنت محمود العثمانية في بيت المقدس عام ٨٤٠هـ/ ١٤٣٧م. العليمي، **الأنس**

**الجليل**، ج٢، ص٣٦؛ العارف، **المفصل**، ج١، ص ٢٥٤.

(١١٤) العليمي، **الأنس الجليل**، ج٢، ص٢٨٤؛ نجم، كنوز القدس، ص ٣١١؛ قعقور، فداء محمد احمد، **الأسبلة المائية في العمارة الإسلامية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة، النجاح، نابلس، ٢٠١٠م، ص٣٩، وسيشار إليه فيما بعد، قعقور، الأسبلة المائية.

(١١٥) تنكز بن عبدالله الحسامي الناصري، الأمير سيف الدين نائب الشام، جلبه الأمير علاء الدين السيواسي، واشتراه الأمير لاجين وبعد وفاته منحه الملك الناصر إمرة عشرة، ولما عاد الملك الناصر للملك ولاه نيابة الشام عام ٧١٢هـ/ ١٣١٢م، وأقام بها مدة ثمانية وعشرين عاما وتوفي عام ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م، ج٤، ص١٥٦، ١٦١.

(١١٦) المقريزي، **السلوك**، ج٢، ص٢٨٩؛ الزاملي، **أوقاف القدس**، ص١٤٧.

(١١٧)المدرسة التشتمرية: أوقفها الأمير تشتمر السبفي عام ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م وهي غير المدرسة الطشتمرية التي بناها طشتمر العلائي ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م. العارف، **المفصل**، ج١، ص٢٤٨.

(١١٨) العليمي، ١٩٩٩م، ج٢، ص٤٣؛ العسلي، كامل جميل، **معاهد العلم في بيت المقدس**، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨١م، ص٢٥٩.

(١١٩) الأمير طشتمر العلائي اللفاف ترقى في المناصب حيث تولى نيابة صفد عام ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م ومن بعدها نيابة حماه إلى أن أصبح دوادار أو نائبا للسلطان عام ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م، انشاء في القدس عام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م المدرسة الطشتمرية التي سميت باسمه. المقريزي، **السلوك**، ج١، ص٣٠٥؛ ابن الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج١، ص٥٠٢؛ العليمي، **الأنس الجليل**، ج٢، ص٤٥؛ قزوح، جلال اسعد ناصر، **المدرسة الطشتمرية في بيت المقدس ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م**، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، م١، بعنوان القدس، عمان، ١٩٧٤م، ص٥٤، وسيشار إليه فيما بعد، قزوح، المدرسة الطشتمرية.

(١٢٠) المدرسة الطشتمرية: تقع إلى الجنوب من الطريق المؤدية إلى باب السلسلة أمر بإنشائها الأمير طشتمر العلائي عام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م واندثرت مع الزمن. المقريزي، **السلوك**، ج١، ص٣٠٥؛ ابن الصيرفي، **نزهة الأنام**، ج١، ص٥٠٢؛ العليمي، **الأنس الجليل**، ج٢، ص٤٥؛ العارف، **المفصل**، ج١، ص٢٥١

(١٢١) المقريزي، **السلوك**، ج١، ص٣٠٥؛ ابن الصيرفي، **نزهة الأنام**، ج١، ص٥٠٢، العليمي، **الأنس الجليل**، ج٢، ص٤٥.

(١٢٢) العارف، **تاريخ القدس**، ص٩٦؛ مقابله، علي أحمد، **المؤسسات الاجتماعية والثقافية في بلاد الشام في العصر المملوكي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٢م، ص١٣٣، وسيشار إليه فيما بعد، مقابلة، **المؤسسات**.

(١٢٣) وثيقة رقم (٧٧) من وثائق المتحف الإسلامي في القدس. غوانمة، يوسف درويش، **تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي**، دار الحياة للنشر والتوزيع، الزرقاء، ١٩٨٢م، ص١٠٩، وسيشار إليه فيما بعد، غوانمة، تاريخ نيابة؛ الزاملي، **أوقاف فلسطين**، ص١٤٨.

(١٢٤) وثيقة رقم (٦٣٦) من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية. صالحية، محمد عيسى، من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨٥م، الحولية السادسة، الرسالة السادسة والعشرون، ص٧٨-٨١.

(١٢٥) **أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين**، تقديم أبشرلي، محمد داوود، مركز الأبحاث للتاريخ، استانبول، ١٩٨٢، ص٨، ٢٧.

(١٢٦) العارف، **المفصل**، ج١، ص٩٢؛ جمعية برج اللقلق المجتمعي، ٢٠١٣م، ص٥.

(١٢٧) الأمير سيف الدين بلبان بن عبدالله البدري تولى نيابة غزه عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م وتوفى عام ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٩، ص٢٦٩؛ عطاالله، محمود علي خليل، **نيابة غزة في العهد المملوكي**، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٦ م، ص٢٧٩، وسيشار إليه فيما بعد، عطاالله، نيابة غزة.

(١٢٨) سدود أو أسدود مدينة تقع إلى الشمال من مجدل، وتتبع إداريا لمنطقة غزة. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١-٢، ص١٩٢؛ عطاالله، نيابة غزة، ص٧٢.

(١٢٩) علم الدين بن سنجر بن عبدالله بن الأمير علم الدين التركستاني، من أعيان الأمراء في الشام توفي عام ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م، ودفن بسفح جبل قاسيون عن عمر الخمسين. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج١٥، ص٣٠٣.

(١٣٠) عطاالله، **نيابة غزة**، ص٢٢٤.

(١٣١) لم أعثر له على ترجمة.

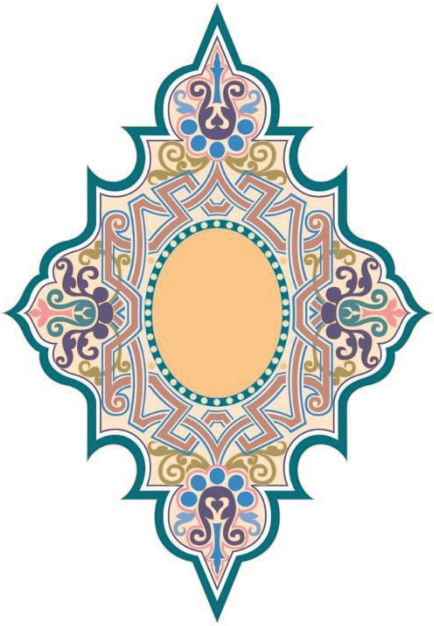
(١٣٢) الشيخ أحمد بن عثمان بن عمر بن عبدالله الحنبلي نزيل عزة وساكنها توفي في صفر عام ٨٠٥هـ/ أيلول١٤٠٢م. ابن حجر، (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)، **إنباء الغمر بأبناء العمر**، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، ١٩٦٧-١٩٦٨م، ج٢، ص٢٤٠، وسيشار إليه فيما بعد، ابن حجر، **إنباء الغمر**؛ الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج٧، ص٤٩؛ عطاالله، ١٩٨٦م، ص٢٢٤.

(١٣٣) لم اعثر له على ترجمة

(١٣٤) العارف، **تاريخ غزة**، ص٣٣٤-٣٤٥؛ عطاالله، **نيابة غزة**، ص٢٣٢.

(١٣٥) لم أعثر له على ترجمة

(١٣٦)عطاالله، **نيابة غزة**، ١٩٨٦م، ٢٤٥-٢٤٦.



# اسهام السلطان سليمان القانوني في التطور العمراني الجديد للقدس ١٥٢٠-١٥٦٦م

د. صالح علي الشورة *

تاريخ وصول البحث: ٦/ ٢/ ٢٠١٥م تاريخ قبول البحث: ٥/ ٨/ ٢٠١٥م


## ملخص

يرصد هذا البحث التطورات العمرانية الجديدة التي حدثت في القدس بأمر من السلطان العثماني سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م بشكل مباشر أو من خلال وكلائه فيها. لذا توقف الباحث عند أهم المنشآت والترميمات الحيوية التي حدثت في الفترة المبحوثة وهي سور القدس، وقلعة القدس، وقبة الصخرة، وقبة السلسلة، وأبواب القدس، والعمارة العامرة، والمنشآت المائية. ويبرز في عملية الإعمار النمط العسكري العثماني الذي ساد في بلاد الشام في تلك الفترة، الأمر الذي انعكس على الهوية المعمارية للمدينة، ولم تهدف أعمال البناء التي أمر بها السلطان سليمان بالدرجة الأولى إلى تحديث القدس فحسب، بل تعدتها إلى تجديدها مع مراعاة خصائص العمارة التقليدية المحلية.


كلمات مفتاحية: القدس، إعمار القدس، السلطان سليمان القانوني.


## Abstract

This article tracks the new architectural developments, which were ordered to take place in Jerusalem either directly by Sultan Suleiman the Magnificent or by the order of his representatives in the city during the period 1520-1566. The researcher has discussed the main constructions and the vital repairs which were achieved during that period. These constructions and repairs include: Al-Quds' Wall, the Castle, the Dome of the Rock, the Dome of al-Silsila, al-Quds' Gates, *al-'Imarah al-'Amirah,* and water constructions. The article also shows how the Ottoman military style is manifested in these repairs, which was also dominant in *Bilad el-Sham* "Greater Syria" in that period. This style was reflected on the city's architectural nature taking into account that those constructions which were ordered by the Sultan did not only aim at modernizing al-Quds, but also at renewing it with the preservation of its traditional local features.


**Keywords**: Al-Quds, al-Quds' constructions, Sultan Suleiman the Magnificent.

* أستاذ مساعد، كلية الآداب والعلوم، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

**المقدمة:**

قبل الشروع في الحديث عن إعمار السلطان سليمان القانوني في القدس لا بد من التعريف به: هو السلطان سليمان بن سليم الأول، وترتيبه العاشر بين سلاطين الدولة العثمانية. تولى الحكم سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م، حتى وافاه الأجل سنة ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م.[١] كان رؤوفاً مشفقاً على الرعية، مستقيم الدين، صادق الاعتقاد من جهة، وجسوراً مقداماً فاتحا من جهة أخرى، فقد بلغت فتوحاته قلب أوروبا حتى لقبه الأوروبيون بـ "سليمان العظيم"، ولكن أهم لقب، التصق به هو "القانوني، لأنه اكتملت في عهده كل قوانين الدولة[٢].

وليس هناك من شك، بأن السلطان سليمان القانوني أولى كل الرعاية لمكة والمدينة والقدس عملاً بالحديث الشريف "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد"[٣]، وكان لمدينة القدس رعاية خاصة من إجراء لإصلاحات وترميمات داخل المدينة دعت إليها أمور عدة، ومنها:

اتساع المدينة وزيادة عدد السكان، حيث تفيد إحصاءات دافعي الضرائب بأن فترة حكم السلطان شهدت نمواً متزايداً بشكل مضطرد في عدد سكان القدس، وهي التي كانت تضرب على نفسها شبه عزلة لا تمكنها من استقبال مريديها، ومحبيها، فبينما كان عدد ساكنيها لا يتجاوز ٤ آلاف نسمة عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م ارتفع العدد إلى حوالي ١٣ ألف نسمة عام ٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م[٤]. إن ارتفاع عدد السكان إلى ثلاثة أضعاف خلال ثلاثين عاماً، يعدّ مؤشراً على الجاذبية الجديدة للمدينة، التي نتجت بشكل رئيسٍ عن برنامج تطوير واسع النطاق أمر به السلطان سليمان. علماً بأن زيادة عدد السكان كانت مضطردة بالنسبة لسكانها من المسلمين[٥] وقد تمت عملية التحول مراعية لأسلوب الفن المعماري الإسلامي وبخاصة المدرسة الحلبية في أوائل القرن الخامس عشر للميلاد المتمثل في الأفاريز المسننة التي تستخدم في زخرفة الأبواب والأقواس والنوافذ بالإضافة إلى الأقواس والقباب التي تميز بها هذا الفن، ويورد بشير بركات على لسان أوليا جلبي إن السلطان سليمان هو بحق مجدد للمدينة[٦].

دعت الحاجة لبناء سور جديد للمدينة بدلاً من السور الذي تهدم جراء الحروب، وتقلبات الطقس سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م[٧] وضرورة المحافظة على الأماكن المقدسة في المدينة، فقد تم ترميم قبة الصخرة المشرفة وتطعيمها بالقاشاني[٨]، كما تم ترميم باقي

أماكن الحرم القدسي الشريف، وقبة الصخرة، وأبواب القدس الشريف، وإنشاء أسبلة لتزويد المدينة بالمياه، وأشرف من خلال وكلائه على رغبة زوجه بإعمار العمارة العامرة، وكل ما يتعلق بها". وهذا ما يؤكده "ميشيل ماينكه" حينما يقول: "رمم السلطان سليمان خان، القدس وحصنها، وحدد بناء سورها القائم حتى اليوم، وفتح له أبواباً كبيرة، وبنى المدارس، وشيد المساجد ورمم ما كان قد اندثر منها"[٩].

أما السبب المباشر للعناية بالقدس من قبل السلطان سليمان كما يشير الرّحالة أوليا جلبي الذي زار القدس سنة ١٠٨٢هـ/ ١٦٧٢م بأن السلطان سليمان رأى في المنام النبي محمد ﷺ في ليلة من ليالي رمضان، وأمره فيما يتعلق بالقدس بأن يحصن قلعتها ليصد الكافرين عنها، ويزين حرمها بحوض للماء، وأن ينفق على فقرائها، وأن يزين صخرة الله، ويعيد بناء مدينة القدس"[١٠] وفي اليوم التالي لحلم السلطان، أرسل من فوره صرة إلى القدس، ونقل مصطفى باشا من ولاية مصر إلى ولاية الشام ليشرف على ترميم القدس، فقام الأخير بحشد جمع غفير من البنّائين والمهندسين والنحّاتين في القاهرة ودمشق وحلب وأرسلهم إلى القدس[١١]، حتى بات زائر القدس إبان حكم السلطان سليمان القانوني يسمع في الصخور الصم صليلاً وزجلاً، وكان من أهم الترميمات التي قام بها السلطان في القدس هي:

**سور القدس:**

اتسعت مدينة القدس إبان حكم السلطان سليمان، فبعد أن كانت القدس مدينة صغيرة مربعة الشكل لا تتجاوز مساحتها المسورة: سبعمائة ألف متر مربع، اتسعت لتضم حارات امتدت خارج السور، وتخوف الناس من تجدد الهجمات الصليبية، مما حدا بالصدر الأعظم أن يتحسب لما هو قادم، فأصدر من فوره قراراً بإعادة بناء السور من الجهة الغربية والجنوبية، والذي تمّ من خلاله اختتام مرحلة حاسمة من التاريخ الإسلامي في المدينة[١٢]. علماً بأن سور القدس قديم، منذ عهد اليبوسيين الكنعانيين، ولكن السور الذي جدده السلطان سليمان هو بقايا السور المتهدم الذي شيده الأيوبيون أي الذي كان موجوداً في العصور الوسطى[١٣] وقد أُوكل السلطان النظر على بناء السور للأمير "بيرام جاويش" الذي لجأ بدوره إلى القاهرة للتعاقد مع أصحاب الخبرة لبناء

السور، فتم الاتفاق على ذلك لقاء عشرة آلاف قطعة عثمانية [١٤] وبدأت التبرعات تنهال من شتى أرجاء فلسطين في شهر رجب من عام ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م لتستمر حتى شهر ذي القعدة من عام ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م[١٥]. ويمكن تحديد خطوات بناء السور البالغ طوله أربعة كيلو متر، يشمل سور الحرم الجنوبي وزاويته الجنوبية الشرقية، وسور القلعة في الجهة الغربية بناءً على النقوش الثلاثة عشر المنتشرة على جوانب السور، حيث بدأ البناء في الجزء الشمالي الغربي سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م. وقد ظهر فن العمارة العسكرية العثمانية بشكل واضح في بناء السور، من حيث طريقة الحراسة والمراقبة، ووجدت فيه طاقات يصب منها الزيت المغلي لدفع الأعداء، وفيه فتحات صغيرة لرمي السهام، وله أربعة وثلاثون برجا.[١٦] كما تشير ثلاثة نقوش كتابية كانت تنطلق من الاعتراف بفضل هذا السلطان في تعمير القدس، نقشت على باب العامود، حين انتهى بناء السور مع اكتمال بناء الجزء الجنوبي سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م، ومن هذه النقوش: (أمر بإنشاء هذا السور المبارك مولانا السلطان سليمان بن سلطان سليم خان بتاريخ سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة) وعلى جهة أخرى (أمر ببناء هذا السور المبارك مولانا السلطان سليمان بن سليم خلد الله ملكه بتاريخ شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين وتسعمائة)[١٧].

بلغ ارتفاع سور القدس حوالي ١٢,٥-١٣,٥م، في حين يزيد عرضه في بعض الأماكن على المترين. أما بالنسبة لطول السور فهو يختلف من جهة إلى أخرى حيث يبلغ في الناحية الشمالية منه ما يقارب ١٣٠٠م، ومن الجهة الشرقية: ٩٢٠م، أما من الناحية الجنوبية فقد كان ١٠٨٠م، ومن جهته الغربية وصل طوله ٦٩٥م[١٨].وقد تم الانتهاء من بناء السور سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م، وكان محمد جلبي باشا الذي كان أميناً على الأموال السلطانية وعلى عمارة السور، هو المشرف والأمين على بناء كامل السور، والمتصرف بالأموال السلطانية التي رصدت لأعمال البناء[١٩].بني وأعيد ترميم خمسة وثلاثون برجاً للمراقبة في السور، ولكن بعض الأبراج لم يكتمل بناؤها. ويعد برج اللقلق أجملها، الذي يتكون من طابقين من البناء، حيث إن الطابق الأول عبارة عن غرفة شبه مربعة، أما الثاني فهو عبارة عن ساحة مكشوفة تحيط بها نهايات ارتفاع سور

القدس من الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية[٢٠]. ويعتقد بعضهم أن التسمية جاءت من أحد القادة الصليبيين، واسمه "غوطفرد" الذي اقتحم السور سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، وكان يتخذ من اللقلق رمزاً له[٢١] وتبرز هذه الأبراج من السور لكي تعطي أفضل مجال للرؤية للحراس، وذلك للمراقبة وللدفاع عنه، ويكون علو هذه الأبراج ثلاث طبقات، استخدمت الطبقة السفلى منها مخازن واسطبلات للخيل، وجعلت الوسطى مسكنا للحراس، أما الطبقة العليا فاستخدمت للحراسة[٢٢].

ظلت مدينة القدس طوال ثلاثة قرون تغلق أبوابها على ساكنيها بعد الغروب، والذي يتأخر عن هذا الموعد فعليه أن يبيت ليلته خارج أسوار المدينة[٢٣].

**قلعة القدس:**

كان هم السلطان سليمان هو إعادة تفعيل النظام الدفاعي في المدينة، وهو ما وجده في تجديد بناء القلعة الخربة الواقعة في الجهة الجنوبية منها، فتم ترميمها سنة ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م. بعد أن تصدعت مبانيها وأصبحت آيلة للسقوط في القرن التاسع هجري/ الخامس عشر ميلادي[٢٤]، كما أضيف ممر شرقي للقلعة حتى وقفت القلعة شامخة كما كانت[٢٥]. وقد جاءت فكرة ترميم القلعة تزامنا مع انتهاء جمع الأموال من المتبرعين وهي التي شكلت الأموال الدفعة الأولى التي أعطيت للجلبي للمباشرة بأعمال الترميم[٢٦]. وكان بناء القلعة يحاكي القلاع التي بنيت في عهد الدولة المملوكية خاصة السائدة في دمشق، وإن دل هذا على شيء إنما يدل على أن السلطان سليمان قد سيطر على ميراث المماليك[٢٧] من خلال هذا الترميم، ويتضح هذا الأمر في النقوش التي وجدت على القلعة وهي تحاكي المصطلحات المملوكية كمثل "السلطان سليمان عز نصره، ومولانا السلطان الملك المظفر أبو النصر سليمان شاه"[٢٨] كما وجد في القلعة أبراج للمراقبة عددها خمسة، وكان أكبرها برج داود الذي يقع في الجهة الشمالية الشرقية منها[٢٩].

تمّ نقش اسم السلطان سليمان على البوابة الجديدة ليبين الهدف من بناء القلعة، ألا وهو توفير الأمن لأهالي القدس. ووجد نقش آخر يشير إلى اسم السلطان سليمان كصاحب فضل في إعادة بناء القلعة جاء فيه: "أمر بترميم الحصنة الشريفة السلطان الأعظم والخاقان المعظم، مالك رقاب الأمم....السلطان ابن عثمان سليمان

الثاني"[٣٠]. ويرجح صاحب كتاب المفصل في تاريخ القدس، أن المقصود بسليمان الثاني هو سليمان القانوني نفسه، وهذا من باب التواضع على اعتبار أن سليمان الأول هو سليمان بن داود عليه السلام[٣١]، كما وأضيف لمسجد القلعة مئذنة مستديرة سنة ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م، فوق البرج الجنوبي للقلعة تتألف من ثلاثة طوابق حجرية[٣٢]. ومن اللافت للنظر تلك النافذة الصغيرة المستديرة التي تُطِلّ من المئذنة على الساحة الداخلية من الجهة الشمالية، حيث يشير إطارها العريض إلى عنصرٍ من عناصر العمارة المملوكية[٣٣].

**قبة الصخرة المشرفة:**

لقد استأثرت قبة الصخرة بأول أعمال البناء الضخمة التي أنجزها السلطان لأنّها المبنى المركزيّ المقدس، فقد أجريت ترميمات عدة على القبة المشرفة سنة ٩٥٥-٩٦٩هـ/ ١٥٤٩-١٥٦٢م[٣٤]، وقد كتب المعلم النقّاش عبدالله التبريزي الذي عينه السلطان ليشرف على زخرفة القبة[٣٥]، نقشاً يشير إلى أن الترميم حدث في عهد السلطان سليمان، ومما جاء فيه" جدد بحمده قبة الله من الصخرة ببيته المقدس... في ظلال السلطان الأعظم أبي الفتوحات سليمان خان....."[٣٦]. وقد تم تلبيس القبة المشرفة بالقاشاني الذي جيء به من الأستانة سنة ٩٥٥هـ/ ١٥٤٩م وقد اشتملت أول دفعة على (٣٤٥٤) لوحا قاشانيّا منها (١٧٤٧) لوحا ملونا تسلمها "فتح الدين بن ميرك جان" الناظر الشرعي على تلبيس القبة بالقاشاني[٣٧] ثم أُتي بألواح القاشاني تباعاً، وتم تخزينها في إحدى غرف القبة النحوية.[٣٨]

أنفق على هذه الترميمات أموال خصصت لهذه الغاية من أموال الخاص الشريف السلطاني من دمشق، وجبل نابلس، والقدس، والرملة، حيث يرد في السجلات الشرعية أن بيرم جاويش تسلم (٨٨٢٥٧) أقجة[٣٩] سنة ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م، لصرفها على أعمال عمارة القاشاني[٤٠]، كما وجد نقش في القبة المشرفة يؤرخ لعملية الإعمار هذه كتب عليه: "...أمر بتجديد هذا الكاشاني المقام الشريف السلطاني مولانا السلطان سليمان بن سليم ...في تسعة وستين وتسعماية."[٤١] استمرت عملية البناء والترميم إلى ما بعد سنة ٩٦٩هـ/ ١٥٦٢م فقد أمر السلطان سليمان القانوني بتجديد ثلاثة من أبواب القبة المشرفة التي تم تصفيحها بالنحاس الذي تم إحضاره من عاصمة الخلافة آنذاك، ومن عدة قرى من أعمال مدينة الرملة والقدس

سنة ٩٧١هـ/ ١٥٦٤م [٤٢]. وتم تجديد النوافذ الزجاجية في قبة الصخرة في عـام ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م[٤٣]. ويقول ماينكه: إنّ ترميم قبة الصخرة على يد السلطان سليمان الذي استغرق ما يقرب من أربعين عاما قد دفع أوليا جلبي إلى كتابة الملاحظة الآتية: (ولما كان السلطان العثماني في هذا الزمان هو أكثر حكّام العالم تشريفاً واحتراماً... فقد جعل من هذا الصرح جنّةً لا مثيل لها على الأرض ... لأنّ السلطان وحده هو القادر على أنْ يكون مالكاً لبيت الله)[٤٤].

**قبة السلسلة**:

إحدى قباب المسجد الأقصى المبارك، تقع على بعد ثلاثـة أمتـار من الباب الشرقي لقبّـة الصخرة المشرفة، في قلب صحن المسجد الأقصى، وكانت قد بنيت بأمر الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان قبل قبة الصخرة، ويرجح البعض أنها بنيت كنموذج لبناء قبة الصخرة بين عامي ٦٥-٦٨هـ/ ٦٨٥-٦٨٨م، وقد اتخذها الخليفة سليمان بن عبد الملك مجلساً له ينظر فيها أمور الرعية، كما استخدمت فيما بعد مقراً للعلم والعلماء للتعليم والسماع، واستخدمت أيضاً للصّلاة والتعبّد. أما تسميتها، فيقال إنها أخذته من سلسلة حديدية كانت تتدلى في وسطها، ولكن لا دليل على ذلك، وللقبة أحد عشر ضلعاً، ومحراب واحد في جنوبها جهة القبلة، وتستند هذه الأضلاع إلى أحد عشر عموداً رخاميّاً، وفي وسطها ستة أعمدة أخرى تحمل رقبة مغلقة سـداسيّة، تعلوها القبة.[٤٥] تم في عهد السلطان سليمان استبدال فسيفساء قبة السلسلة بالقاشاني، وأضيف إلى البناء القديم محراب زين بالقاشاني أيضا[٤٦] سنة ٩٦٩هـ/١٥٦٢م وقد وضع فخر الدين بن فضل الله معلم كاشي (قاشاني) قبة السلسلة في إحدى زوايا المسجد الأقصى (١٥٦٠) لوحا قاشانيا يبلغ ثمن كل لوح منها ثلاث قطع فضية، و(٣٣٠) لوحا آخر، قيمة كل لوح منها: ثلاثون قطعة فضية.[٤٧] ويوجد فوق محرابها نقش فسيفسائي مكوّن من سطرين ويبلغ طوله حوالي ثلاثة أمتار، وينصّ على أنّ قاشاني الفسيفساء تم تجديده بأمرٍ من السلطان سليمان عام ٩٦٩هـ/١٥٦٢م. ويتكـوّن بلاط النقش من كتابةٍ باللون الأبيض على أرضية بنية غامقة يعلوها زجاج شفاف، وهي تطابق من الناحية الفنية، فسيفساء باب قبة الصخرة الشمالي.[٤٨] كما أعيد تجديد "قنطرة ميزان" وهو الاسم الذي أطلق على القنطرة الغربية الشمالية في صحن قبة الصـخرة في أواخـر ولايـة السـلطان سليـمان سـنة ٩٧٤هـ/ ١٥٦٧م.[٤٩]

**باب الأسباط:**

هو الباب الذي يفتح على الحرم القدسي الشريف من الجهة الشمالية الشرقية، ويقع في سور القدس الشرقي وهو الباب الوحيد المفتوح في هذا الجدار، تم ترميمه سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م، واستعملت في إعادة بنائه حجارة خان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧م)، بعد أن قام البناؤون بهدمه سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م). شارك في ترميم سور المدينة القديمة فريق من معماريين محليين ووافدين من مدينة حلب، كما وجد على جانبي الباب نقش لأسدين نافرين أحضرا من بقايا حجارة خان الظاهر بيبرس الذي أقامه إلى الغرب من بلدة القدس القديمة[٥٠]، وهناك نقشان على الباب أحدهما باللغة العربية ومما جاء فيه: "أمر بانشاء هذا الباب مولانا السلطان سليمان...بتاريخ سنة خمس وأربعين وتسعماية" والآخر بالتركية يفيدان بأن السلطان سليمان القانوني أمر بإعادة بناء الباب في مكانه القديم[٥١]. وهذا النقش يتكرر على جميع البوابات التي رممت من قبل السلطان سليمان مع مراعاة الاختلاف في تاريخ انتهاء عملية الترميم. يظهر في واجهة باب الأسباط الكبيرة ميزات وخصائص العمارة العسكرية التي سادت في القرن السادس عشر ميلادي، والتي تنتمي إلى مدرسة العمارة العثمانية مع الإبقاء على بعض تقاليد العمارة المملوكية، وقد بنيت الواجهة من حجارة كبيرة الحجم خاصة المداميك السفلية، وتم فتح باب مستطيل وسط هذه الواجهة متراجعا قليلاً عن مستوى الواجهة.[٥٢]

**باب العامود:**

يقع في الجهة الشمالية من سور القدس، وسمي بهذا الاسم لوجود عامود من الجرانيت الأسود في أعلاه تمثال أدريانوس أو هادريانوس الذي أعاد بناء القدس سنة ١٣٥م[٥٣]، لكنه أزيل من مكانه الذي كان يتوسط الساحة الداخلية وراء الباب، وقد جُدد بناء الباب في موقعه القديم سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤١م، وهو الباب الأكبر لبوابات القدس، وله أسماء عدة أهمها: باب دمشق لكونه معبراً لدخول وخروج القوافل من، وإلى دمشق.[٥٤] يقوم فوق الباب عقد وفوقه برج حجري صغير محمول على عقدين حجريين، وتبرز العمارة العسكرية العثمانية في بناء هذا الباب بشكل لافت.[٥٥] وهناك نقش تذكاري بين العقد والمدخل، يبين اسم السلطان سليمان وألقابه، وسنة تجديد الباب، وجاء في هذا النقش" أمر بإنشاء هذا الباب مولانا السلطان الأعظم

والخاقان المكرّم سلطان الروم والعرب والعجم... سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٣٨م.[٥٦]

**باب الساهرة:**

يقع أسفل برج السور من الجهة الشمالية، وتم فتحه على شكل قوس نصف دائري، وتوجد أعلى الباب طاقة صغيرة للمراقبة، وأعيد بناؤه في موضعه القديم سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م، غير أن البنّائين أحدثوا في الباب قوسا مستديراً على شكل قبو في الجهة الشمالية، وأغلقوا الباب الصغير الذي كان مفتوحاً على الناحية الشرقية لبرج باب الساهرة.[٥٧] يتكون هذا الباب من مدخل وعقد مدبب، وبينهما نقش حجري كتابي تذكاري يبين اسم السلطان سليمان وألقابه.[٥٨]

**باب النبي داوود:**

يقع في المدخل الجنوبي الغربي لمدينة القدس، وقد رمم زمن السلطان سليمان القانوني أيضاً، وهو باب كبير وضخم، ومرتفع[٥٩] ولم يجد الباحث ما يشير إلى الإجراءات الفنية المعمارية التي اتخذت بشأن هذا الباب إلا النقش الذي وجد فوقه والذي يؤكد بأن الترميم حدث عام ٩٤٩هـ/ ١٥٤٢م[٦٠] ويعلو مدخل الباب عقد حجري مدبب، ويوجد نقش كتابي حجري تذكاري بين المدخل والعقد، يبين اسم السلطان وألقابه، وسنة البناء. كما تظهر مميزات العمارة العسكرية العثمانية في هذا الباب من حيث الضخامة، والارتفاع، والبرج الحجري الذي كان يستخدم للمراقبة.[٦١]

**باب الخليل:**

يقع في الجدار الغربي لسور مدينة القدس القديمة، مقابل قلعة القدس. وقد ذكره المقدسي باسم "باب محراب داوود" ويتكون من مدخل، وعقد حجري كبير مدبب، وبينهما نقش كتابي حجري يبين اسم السلطان نفسه وألقابه.[٦٢] وقد تم ترميمه سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م.[٦٣] ويرجح أن فريقاً من معماريين محليين ووافدين من مدينة حلب قاموا ببناء الباب، وهذا الباب كان يستقبل القادمين إلى مدينة القدس القديمة من الغرب والجنوب، لذلك سمي باسم مدينتي الخليل ويافا الواقعتين غرب هذا الباب وجنوبه[٦٤].

**العمارة العامرة أو مجمّع خاصكي سلطان[٦٥]:**

ازدادت حاجة السكان لمياه الشرب باضطراد مع زيادة أعدادهم نظراً لاتساع المدينة، وتهافت الناس عليها من كل حدب

وصوب، فزاد الطلب على إيجاد دور لإيواء وإطعام الفقراء والمحتاجين، وعابري السبيل، وطالبي العلم ممن قصدوا المدينة بغية إذكاء قيمهم الروحية، فأنشئت الأسبلة، والأقنية، والبرك وتم ترميم الدشايش القديمة التي تهدمت، والتكايا والزوايا والحمامات التي كانت تؤوي العديد من حجاج بيت المقدس، بأمر من السلطان القانوني،(٦٦) والدشايش: هي جمع دشيشة وهي طعام مشوي من القمح المرضوض، ويتم طبخها بالماء وقليل من السمن كانت تقدم للفقراء، ثم أصبحت تطلق مجازاً على المطابخ التي تقدم الطعام للفقراء،(٦٧) أما التكايا: فجمع تكية وهي الزاوية التي يتم وقفها لإيواء كل من تقطعت بهم السبل.(٦٨)

## تكية خاصكي سلطان:

تقع في منتصف الطريق الواصل بين سوق خان الزيت وطريق باب الناظر المؤدي إلى الجهة الغربية من القدس. فقد حدّدت وقفيّته المكتوبة باللغة التركية تاريخ الفراغ من تعميره في ٣٠ جمادى الأولى ٩٥٩هـ الموافق ٢٤ أيار ١٥٥٢م، ووصفت ساحته الكبرى وأجنحته وبواباته وغرفه.(٦٩) وقد تم استخدام مرافق المجمع كافة بعد ذلك بخمس سنوات في ١٥ شعبان ٩٦٤هـ/ الموافق ١٣ حزيران ١٥٥٧م.(٧٠) ولهذا المبنى الكبير مدخلان: مدخل شمالي، يقع على طريق عقبة التكية، ومدخل جنوبي يقع على طريق عقبة السرايا. وقد أنشئت التكية في عهد السلطان سليمان القانوني من قبل أقرب زوجاته إلى نفسه وهي خرّم شاه أو كما تعرف ب خاصكي سلطان، زوجة السلطان سليمان القانوني ومنها جاءت التسمية، وهي أول امرأة تبرز بدورها من خلال لقبها كزوجة السلطان، وقد عرف عنها حبها للرعية، وربما كان سبب ذلك أنها كانت جارية قبل ذلك فخالطتهم، وتحسست أوجاعهم. أو ربما بسبب أن القدس والخليل كانتا تحظيان بالاحترام باعتبارهما صنوا الحرمين الشريفين مكة والمدينة، فلذلك فقد بنت خرم شاه في القدس ما كان ينقصها تماماً إذ إنه في الخليل كان يتوفر منذ قرون " سماط الخليل "الذي يوفر الطعام لزوار الخليل. أما القدس التي برزت الآن في هيئة جديدة خلال عهد السلطان سليمان فقد كان ينقصها مثل ذلك لتوفير الطعام إلى العدد المتزايد من زوار هذه المدينة المقدسة، وذلك بعد أن بنت خرّم منشأتين مشابهتين في مكة والمدينة.(٧١) كانت "روكسلانة roxelana"(٧٢) وهو اسمها الحقيقي حينما كانت جارية سلافية، وهو الاسم الذي عرفت به أيضاً

في الكتابات الأوربية، ترافق السلطان سليمان في معظم زياراته للقدس، فأرادت أن توقف تكية تقوم على خدمة الفقراء والمحتاجين، ومدرسة لطلاب العلم، فأسست تكية ومدرسة خاصكي سلطان لهذا الغرض،[٧٣] وكانت هذه التكية تقدم (٥٠٠) وجبة مرتين في اليوم، في الظهر وعند الغروب، وهذا رقم ليس بالقليل إذا أخذنا في الاعتبار عدد سكان القدس في القرن في بداية حكم السلطان سليمان ٤ آلاف ووصل إلى ١٣ ألف طالب مع نهاية حكمه.[٧٤] وكان الطعام المقدم للإفطار هو شوربة بالأرز، وشوربة بالقمح للعشاء. وهما الوجبتان اليوميتان اللتان يعدهما مطبخ العمارة العامرة، وغالباً ما يضاف إليه اللحم في أيام الجمع والأعياد.[٧٥] وكان قاضي القدس هو المسؤول عن تعيين من يقدم الطعام لمستحقيه، وهذا ما يوضحه النص الآتي "قرر مولانا أبو بكر أفندي حامل هذا الكتاب... يقدم في طاسة طعام ورغيفين في كل يوم صباحاً ومساءً من العمارة العامرة[٧٦] كما ألحقت بالتكية مرافق أخرى مثل الحمامات، ودور الرعاية الصحية، والخانات ذوات الإسطبلات وأهمها خان العمارة العامرة ذاتها الذي تصفه السجلات الشرعية بأنه منيف واسع جعل لأبناء السبيل وأصحاب السفر،[٧٧] والدكاكين التي لم يبق من آثارها شيء سوى البوابة الرئيسة المؤدية إلى ساحة مفصولة بدرج عريض ينفذ إلى ساحتين فيهما فرنان حجريان جنوبي، وآخر شمالي، ومطبخ، ويقع المطبخ خلف الفرن الجنوبي الذي ما زال يقدم الحساء للفقراء حتى اليوم، كما يوجد بعض الأواني التي كانت تستخدم للطبخ في المطبخ القديم، ويمكن مشاهدتها في المتحف الإسلامي في القدس في يومنا هذا[٧٨]. استخدم في بناء التكية حجارة الكنائس المتهدمة في ناحية القدس الشريف مثل كنيسة قرية قلونية.[٧٩] وقد قام بذلك البناؤون والنجارون الذين استقدموا من دمشق لهذه الغاية.[٨٠] واكتملت عمارتها في ٢٤ ربيع الثاني ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م وحبست في أواسط شوال ٩٦٤هـ/ ١٥٥٦م.[٨١]

اعتبرت العمارة العامرة ( خاصكي سلطان) أهم مؤسسة خيرية في القدس في ذلك الوقت، وقد ضمت في فنائها مسجداً في أعلى بقعة فيها وقد اكتمل بناؤه سنة ٩٦٤هـ/ ١٥٥٦م.[٨٢] وتم إقامة عمارة في الجانب المقابل للمسجد ضمت مطبخا وفرنا، ومخازن مختلفة أوقفت على الضعفة والمحتاجين، ورباطا للدراويش[٨٣]

يتألف من: خمس وخمسين (٥٥) حجرة للمبيت والمأكل بدون مقابل، وأربع خانات واسعة لعابري السبيل، بالإضافة للمدرسة.[٨٤] ولا غرو أن زيادة السكان في القدس كانت في المسلمين دون غيرهم، لما توفر لهم من أسباب الاستقرار والإقامة.

وقفت عقارات عدة كأوقاف للتكية في مختلف أرجاء فلسطين في الرملة وغزة وبيت لحم، وحتى وجدت أوقاف لها في طرابلس الشام، وذلك لتوفير مورد مالي يمكنها من تقديم الخدمة لمن لجأوا إليها، ثم أوقف السلطان سليمان القانوني أوقافاً إضافية عقب وفاة صاحبة التكية سنة ٩٦٧هـ، وذلك لتتمكن من استمراريتها بتقديم المساعدة لمن يحتاجها.[٨٥] وقد أدار العمارة جهاز إداري مكون من شيخ العمارة وكاتبها، وقد شغلت العناصر الرومية، حنفية المذهب، هاتين الوظيفتين طوال القرن السادس عشر الميلادي، ومنهم الحاج محمد آغا، شيخ العمارة العامرة، ٩٦١هـ/ ١٥٥٥م.[٨٦]

حبست خاصكي سلطان مبالغ ضخمة جدا على التكية حتى بلغت (١٣٣٧٠٥) أقجات وذلك عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٥م.[٨٧]

**حمّاما خاصكي سلطان:**

تم تخصيص مبلغ مالي، من قبل مصطفى الجلبي ناظر الحرمين الشريفين، لبناء حمامين جديدين، كمرافق إضافية لتكية خاصكي سلطان،[٨٨] وتم شراء قطعة من الأرض في حارة الغوانمة لهذا الغرض من قبل فرهاد جلبي متولي وقف العمارة العامرة، وأمينها، بوكالة شرعية عن صاحبة التكية (خاصكي سلطان) بثمن بلغ قدره ثلاثمائة (٣٠٠) سلطاني من الذهب الجديد وذلك سنة ٩٦١هـ/ ١٥٥٥م.[٨٩] قام بأعمال الحمامين معماريون استقدموا من اسطنبول حكرا لهذه الغاية، بلغ عددهم خمسة. وأشرف على أعمالهم فرهاد بن ياسف، وبيرام جاويش.[٩٠] أنجزت أعمال التبليط سنة٩٦٣هـ/ ١٥٥٦م في الحمامين الجديدين، وألبس الشاذروانان[٩١] بالبلاط الرخامي الملون، بمعرفة المعلم خليل بن نمر وأخوه محمود، بتكلفة وصلت إلى خمسة وسبعين سلطانياً ذهباً[٩٢] ولم يغفل عن تزويدهما بالماء حينما أوصلا بماء السبيل القريب من باب القطانين عبر قناة مائية بطول (١٥٠) ذراعاً أنشئت لاستمرار وصول المياه إلى الحمامين دون انقطاع.[٩٣] وقد خصص الحمام الشمالي منهما للرجال، بينما خصص الجنوبي للنساء.[٩٤] وكانا يزودان

بالماء الساخن من خلال بيت نار وجد لهذه الغاية. وكان حمام الرجال يستقبل المستحمين ابتداء من صلاة الفجر وطول النهار.[٩٥] وقد اندثر الحمامان في آواخر القرن التاسع عشر ميلادي وبني في مكانهما بطريركية الأرمن الكاثوليك، وجل ما يشاهد منهما الآن هو بعض الحجارة التي كانت تشكل زينة للحمامات، وأحواض الحمامات.[٩٦]

**تعمير المنشآت المائية:**

كانت مدينة القدس شحيحة المصادر المائية، وكانت تعتمد على جر المياه إليها من القرى المجاورة مثل قرية سلوان، وعلى مياه الأمطار التي يتم تجميعها في الآبار والبرك والصهاريج، كما سحب الماء من "عين العروب" التي تقع بين القدس والخليل[٩٧] إلا أن ذلك لم يكن كافياً لتوفير المياه لسكان المدينة المتزايد أعدادها باضطراد، الأمر الذي حدا بالسلطان القانوني بالاهتمام بتعمير البرك والآبار والصهاريج، وهي الآبار التي تم حفرها داخل منازل القدس داخل السور من قبل السكان لجمع مياه الأمطار وحفر الأقنية والسبل لإيصال المياه لكافة أرجاء المدينة، وخاصة توفير المياه دون انقطاع للحرم القدسي الشريف مع ازدياد أعداد المصلين والزوار الذين قصدوا المدينة آمّين البيت المقدس.

**قناة السبيل:**

هي قناة رومية أنشأها الرومان لرفد مدينة القدس بالماء بطول ٤٧ كم، وتخترق القناة عدداً من الكتل الصخرية الضخمة عبر أنفاق هندسية فنية، وقد تم تحويل مياه العيون والسيول إليها لتغذية الآبار والبرك بالماء، ولكنها دمرت على مر العصور، واختفى جزء كبير منها بفعل عوامل عدة، مثل الحروب، والحت والتعرية، واعتداء بعض قطاع الطرق والعابثين.[٩٨] ولم يكتف السلطان بتعميرها، بل أوقف عليها الأوقاف للإنفاق من ريعها على تعمير القناة والبرك، وقد جرى تعمير القناة والبرك سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م. حيث يذكر الدفتر رقم ٦٠٢ من دفاتر الطابو العثمانية ذلك، وهو مؤرخ في سنة ١٩٣٨م ويشير الدفتر إلى وقف الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار، على القناة وتعميرها زمن المماليك[٩٩] وقد عقد مجلس شرعي سنة ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م في قبة السلسلة، وقرر السيد محمد جلبي النقاش، وشهد على نفسه أنه قد عمّر قناة السبيل من برك سليمان إلى القدس، وقد أوقفها على عامة المسلمين، وعلى أوقاف عامة المسلمين، وأنه عمّر بالإضافة إلى ذلك السبل الواصلة إليها من مياه برك سليمان بوساطة القناة

المذكورة. وأن السيد الجلبي نفسه قد جعل جميع ما أنشأه، وقفاً شرعياً من أوقاف المسلمين العامة وصدقة جارية عن روح السلطان سليمان القانوني، ومنذ ذلك التاريخ نسبت البرك إلى سليمان، وأنه قد وقف على ذلك قرى عدة منها: كفر طاب، ومغلس، وجنداس، وترقومية، ونصف قرية القباب، وغيرها كما هو مذكور في كتاب وقف المدرسة التنكزية. [١٠٠] وكان دخل القناة من الوقف يتراوح بين ٩–١٠ ألف أقجة سنوياً، ثم ارتفع إلى ١٣ ألف أقجة سنة ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م،[١٠١] وأمر السلطان سليمان القانوني بإعادة تعمير الجزء المؤدي إلى مدينة القدس، وتم تعمير البرك والآبار على جانبيها، لتزويد المدينة بالمياه وتم ربطها بأسبلة وشبكات متصلة لإيصال المياه لمختلف أنحاء المدينة[١٠٢].

**برك سليمان:**

كانت تسمى "برك المرجيع"، وهي ثلاثة أقيمت على ارتفاعات مختلفة، وأطلق عليها "البركة الفوقا"، و"البركة الوسطى"، و"البركة التحتا"، ربطت بقناة السبيل، وكانت المياه التي تنساب عبرها تنصب في آبار حفرت في أرض الحرم، وفي الأقنية والشبكات المتصلة، حتى تصل إلى كل بيت.[١٠٣] ويذكر أن السلطان سليمان أوقف عليها حماية خاصة بها، كانت تقيم في حصن صغير الذي تطور فيما بعد ليصبح قلعة عرفت باسم قلعة البرك.[١٠٤]

**أسبلة السلطان سليمان القانوني:**

السبيل هو منشأة مائية أقيمت لتزويد عابري السبيل بالمياه، كان إنشاؤه عادة جارية عند كل الملل منذ القدم، إلا أنها بصفة أكثر كانت عند المسلمين في معظم مناطق الشرق العربي ولا سيما في الجهات قليلة الماء.[١٠٥] توزعت هذه الأسبلة في أنحاء عديدة من مدينة القدس، وهي سبعة أسبلة تم إقامتها في سنة واحدة، سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م، بفرمان من السلطان القانوني[١٠٦] باستثناء سبيل قاسم باشا الذي أنشىء سنة٩٣٠هـ/ ١٥٢٠م وقام بإنشائها للتغلب على النقص الحاصل للمياه خصوصا في فصل الصيف، وربطها بشبكة من القنوات المتصلة بقناة السبيل وبرك سليمان[١٠٧].

**سبيل باب الناظر:**

هو واحد من سبعة أسبلة أقيمت بأوامر من السلطان سليمان القانوني، ويتكون هذا السبيل من بناء مستطيل الشكل، يقع بالقرب من رباط بيرم جاويش[١٠٨]، الذي أنشىء في شهر رمضان سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م بأمر من

الباب العالي عند إلتقاء الطريق المؤدي إلى باب الناظر بطريق الواد من الناحية الشمالية، وصفه "فإن برشم van berchem في مطلع القرن المنصرم بأنه لوحة من السحر والجمال، ويحيط بالسبيل عامودان صغيران مرصعان بتاجين لاتينيين، ويقع فوق الفتحة قوس مطعمة بزخارف لاتينية، كما يوجد في وسط الواجهة نقش من ثلاثة أسطر كتبت بخط النسخ العثماني يفيد بأن السلطان سليمان القانوني هو من أمر ببنائه، ويبين تاريخ البناء،[١٠٩] وكان يوجد فيما مضى حوض حجري للماء، إلا أنه أزيل، والسبيل اليوم في حالة سيئة، فقد بهتت معالمه واختفى الماء من صنبوره حاله كحال غيره من الأسبلة[١١٠].

**سبيل بركة السلطان أو سبيل باب الخليل:**

يقع خارج حدود القدس القديمة، ويقع في الناحية الجنوبية الغربية من باب الخليل، وقد تفرد بذلك عن باقي الأسبلة الستة، ومكانه قريب من "جورة العناب" باتجاه باب الخليل، وهو بذلك يقع في منطقة حيوية تستقبل زوار المدينة القادمين من جهتي الغرب والجنوب، وكان متصلاً بالبركة من الناحية الجنوبية، إلى الشمال من طريق القدس إلى بيت لحم.[١١١]

يتكون هذا السبيل كغيره من الأسبلة، من واجهة حجرية بنيت من حجارة بيضاء مشذبة ذات أحجام متنوعة. وهو عبارة عن تخطيط مستطيل يبلغ طوله ٣,٧٠م وعرضه ١,٥م. يقوم في صدر كتلة السبيل حنية يبلغ عمقها ٧١سم وطولها ١,٩م، يعلوها عقد مدبب ينبت من حدرتين تستندان على طرفي جسم الكتلة الحجرية، وفي أسفله صنبور للماء.[١١٢] ويشبه بناؤه باب مسجد صغير كما رسمه "فان برشم"، ويتوسطه لوحة رخامية يبلغ قياسها ٥٥ سم نقش عليها بأن السلطان سليمان الأول أمر ببنائها في العاشر من محرم سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م.

وقد كتب عليها الآتي "أمر بإنشاء هذا السبيل المبارك مولانا السلطان الملك الأعظم والخاقان المكرم مالك رقاب الأمم سلطان الروم والعرب والعجم السلطان سليمان بن السلطان خان خلد الله ملكه وسلطانه بتاريخ عاشر شهر محرم الحرام في سنة ثلاثة وأربعين وتسعمائة"[١١٣] وبني مسجد مقابل السبيل إلا أنه لم يعد له وجود الآن بسبب توسعة الطريق في القرن الماضي. وقد أوكل الاشراف على البناء محمد جلبي النقاش.[١١٤] وقد تحول السبيل اليوم إلى مسرح للحفلات الغنائية على أيدي سلطات الاحتلال[١١٥].

**سبيل باب القطانين:**

يعرف أيضا بسبيل الواد الواقع شرقي طريق الواد بقرب درج العين، ليس ببعيد عن مدخل سوق القطانين الغربي، وإلى الجنوب من المدخل تحديدا، توجد قوس فوق فتحة المياه، ويستند طرفا القوس على أعمدة منحوتة، ويوجد لوح رخامي كتب عليه ما يشهد للسلطان سليمان القانوني بأنه من أمر ببنائه بتاريخ أول شهر رجب المرجب من شهور سنة ثلاثة وأربعين وتسعمائة. يبلغ طول حوض الماء أسفل الفتحة مترين، وارتفاعه ٥٤ سم، وهو مصنوع من الحجر الأحمر الصلب، وتوجد عليه عروق، وتم تغطية وجه الحوض بأقراص ثلاث في اطار مستطيل، ويعتقد أن الحوض كان تابوتا تم نقله إلى السبيل من مكان آخر. وكان يوجد بالقرب من السبيل حمام يدعى "حمام تنكز"، وكانت المياه الواصلة إليه لا تكفي حاجة الحمام، فاستفاد من قربه من سبيل باب القطانين لتعويض النقص الحاصل في المياه [١١٦].

**سبيل باب السلسلة:**

يقع هذا السبيل الذي يتميز بزخرفة معمارية بديعة أكثر من غيره في الميدان الصغير المعروف بساحة باب السلسلة، وهو يقابل الباب من الجهة الغربية. وتشبه واجهة السبيل البوابة المستطيلة، وبأسفلها حوض حجري للماء، يعلوها قوس عليه افريز متعرج،[١١٧] والإفريز: جمعه أفاريزُ: وهو ما أشرف من الحائط خارجًا عن البناء وهو عبارة عن جزءٍ بسيط مزخرف يبيِّن الحِلْية المعماريَّة،[١١٨] وعلى جانبي الواجهة أعمدة مجدولة رفيعة جداً، وفي وسط الواجهة تحت القوس خمس وردات متفتحة لها تسعة برانق (أوراق) بارزة، وكانت في الأصل ١٣ برنقاً، وعلى الجانبين في أعلى الواجهة تاجان بارزان، ويلتف حول الواجهة كورنيش ينتهي بثنية حلزونية من الأسفل،[١١٩] وما يهمنا هنا هو أن تحت الوردات المتفتحة لوحة رخامية تفيد بأن السلطان سليمان القانوني أمر بإنشائها، بتاريخ ثاني وعشرين شهر رجب المرجب من شهور سنة ثلاثة وأربعين وتسعمائة." ويوجد على جانبي الواجهة، في هذه الأيام، دائرتان كتب على اليمنى منهما "وقف" وعلى اليسرى "إسلامي".[١٢٠] وكان هناك حوض للسبيل تحت لوحة النقش، لكنه أزيل أثناء التعميرات التي جرت في القرن العشرين. كما كان هناك حوض مماثل في المدرسة التنكزية المجاورة للسبيل (التي تدعى أيضا المحكمة)،

وقد أخذ هذا الحوض ووضع في متحف اللوفر سنة ١٨٦٦م. ويعتقد أنه كان من قبل تابوتاً، وقد استعمل في الأسبلة كما استعمل غيره من الأحواض في الفساقي التي أنشأها قايتباي. والفَسْقِيَّةُ: حوضٌ من الرُّخام مستدير غالباً، تمجُّ الماءَ فيه نافورة، ويكون في القصور والحدائق[١٢١] كان في مكان سبيل باب السلسلة، فيما يبدو، حوض حل السبيل محلها، ويظهر ذلك من قول مجير الدين العليمي: "إن السلطان قايتباي عمر من جملة ما عمره: السبيل (أي سبيل قايتباي المشهور)[١٢٢] وكان قديماً مكانها حوانيت، ويقابلها من جهة القبلة حوانيت أخرى، فأزيلت الحوانيت من الجانبين وعمّر السبيل، فانتفع به الناس."[١٢٣]

**سبيل باب العتم:**

لا يختلف سبيل باب العتم كثيراً عن غيره من الأسبلة من حيث الشكل. وهو عبارة عن بناء مستطيل الشكل. وضع بأسفله حوض حجري للماء، وقد كان الحوض تابوتا فيما مضى أحضر من موقع آخر، ويمتد طولاً بعرض بناء السبيل.[١٢٤] ويوجد صنبور للماء في منتصف واجهته يقع تحت نقش كتابي تذكاري كتب باللغة العربية على لوح من الرخام، يبين اسم السلطان وألقابه، وسنة البناء.[١٢٥] وهناك نقش آخر باللغة التركية، كتب فوق النقش المشار إليه، وقد ورد فيه ما كتب في النقش المنقوش بالعربية.[١٢٦] وتقوم مجموعة زخرفات فوق ذلك كله. وتتكون هذه الزخرفات من أربعة مداخل جميلة الشكل. وفوق ذلك كله، يقوم عقد مدبب، متموج الشكل[١٢٧].

**- سبيل السيدة مريم (سبيل باب الأسباط):**

يعتبر هذا السبيل هو آخر الأسبلة من حيث تاريخ عمارته، أنشأه السلطان سليمان القانوني في القدس، يقع على الجانب الشمالي من طريق المجاهدين أو طريق (ستنا مريم) على مقربة من باب الأسباط،[١٢٨] لا تفصلهما سوى أمتار قليلة، وتميز بناؤه بالبساطة عن باقي الأسبلة السليمانية الأخرى، ولكنه يشبهها في مظهره العام، ولا توجد زخارف على حوضه ولا على الواجهة عموماً،[١٢٩] أما لوحة التأسيس في وسط الواجهة فقد انتزعت منذ زمن بعيد، في محاولة من قبل أحد السكان المجاورين لإخفاء الوضع القانوني للمبنى بوصفه من عقارات الوقف، ولكن نصها يشبه باقي نصوص اللوحات الأخرى للسبل السليمانية، وهناك لوحة صغيرة أخرى ما تزال مقروءة فوق اللوحة الأصلية، وفيها سطران من الخط العثماني هذا نصهما:

"سلام على روح النبي المطهر أجرت مياها ككوثر." (١٣٠)

كان السبيل يستند سابقاً إلى جدار قديم، هو جزء من بناء ذي طابق واحد، وأصبح يستند إلى جدار بناء جديد نسبياً، مؤلف من طابقين، وهذا البناء الحديث هو في الواقع دير القديسة حنا التابع للروم الكاثوليك، وفي هذا البناء من الجهة الشرقية أيضاً وفي مواجهة سور المدينة يقوم الآن حمام العذراء مريم. ومما هو جدير بالذكر أنه كان هناك قناة تصل إلى سبيل السيدة مريم، تحت الأرض تحمل الماء إليه من قناة السبيل، وكان قسم من ماء هذا السبيل يذهب إلى حمام السيدة مريم، أو حمام باب الأسباط حسب حاجة الحمام وكفايته. (١٣١)

- **سبيل قاسم باشا**:

يقع هذا السبيل بالقرب من ساحة الحرم الشريف على بضعة أمتار من باب السلسلة، وقد أنشىء سنة ٩٣٠هـ/ ١٥٢٧م ويتألف من بناء مثمن تعلوه قبة مصفحة بالرصاص، ويحيط بالبناء مظلة رصاصية، وقد ثبت على الجدران صنابير للمياه محنية، وأمام كل صنبور مقعد حجري للوضوء (١٣٢). ويقع في أرض بناء السبيل، قناة ماء. (١٣٣)

**خاتمة**:

بينت الدراسة أن مدينة القدس شهدت في عهد السلطان سليمان القانوني عهداً من الرخاء والازدهار والسكينة، فأُحكمت أسوارها، وحُصّنت قلاعها، وأُغلقت أبوابها في وجه الغزاة المعتدين، ونعم أهلها بالأمان، فظلوا طيلة قرون ثلاث ينامون وراء أسوار منيعة، كما أُجريت الترميمات الضرورية لأهم معالم المدينة، وأُنشئت التكايا لفقرائها، وعُمرت البرك، وأُصلحت القنوات، وأُقيمت الأسبلة لإيصال مياه الشرب لساكنيها، لتبقى هذه الحقبة الزمنية من تاريخ القدس الطويل شاهدة على عصر مجيد، تستحضر منه ما تقاوم به سياسة تهويد المدينة في محاولات يائسة من قبل سلطات الاحتلال، لطمس معالم أسلمتها، فلم يغفل السلطان سليمان عن تحصين مدينة القدس بترسانة دفاعية للتصدي للغزاة الطامحين الطامعين، الأمر الذي أدى إلى زيادة سكانها من المسلمين، ويكأنه السلطان هب من تحت أطباق رمسه ليستشرف المستقبل فيأبى إلا أن يكون حاضراً يدافع عنها بإسهاماته فيها، فعاش فارساً منصوراً، ومات غائباً معذوراً.

**الهوامش**:

(١) البكري، زين الدين **المنح الرحمانية في الدولة العثمانية**، تحقيق ليلى الصباغ، دار البشائر، دمشق، ١٩٩٥م، ص١٠٤-١٠٥.

(٢) البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٠٤-١٥٠.

(٣) **صحيح مسلم**، ج٧، ص١٥٩.

(٤) ماينكه، ميشيل، **تطوير القدس في عهد السلطان سليمان القانوني**، ترجمة بشير بركات، دار النشاشيبي للثقافة والفنون والآداب، القدس، د.ت، ص١٦.

http://www.dta-isaaf.org

وانظر أيضا السوارية، نوفان، **سكان مدينة القدس الشريف في القرن العاشر هجري/ السادس عشر ميلادي**، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مج٥، ع١، ٢٠١١م، ص٣٣.

(٥) السوارية، نوفان، **سكان مدينة القدس الشريف**، ص٣٣.

(٦) ماينكه، ميشيل، **تطوير القدس في عهد السلطان سليمان** ص١٦، http://www.dta-isaaf.org

بركات، بشير، **القدس الشريف في العهد العثماني**، دار الفكر، أبو ديس، ٢٠٠٢م، ص١٣.

(٧) المقريزي، أحمد بن علي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ١٩٧٠م، ج١، ص٣٢١.

(٨) القاشاني: نوع من الآجر ممزوج بالزجاج، وينسب إلى قرية قاشان الواقعة في إقليم خراسان: انظر غالب، عبد الرحيم، **موسوعة العمارة الإسلامية**، جروس برس، بيروت، ١٩٨٨م. والرفاعي، أنور، **الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية**، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٣م، ص٤٥٦.

(٩) ماينكه، ميشيل، **تطوير القدس في عهد السلطان سليمان القانوني**، ص١٦- ١٧.

http://www.dtaisaaf.org

(١٠) بركات، **القدس الشريف**، ص١٣، لقد قام السلطان سليمان ببناء حوض الماء على شكل كأس، ومن المقنع جداً نسبته إلى السلطان سليمان حيث أنهى طابق الحوض الأصغر حجماً في التكية السليمانية في دمشق والذي تم الفراغ من بنائه عام ٩٦٧هـ/ ١٥٦٠م، انظر: ماينكه، ميشيل، **تطوير القدس في عهد السلطان سليمان** ص٦.

http://www.dta-isaaf.org

(١١) بركات، **القدس الشريف**، ص١٣.

(١٢) ماينكه، ميشيل، **تطوير القدس في عهد السلطان سليمان** ص١١.

http://www.dta-isaaf.org

(١٣) اليعقوب، محمد، **ناحية القدس الشريف في القرن العاشر هجري**، منشورات البنك الأهلي، عمان، ١٩٩٩م، ج٢، ص٤٢٨.

(١٤) سجل محكمة القدس الشرعية، رقم١٠، ص١٠٦.

(١٥) سجل محكمة القدس الشرعية، رقم١٢ ص٤٨٦-٤٨٧.

(١٦) الحنبلي، العليمي، مجير الدين عبدالرحمن، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣. ج١، ص٣٨٣-٣٨٦. العارف، عارف، **المفصل في تاريخ**

**القدس**، المؤسسة العربية، بيروت، ٢٠٠٥م، ص٤٣٢-٤٣٥.

(١٧) العارف، **المفصل**، ص٤٣١. اليعقوب، **ناحية القدس**، ص٤٢٨.

(١٨) العارف، **المفصل**، ص٤٣٢.

(١٩) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ٥، ص٧٨-٧٩. جاويش، سليمان، **التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية**، المكتبة العمومية، بيروت، ١٨٨٧م، ج٣، ص١٣٧-١٣٨.

(٢٠) العليمي، **الأنس الجليل**، ج١، ص٣٨٣-٣٨٤. العارف، **المفصل**، ص٢٦٥.

(٢١) عن لوحة تعريفية علقت على جدار برج اللقلق وما زالت موجودة حتى تاريخ البحث.

(٢٢) عن لوحة تعريفية علقت على أحد أبراج سور القدس.

(٢٣) العارف، **المفصل**، ص٣٠٣.

(٢٤) العليمي، **الأنس الجليل**، ص٥٥.

(٢٥) بركات، **القدس الشريف**، ص١٠.

(٢٦) سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٢، ص٦.

(٢٧) ماينكه، ميشيل، **تطوير القدس في عهد السلطان سليمان** ص٨. http://www.dta-isaaf.org

(٢٨) بركات، **القدس الشريف**، ص١٠-١١.

(٢٩) سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٤٨، ص٧٢.

(٣٠) اليعقوب، **ناحية القدس**، ص٤٤٧.

(٣١) العارف، **المفصل**، ص٣٠٥.

(٣٢) ماينكه، ميشيل، **تطوير القدس في عهد السلطان سليمان** ص٨. http://www.dta-isaaf.org.

نجم، رائف وآخرون، **كنوز القدس**، مؤسسة آل البيت، عمان، ١٩٨٣، ص٣١٣.

(٣٣) ماينكه، ميشيل، **تطوير القدس في عهد السلطان سليمان** ص٨. http://www.dta-isaaf.org

(34) Gulru Necipoglu, **sixteenth century ceramiv tiles, Muqarnas an annual on Islamic art and architectur**e, the age khan program for Islamic architecture,ed; oleg grabar, at Harvard uni and the Massachusetts, volume vii, p137.

(٣٥) البهنسي، عفيف، **العمارة والزخرفة في فلسطين منذ الفتح العربي الإسلامي**، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، ١٩٩٠م، ص٧٩٦.

(٣٦) العارف، **المفصل**، ص٢٦٥. بركات، **القدس الشريف**، ص٥-٦.

(٣٧) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ٢٤، ص٢٧.

(٣٨) **المصدر نفسه**، رقم ٢٣، ص٢٢٣.

(٣٩) أقجة: أو اخشاية، وهي عملة عثمانية فضية تساوي ثلث البارة. انظر: عامر، محمود، **المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية**، مجلة دراسات تاريخية، ع١١٧-١١٨، جامعة دمشق، ٢٠١٢م، ص٣٦٢.

(٤٠) سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٤٤، ص٥٧٧.

(٤١) سجل محكمة القدس الشرعية رقم٢٣، ص٢٠٩

(٤٢) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ٤٤ ص٥٧٧، سجل محكمة القدس، رقم ٤٦، ص١٤٥. والعارف، عارف، **تاريخ قبة**

**الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك ولمحة عن تاريخ القدس**، مكتبة الأندلس، القدس، ١٩٥٥م، ص٩٠.

(٤٣) ماينكه، ميشيل، **تطوير القدس في عهد السلطان سليمان** ص٥. http://www.dta-isaaf.org

(٤٤) **المرجع نفسه**، ص٥.

(٤٥) العليمي، **الأنس الجليل**، ج٢، ص١٨- ١٩.

(٤٦) العارف، **تاريخ قبة الصخرة**، ص٣٥، ٩٢.

(٤٧) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ٢٣، ص٥٠٧.

(٤٨) ماينكه، ميشيل، **تطوير القدس في عهد السلطان سليمان** ص٤-٥. http://www.dta-isaaf.org

(٤٩) غوشة، محمد هاشم، **القدس في العهد العثماني**، منشورات وزارة الثقافة، عمان، ٢٠٠٩، ص١٠١.

(٥٠) العارف، **تاريخ قبة الصخرة**، ص٢١٥. ماينكه، ميشيل، **تطوير القدس في عهد السلطان سليمان** ص١٢. http://www.dta-isaaf.org.

غوشة، محمد هاشم، **بوابات القدس**، مؤسسة شومان، عمان، ١٩٩٢، ص٦١- ٦٤.

(٥١) العارف، **تاريخ قبة الصخرة**، ص٢١٤-٢١٥. ماينكه، ميشيل، **تطوير القدس في عهد السلطان سليمان** ص١٢. http://www.dta-isaaf.org.

(52) Natsheh, Y, **Sabil Birkat Al-Sultan**. In Auld, S. and Hillenbrand, R. eds, **Ottoman Jerusalem the Living City 1517- 1917**, part ii, London, 2000. P.677.

(٥٣) المقدسي، أبو عبدالله محمد، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، ١٩٠٦، ص١٦٨. النابلسي، عبدالغني، **المختار من الحضرة الأنسية**، تحقيق: احسان النمر، ١٩٧٢م، ص٣٥. العارف، **المفصل**، ص٤٣٢.

(٥٤) غوشة، **بوابات القدس**، ص١٩-٣٢. طوطح، خليل، **تاريخ القدس ودليلها**، مطبعة مرآة الشرق، القدس، ١٩٢٢م، ص٦٩.

(٥٥) العارف، **المفصل**، ص٤٣٣، نجم، **كنوز القدس**، ص٣٤٤.

(٥٦) ارن، خالد و توران، سفر، **القدس من خلال الصور في الماضي والحاضر**، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية(ارسيكا)، استانبول، ٢٠١٥م، ص١٧٦.

(٥٧) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ٤٤، ص٥٤.

(٥٨) النابلسي، عبدالغني، **المختار من الحضرة الأنسية**، ص٣٦. العارف، **المفصل**، ص٤٣٢، غوشة، **بوابات القدس**، ص٦٥.

(٥٩) البهنسي، **العمارة والزخرفة**، ص٧٩١.

(٦٠) البهنسي، **العمارة والزخرفة**، ص٧٩١، غوشة، **بوابات القدس**، ص٥١.

(٦١) النابلسي، **المختار من الحضرة الأنسية**، ص٣٦. العارف، **المفصل**، ص٤٣٢.

(٦٢) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص١٦٨. النابلسي، **المختار من الحضرة الأنسية**، ص٣٦.

(٦٣) ارن، خالد و توران، سفر، **القدس من خلال الصور**، ص١٣٠.

(٦٤) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص١٦٨. النابلسي، **المختار من الحضرة الأنسية**، ص٣٦. غوشة، **بوابات القدس**، ص٣٩-٤٠.

(٦٥) تقع في قبة الست طنشق بنت عبدالله المظفرية (ت٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م)، انظر العليمي، **الأنس الجليل**، ج٢، ص٦٤- ٦٥.

(٦٦) بركات، **القدس الشريف**، ص١٧.

(٦٧) اليعقوب، **ناحية القدس**، ص٢٥٣.

(٦٨) البكري، زين الدين، **المنح الرحمانية**، ص١٢٢،١٠٤.

(٦٩) ماينكه، ميشيل، **تطوير القدس في عهد السلطان سليمان**، ص١٤. http://www.dta-isaaf.org.

(٧٠) بركات، **القدس الشريف**، ص١٧.

(٧١) ارناؤوط، محمد، " **تكية خاصكي سلطان' في القدس رمز لمساهمة المرأة في الوقف خلال العصر العثماني**، ١ كانون أول ٢٠١٢م، كما هو متوفر على الموقع: www.alhayat.com.

(٧٢) فتاة روسية الأصل، التحقت ببلاط السلطان سليمان القانوني، لقبها خازن الكسوة بخرّم أي الضاحكة، بعد أن تزوجها القانوني عُرفت بخاصكي سلطان أي محبوبته، انظر: Heyd, Uriel, **Ottoman Dicuments on Palestine 1552-1615**, The Clarendon Press, Oxford, 1960. PP. 139-140.

(٧٣) العسلي، كامل، **وثائق مقدسية تاريخية**، كامل العسلي، عمان، ١٩٨٣م، مج١، ص١٤٥-١٥١.

(٧٤) السوارية، نوفان، **سكان مدينة القدس الشريف**، ص٣٣.

(٧٥) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ٣١، ص٢٢٧. وسجل محكمة القدس الشرعية رقم ٤٨، ص٨٤.

(٧٦) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ٧٩، ص٥٥٥.

(٧٧) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ٢٧، ص١٩.

(٧٨) العسلي، **وثائق مقدسية**، ص١٤٥-١٥١.

(٧٩) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ١٧، ص٤٣٧، و سجل٢٤، ص٦٩.

(80)Heyd, **Ottoman Documents**, P.143

(٨١) سجل محكمة القدس الشرعية رقم٢٧، ص٢٤.

(٨٢) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ٢٧٠، ص١.

(٨٣) الرباط: هو المكان الذي كان يستخدم لحراسة الثغور، وإذا كان داخل المدن فهو يستخدم للتعبد. انظر: اليعقوب، **ناحية القدس**، ص٣٥٠.

(٨٤) سجل محكمة القدس الشرعية رقم٢٧٠، ص١٨-٤٩.

(٨٥) العسلي، **وثائق مقدسية**، ص١٤٥-١٥١.

(٨٦) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ٣١، ص١٠٨، ص٥٣٨. وسجل محكمة القدس رقم٢٧٠، ص٢٢.

(٨٧) اليعقوب، **ناحية القدس**، ج١، ص٢٥٠.

(٨٨) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ٢٦ ص٤٦٨.

(٨٩) سجل محمكة القدس، رقم ٣١، ص٦٣.

(٩٠) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ٣١، ص٢٩٠.

(٩١) الشاذروان: كلمة فارسية معربة، وتعني بركة صغيرة من الماء، يخرج من أسفلها قناة تسمى سلسال. انظر: غالب، عبد الرحيم، **موسوعة العمارة الإسلامية**، جروس برس، بيروت، ١٩٨٨م، ص٢٢٣.

(٩٢) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ٣١، ص٥٠٢.

(٩٣) **المصدر نفسه**، ص٥٠٣.

(٩٤) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ٤٦، ص٧٢.

(٩٥) سجل محكمة القدس الشرعية رقم ٣١، ص١٧٩.

(٩٦) نجم وآخرون، **كنوز القدس**، ص٣٢٤.

(٩٧) أبو رميس، إبراهيم، **قناة السبيل: تاريخها وأهميتها وواقعها**، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، ع١٨، ٢٠١٠م، ص٤٣.

(٩٨) العارف، **المفصل**، ص٤٣٨.

J, Buckigham, **Travels in Palestine through the Countries of Bashan and Gilead East of the River Jordan**. Longman and Brown, London, 1822, Vol I, PP 225- 226.

(٩٩) الحسيني، محمد أسعد، **جذورنا في بيت المقدس**، صحيفة المنار، ١٢ شباط، ١٩٩٦م، ص١٠.

(١٠٠) الحسيني، محمد أسعد، **المنهل الصافي في الوقف وأحكامه والوثائق التاريخية للأراضي والحقوق الوقفية الإسلامية في فلسطين**، ب.ن. القدس، ١٩٨٢، ص١٠٩-١١٠. ماينكه، ميشيل، **تطوير القدس في عهد السلطان سليمان** ص٩. http://www.dta-isaaf.org.

(١٠١) الحسيني، **جذورنا**، ص١٠. ماينكه، ميشيل، **تطوير القدس في عهد السلطان سليمان**، ص٩-١٠. http://www.dta-isaaf.org

(١٠٢) الحسيني، **جذورنا**، ص٤٣٨. ماينكه، ميشيل، **تطوير القدس في عهد السلطان سليمان**، ص١٠. http://www.dta-isaaf.org.

(١٠٣) الحسيني، **جذورنا**، ص٤٣٨.

(١٠٤) أبو رميس، **قناة السبيل**، ص٥٥-٥٧.

(١٠٥) الحسيني، محمود حامد، **الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة ١٥١٧-١٧٩٨م**، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت. ص٥.

(١٠٦) العارف، **المفصل**، ص٢٦٥.

(107) Natsheh, Y, **Sabil Bab al- Nazir**. In Auld, S. and Hillenbrand, R. eds, **Ottoman Jerusalem the Living City 1517-1917**, part ii, London, 2000.PP.689-693

(١٠٨) أنشأه الأمير بايرام جاويش بن مصطفى سنة ١٥٤٠م، انظر سجل محكمة القدس الشرعية رقم١٧، ص١٣٢.

(١٠٩) العارف، **المفصل**، ص٢٦٥.

(١١٠) العسلي، كامل، **من آثارنا في بيت المقدس**، د.ن، عمان، ١٩٨٢، ص٢٧٤-٢٧٦.

(١١١) بركات، **القدس الشريف**، ص١١. البهنسي، **العمارة والزخرفة**، ص٨٢٤.

Natsheh, Y, **Sabil Birkat Al- Sultan**. In Auld, S. and Hillenbrand, R. eds, **Ottoman Jerusalem the Living City 1517-1917**, partii, London, 2000.PP.677-680.

(١١٢) العارف، **المفصل**، ص٣٦٥. نجم، رائف وآخرون، **كنوز القدس**، ص٣٣٤.

(113) Natsheh, Y, **Sabil Birkat Al- Sultan**, part ii, London, 2000.PP.677-680

(١١٤) العسلي، **من آثارنا**، ص٢٧٤-٢٧٦.

(١١٥) www.youtube.com، بركة السلطان في القدس تتحول لمسرح لحفلات اليهود.

(١١٦) العسلي، **من آثارنا**، ص٢٧٤-٢٧٦.

(١١٧) العارف، عارف، **تاريخ الحرم القدسي**، مطبعة دار الإيتام، القدس، ١٩٤٧م، ص٩٩، الدباغ، مصطفى مراد، **بلادنا فلسطين**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٥م. ج٢، ص٨.

(١١٨) قاموس المعاني لكل رسم معنى، **معنى افريز**: http://www.almaany.com

(119) Natsheh, Y, **Sabil Bab al-Silsila**. In Auld, S. and Hillenbrand, R. eds, **Ottoman Jerusalem the Living City 1517- 1917, part ii, London, 2000**.PP.685-688.

(١٢٠) العارف، **تاريخ الحرم**، ص٩٩.

(١٢١) قاموس المعاني لكل رسم معنى، معنى الفسقية: http://www.almaany.com

(122) Natsheh, Y**, Sabil Bab al-Silsila**. PP.685-686

(123) Natsheh, Y**, Sabil Bab al-Silsila**. P. 686.

(124) Natsheh, Y, **Sabil Bab al-Silsila**. PP.686-687

(125) Natsheh, Y, **Sabil Bab al-Silsila**. P. 688.

(١٢٦) العارف، **تاريخ الحرم**، ص٩٩. الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ٢/٨. نجم وآخرون، **كنوز القدس**، ص٣٣٨.

(١٢٧) نجم وآخرون، **كنوز القدس**، ص٣٣٨.

(128) Natsheh, Y**, Sabil Bab Sitti Maryam**. In Auld, S. and Hillenbrand, R. eds, **Ottoman Jerusalem the Living City 1517- 1917**, part ii, London, 2000. PP.698-701.

(١٢٩) العارف، **تاريخ الحرم**، ص٩٩. والعارف، **المفصل**، ص٢٦٥. الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج٢، ص٨.

(١٣٠) العسلي، **من آثارنا**، ص٢٧٦- ٢٧٩.

(١٣١) **المصدر نفسه**.

(١٣٢) البهنسي، **العمارة والزخرفة**، ص٨٢٤.

(١٣٣) نجم وآخرون، **كنوز القدس**، ص٣٣٢.

# التحصين العسكري للثغور الشامية البرية والساحلية في العهد الراشدي

د.حسين علي أحمد محافظة *

تاريخ وصول البحث: ٢٣/ ٦/ ٢٠١٤م تاريخ قبول البحث: ١ / ١٢/ ٢٠١٥م

ملخص

حظيت حدود بلاد الشام المتاخمة لأراضي الدولة البيزنطية المشهورة بالثغور البرية والساحلية باهتمام بالغ ومميز من قبل الخلفاء الراشدين وقادتهم العسكريين، وتجلّت اهتماماتهم بخطط عسكرية دفاعية وهجومية لحماية المدن الثغرية الواقعة على طول خطوط الجبهة مع البيزنطيين الممتدة من أعالي نهر الفرات في الشمال الشرقي من بلاد الشام إلى حدودها الجنوبية الغربية مع مصر.

وتهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على خطط التحصين وتطورها. وقد أوضحت الدراسة أن جوهرها قام على فكرة إعادة بناء أسوار المدن الثغرية القديمة وحصونها وشحنها بالمقاتلين النظاميين في المرحلة الأولى، وفي مرحلة تالية دُعمت بالمتطوعين أو المرابطين؛ لتقويتها لتكون مراكز محصنة في حالتي الدفاع والهجوم.

واستنتجت هذه الدراسة أن خطط التحصين للثغور الشامية ومدنها كانت منظمة وتمت على مراحل متدرجة، فأصبحت خطاً دفاعياً هجومياً متكاملاً، كما استنتجت هذه الدراسة أن العصر الراشدي هو عصر تأسيس مدن الثغور ونشأتها ، كما كان عصر تطورها وقوتها.

الكلمات الدالة: التحصين العسكري، الثغور الشامية البرية والساحلية، العهد الراشدي

**Abstract**

The borders of Greater Syria, which were near by the boarders of the Byzantine state that is known for its land and costal gaps, had received special interest by the Caliphs and their military leaders. Their interests had been illustrated by defensive and offensive military plans to protect

* أستاذ مشارك، كلية اربد الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية.

these lands which were located along the front lines with the Byzantines, extending from the upper Euphrates River in the north-east of Greater Syria to the south-western boarders with Egypt.

This study aims at shedding light on the military fortification plans and their development in the time of the Caliphs. It explains that these plans were based on the idea of rebuilding the walls of the old cities and providing them with fighters of the state in the first phase. At a later phase, volunteers or stationed people were present to strengthen the cities in cases of defense or attack.

This study concludes that the plans of fortification were organized and gradual by becoming a comprehensive frontal defensive line. This study also concludes that the Rashidi era is an era of establishing, developing, and strengthening these cities.

Key words: The military fortification, land and coastal gaps, the Rashidi era

## المقدمة:

تُعد قضية حماية حدود بلاد الشام المشهورة بالثغور[1] البرية والساحلية وتحصينها عسكرياً ضد خطر العدوان البيزنطي عليها إحدى أهم التحديات التي واجهتها الدولة العربية الإسلامية في تاريخ العصر الراشدي والعصور اللاحقة، ونظراً لاستمرار الحرب بين الدولة العربية الإسلامية من جهة، والدولة البيزنطية من جهة أخرى، التي جعلت من الظاهرة الحربية العنيفة هي السائدة بين الدولتين؛ لذلك حرص الخلفاء الراشدون على تحصين الحدود وتقويتها بكل الوسائل الممكنة.

ومن هذا المنطلق تُعد الفترة الراشدية (١١-٤١هـ/ ٦٣٢-٦٦١م) من الحقب البالغة الأهمية في تاريخ الحرب مع الدولة البيزنطية؛ لما شهدته من عمليات تحصين مهمة للثغور الشامية، وتأسيس لنظم الحماية الثغرية وتطورها. من هنا جاءت هذه الدراسة بهدف تتبع خطط تحصين الثغور في العهد الراشدي من خلال دراسة الروايات التاريخية كما أوردتها بعض المصادر التاريخية والجغرافية وغيرها القديمة والحديثة .

ولتسهيل الدراسة وَضَعها الباحث

الحالي تحت العناوين الآتية:

**أولاً: نشأة الثغور:**

ارتبطت نشأة الثغور الشامية ارتباطاً وثيقاً بحركة الفتوحات العربية الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية، وتطورت بتطور خططها ومسار حركتها في مواجهة الدولة البيزنطية، كما اتصلت بالتنظيمات الإدارية والظروف السياسية لدولة الخلافة في العهد الراشدي.

ويستحسن التمهيد للحديث حول الفتوحات بالقول إنها انطلقت في عهد أبي بكر الصديق (١١-١٣هـ/ ٦٣٢-٦٣٤م)، وأنها انطوت على خطة وتنظيم عسكري كفل للجيوش الفاتحة تحقيق النصر على جيوش الدولتين البيزنطية في بلاد الشام والفارسية في العراق[٢].

ومن دراسة روايات بعض المصادر[٣] التي أرَّخت للفتوحات وتحليلها، يظهر أن الجبهة الشامية حظيت باهتمام بالغ من أبي بكر، وأنه طرح خطة شبه مفصلة لفتحها والسيطرة عليها يمكن تلخيصها بالنقاط الآتية:

١- إرسال أربعة جيوش لكل جيش قائد يتولى فتح منطقة جغرافية شامية محددة هي حمص، ودمشق، والأردن، وفلسطين وهي المشهورة بالأجناد[٤].

٢- تتحرك الجيوش منفردة وتتجمع عند الضرورة تحت إمرة قائد أعلى هو أبو عبيدة عامر بن الجراح (ت ١٨هـ/ ٦٣٩م).

٣- التركيز على ضرب تجمعات الجيش البيزنطي وعدم التعرض لحياة السكان غير المقاتلين والحفاظ على ممتلكاتهم وبيئتهم.

وتجسدت الخطة بحركات ومعارك كبرى لعل أشهرها: أجنادين (١٣هـ/ ٦٣٤م)، واليرموك (١٥هـ/ ٦٣٦م)[٥]، التي حسمت الحرب بالمعنى الاستراتيجي مع البيزنطيين، وقررت المصير النهائي لبلاد الشام لصالح المسلمين[٦].

وبغض النظر عن تفاصيل عمليات الفتح، التي أعقبت اليرموك، فإن ما يهمنا الإشارة إليه هو المدى الجغرافي للفتوحات التي استمرت حتى نهاية عام (١٨هـ/ ٦٣٩م) ورسمت المعالم الأولى للثغور الشامية البرية والساحلية.

وبالعودة إلى بعض المصادر، وبخاصة البلاذري (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)[٧]، المشهورة بالروايات الأكثر دقة وتفصيلاً حول خط سير الفتوحات، يمكن القول إن الجيوش الإسلامية الأربعة توزعت في كل أنحاء بلاد الشام لفتح المناطق المخصصة لها، لا سيما باتجاه الشمال والغرب انطلاقاً من منطقة

الجابية[٨] واليرموك ففي الاتجاه الأول، كانت أقصى النقاط التي بلغتها الجيوش في فتوحها تقع عند مجرى نهر الفرات جنوب شرق حلب، وامتدت بمحاذاة سير نهر الفرات المنحدر من سفوح جبال طوروس الشرقية[٩] واتجهت شمالاً وغرباً لتصل إلى مناطق الدروب أو الطرق، التي تعبر جبال اللكام (الأمانوس)[١٠] شمال غرب أنطاكية باتجاه هضبة الأناضول والقسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية .

وتصف بعض المصادر الجغرافية تضاريس المناطق الشمالية لبلاد الشام أنها مناطق سهلية واسعة تتخللها بعض الجبال والأنهار الصغيرة، وتنتشر فيها قرى وقلاع وحصون كثيرة مثل: ملطية (Melitene)، والحدث (Adata)، ومرعش(Marasion)، وغيرها[١١].

ويبدو أن هذه المناطق كانت ترتبط ارتباطاً إدارياً أو عسكرياً بمدن المنطقة الكبرى قبل الفتح مثل: حلب، وقنسرين، وأنطاكية؛ لذلك يذكرها البلاذري[١٢] والطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) [١٣]، على أنها حواضر وأرياف لتلك المدن إلا أنها لم تكتسب أهمية إلا بعدم انطلاق الموجة الثانية من الفتوحات الإسلامية بعد عام ٢٠هـ/ ٦٤٠م ضد الدولة البيزنطية المشهورة بغزوات الصوائف والشواتي، التي ستتحدث عنها الدراسة لاحقاً .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المناطق والمدن بخاصة، نشأ اختلاف بين الجغرافيين المسلمين حول تسميتها بالثغور الشامية أو الجزرية، أي نسبتها إلى بلاد الشام أو الجزيرة الفراتية[١٤]، ولعل اختلافهم ناجم عن تداخل مواقع بعضها غربي الفرات وشرقه، إلا أن غالبيتهم عدوها ثغوراً شامية انطلاقاً من عدّهم نهر الفرات الحد الطبيعي لبلاد الشام من الجهة الشمالية الشرقية[١٥].

أما المناطق الغربية التي فتحتها الجيوش الإسلامية، فهي المناطق الساحلية الممتدة من شمال غرب أنطاكية إلى رفح قرب العريش على الحدود مع مصر[١٦]، وقد أنجزت الجيوش فتح معظم المدن الساحلية مثل: أنطاكية، واللاذقية، وأنطرطوس (طرطوس)، وجبلة، وبلنياس (بانياس)، وعرقة، وجبيل، وبيروت، وصيدا، وصور، وعكا، في حين تأخر فتح طرابلس وقيسارية وعسقلان إلى حوالي عام ٢٠هـ/ ٦٤٠م؛ بسبب مناعة مواقعها وقوة تحصيناتها ودعم الأسطول البيزنطي

لحامياتها[١٧]. وهذه المناطق التي عرفت بالثغور الشامية الساحلية إضافة إلى أجزاء من المناطق المطلة على ساحل البحر الأبيض المتوسط من الجهة الشمالية الممتدة من شمال غرب أنطاكية إلى طرسوس غرباً. وهي المنطقة المشهورة بالأبواب الكيليكية[١٨] أو الطرق التي تعبر الجبال نحو الشمال والمناطق الداخلية من هضبة الأناضول؛ لذلك تطلق عليها بعض المصادر الثغور البرية الساحلية لمواجهتها خط اعتداء جيوش الدولة البيزنطية من جهتي البر والبحر.

ويبدو أن الفاتحين الأوائل عدّواً هذه الحواجز حدوداً مؤقتة مناسبة للدفاع عن بلاد الشام فضلاً عن شمالي العراق بعد فتح الجزيرة الفراتية المحصورة بين نهري الفرات غرباً ودجلة شرقاً عام ١٨هـ/ ٦٣٩م[١٩]، ورأى بعض الدارسين أن هذا العامل الجغرافي ساهم مع عوامل أخرى بشرية مما مر سابقاً يلاحظ أن حركة الفتوحات في موجتها الأولى توقفت عند حواجز طبيعية صعبة الاختراق نسبياً مثل: سلسلة جبال طوروس، وجبال الأمانوس الشاهقة، والبحر الأبيض المتوسط، الذي يسيطر عليه الأسطول البيزنطي، وثقافية مثل: انتشار القبائل العربية وتوطنها، في رسم مواقع شبه ثابتة للثغور مع البيزنطيين من جهة، وتثبيت معالم حدود الأرض العربية الثقافية والسياسية من جهة أخرى[٢٠].

وفي هذا الإطار استنتج بعض الدارسين في دراساتهم حول أسلوب فتح مناطق الثغور البرية والساحلية، أنها اختلفت نسبياً عن فتح المناطق الشامية الداخلية من حيث الصعوبة وعللوها بعوامل كثيرة منها[٢١]:

١- العامل الجغرافي المتمثل بصعوبة تضاريس المناطق الجبلية التي تقوم عليها بعض مدن الثغور البرية، وقربها من مراكز تجمعات الجيش البيزنطي في هضبة الأناضول.

٢- مناعة مواقع المدن الثغرية الساحلية وقوة تحصيناتها وتلقي حامياتها المساعدات من الأسطول البيزنطي .

٣- عدم امتلاك المسلمين أسلحة دك الأسوار والحصون القوية مثل المنجنيق والدبابات، إذ لم تذكر الروايات المبكرة استخدامهم لها على الرغم من معرفتهم بها منذ الفترة النبوية.

وبغض النظر عن مدى دقة هذه الاستنتاجات وغيرها فإن من الجائز القول إن آثار حركة الفتوحات ظلت ترتسم على معالم مناطق الثغور الشامية ومدنها الساحلية بخاصة من حيث عدم الاطمئنان لأمنها واستقرارها؛ لذلك أولاها الخلفاء

وولاة الشام جل عنايتهم وبدأوا باتخاذ التدابير اللازمة لحمايتها.

**ثانياً: نظام الدفاع عن الثغور زمن عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٣م):**

بعد استقرار عمليات فتح بلاد الشام وتطهيرها من بقايا الجيوش البيزنطية المنهزمة اتجه عمر بالتعاون مع ولاة الشام إلى تنظيم الدفاع عن الثغور لمواجهة أي عدوان مفاجئ قد تقوم به جيوش الدولة البيزنطية، ولعل اهتمامه بأمور الثغور إضافة للتنظيمات الإدارية الأخرى ما يفسر زياراته المتكررة لبلاد الشام[٢٢]؛ ليشرف بنفسه على كل خطوة تنظيمية إدارية وعسكرية تتخذ فيها، وقد ظهرت أولى معالم خطته الدفاعية بعد زيارته الأولى عام ١٦هـ/ ٦٣٧م، حينما قدم لتسلم مدينة القدس من أهلها[٢٣]، وتمثلت بإجراءات عديدة مثل :

١- تعيين والٍ خاص بالسواحل الشامية هو علقمة بن مجزز المدلجي؛ وكلف بحماية الساحل الشامي، أي أنه جعل الساحل منطقة عسكرية واحدة مستقلة بقيادتها عن بقية الأجناد الشامية[٢٤].

٢- إعادة إعمار المدن الساحلية وتحصينها بترميم أسوارها، ووضع المناظير والمواقيد على أبراجها لمراقبة الأسطول البيزنطي، والإنذار باقترابه لمواجهته[٢٥].ويبدو أن عمليات إعادة البناء شملت كل المدن الساحلية.

٣- شحنها بالمقاتلين ومنحهم قطائع من المنازل الخالية التي جلا أهلها عنها والتحقوا ببلاد الروم، وربما سمح لهم بالانتفاع بموارد بعض الأراضي الزراعية المحيطة بها، التي لا مالك لها أي (الصوافي)[٢٦] بما يكفي معيشتهم وجهادهم، ويبدو أن هذا النظام ظل يقتصر على هذه التدابير حتى أواخر عام ٢٠هـ/ ٦٤٠م[٢٧]، وهي السنة التي تبلور فيها نظام إداري عسكري جديد عرف بنظام الأجناد[٢٨]، وتمصير الأمصار، وهدف إلى تجميع الجيوش الفاتحة وتوطينها مع أسرها داخل مراكز الأجناد أو في أرباضها وإعداد وإرسال حملات الصوائف والشواتي البرية لغزو الأراضي البيزنطية على مدار العام، إضافة إلى تأسيس الديوان (ديوان الجند والعطاء)[٢٩].

ومع الأيام أظهرت التجربة أن نظام عمر الدفاعي لم يكن كافياً، وأنه عانى من ثغرة خطيرة، وهي عدم وجود وسيلة دفاعية قادرة على مقاومة أي هجوم قد يقع من جهة البحر الذي يسيطر عليه الأسطول البيزنطي سيطرة تامة[٣٠].

وتشعر روايات بعض المصادر التي تحدثت عن زيارات عمر المتكررة لبلاد الشام أنه كان قلقاً تجاه أوضاعها، لا سيما بعد تناقص أعداد الجيوش الشامية، بسبب مرض الطاعون (طاعون عمواس)[٣١] الذي اجتاح المنطقة مدة عامين متتاليين (١٧/ ١٨هـ/ ٦٣٨-٦٣٩م)، وذهب ضحيته آلاف المقاتلين وقادة الفتح الكبار كأبي عبيدة عامر بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، إضافة لغيرهم من أسرهم والسكان المحليين .

وتشير بعض الروايات[٣٢] إلى أن معاوية بن أبي سفيان، الذي تولى قيادة أجناد دمشق والأردن والسواحل بعد عام ١٨هـ/ ٦٣٩م، أدرك مبكراً نقاط ضعف النظام الدفاعي الخاص بحماية السواحل، وأنه أبلغ عمر بمخاوفه من هجوم محتمل قد يشنه الأسطول البيزنطي على المدن الساحلية الثغرية، مقترحاً القيام بغزو البحر لضربه، وتدمير قواعده في الجزر القريبة مثل: قبرص، إلا أن عمر لم يأذن له[٣٣]. وهذا يعني أن معاوية قد أعد أسطولاً يمكنه من الغزو البحري منذ فترة مبكرة.

أما بخصوص رفض عمر الإذن لمعاوية بغزو البحر، فيبدو أنه عائد لسببين: الأول -الحرص الشديد على حياة المقاتلين العرب المسلمين لقلة خبرتهم القتالية البحرية لعدم الاعتياد عليها زمن الدعوة والفتوحات الأولى. والآخر -الرغبة في عدم الوقوع بأخطاء قد تكون خاطئة مثلما حدث في تجارب بحرية فاشلة ارتكبها بعض القادة العسكريين في مياه البحرين (الخليج العربي)، والبحر الأحم[٣٤]. من هنا يمكن القول إن الأسباب المانعة لعمر من غزو البحر كانت أسباباً عملية أكثر منها نفسية مثل: الخوف من الماء كما توحي بعض الروايات[٣٥]، وأمام هذا المنع ظل معاوية وقادة أجناد الشام ينفذون خطة الغزو البري الموسمية المشهورة بغزوات الصوائف والشواتي التي أمر بها عمر ابتداء من عام ٢٠هـ/ ٦٤٠م، وهي خطة شملت كل الجبهات العراق شرقاً ومصر غرباً، التي ذكرتها بعض الروايات بـ(الانسياح في الأرض)[٣٦]، الذي يفهم منها توسيع حركة الفتوحات إلى أقصى مدى جغرافي ممكن للجيوش العربية الإسلامية.

وتفيد الروايات التي تحدثت عن غزوات الصوائف والشواتي أي الحملات[٣٧]، التي تنفذ في فصلي الشتاء والصيف أن معاوية وغيره من القادة أخذوا بتنفيذها باتجاهات

متعددة في الشمال والشمال الغربي من بلاد الشام. ويبدو أنها سلكت طريقين رئيسين هما:

- الأول: الطريق الساحلي الذي يبدأ من شمال غرب أنطاكية ويمر بمنطقة المصيصة (Mopsueta) ليصل إلى طرسوس (Tursus)، ثم يتجه شمالاً فغرباً يخترق الممرات الجبلية المشهورة بالأبواب القيليقية أو الكيليكية (Cilicia) المؤدية الى هضبة الأناضول، حيث الحصون والقلاع التي تتمركز فيها، وقدر "لسترنج" طول هذا الطريق بحوالي (٧٠) ميلاً[٣٨].

وكان الهدف من هذه الغزوات الاستطلاع وتدمير تحصينات القوات البيزنطية خلف جبال طوروس الغربية، إضافة إلى جمع الغنائم، وأن بعض المصادر أن معاوية في غزواته كان يأمر بتدمير الحصون الواقعة على طول الطريق المذكور قبل انسحابه لمنع القوات البيزنطية من إعادة التمركز فيها؛ لتكون منطقة خالية من التحصينات أو ما يعرف بالمنظور العسكري الحديث بالأراضي المحايدة أو الحرام، التي تفصل بين دولتين متنازعتين على الحدود.

وترى بعض الروايات أن سياسة معاوية بشأن هذه المنطقة هي السياسة نفسها، التي استخدمها الإمبراطور البيزنطي هرقل (Heraclius) ٦١٠-٦٤١م، أثناء انسحابه منها بعد هزيمة جيوشه في معركة اليرموك[٣٩].

- أما الطريق الآخر فهو المتصل بمدن الفرات مثل: ملطية والحدث، مرعش، وهي التي تطل على طرق مؤدية إلى غرب جبال طوروس الشرقية، وتوصف هذه الطرق بوعورة المسالك والضيق؛ لمرورها بسفوح الجبال العالية وحواف الأودية العميقة؛ لذلك تطلب المسير فيها الحذر الشديد، خشية الانزلاق أو الوقوع في كمائن العدو[٤٠]، ونظراً لأهمية هذه الطرق في عبور الجبال والاتصال بأراضي العدو، فقد التفت معاوية إلى المدن المشرفة عليها فحصنها وشحنها بالمقاتلين؛ لاتخاذها مراكز دفاع وهجوم ضد البيزنطيين[٤١].

## ثالثاً: الهجوم البحري زمن عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ/٦٤٣-٦٥٥م):

انشغل عثمان منذ توليه الخلافة بقضية الدفاع عن الثغور الشامية، لكنه على عادة سلفه فضل التروي وعدم التسرع بتحويل خطة الدفاع القائمة في بلاد الشام إلى خطة هجوم بحرية كما أراد معاوية، الذي طرح عليه الفكرة وحسَّنها[٤٢]، مذكراً إياه بما

أقدم عليه الأسطول البيزنطي من غارات مدمرة لبعض المدن الساحلية الشامية أواخر عهد عمر، واحتلاله الإسكندرية على الساحل المصري عام ٢٥هـ/ ٦٤٥م[٤٣].

ويبدو أن عثمان أخذ يمهد لغزو البحر بخطوات محسوبة بدقة يمكن تلخيصها بالنقاط الآتية[٤٤]:

١- توحيد بلاد الشام والجزيرة الفراتية إدارياً وعسكرياً تحت إمرة معاوية عام ٢٦هـ/ ٦٤٥م.

٢- تعزيز حاميات المدن الثغرية الساحلية بالمقاتلين والمتطوعين، والتوسع في منحهم الإقطاعيات من المنازل الخالية وأراضي الضواحي القريبة منها للانتفاع بمواردها، بما يكفل العيش الدائم فيها، إضافة لإدرار العطاء عليهم.

٣- توسيع مساجد المدن الثغرية وبناء أخرى جديدة فيها؛ لتؤدي دورها الديني، ولتصبغ تلك المدن بالصبغة العربية الإسلامية.

وفي المقابل نجد معاوية يقوم بتنفيذ أوامر عثمان؛ ليحولها إلى خطة شاملة لإعادة إعمار المدن الساحلية وشحنها بالمقاتلين والمتطوعين مثل: طرابلس، جبلة، وأنطرطوس، ومرقية، بلنياس، وعكا[٤٥]، التي جعلها مركزاً لتصنيع مراكب الأسطول الإسلامي الذي -كما يبدو- رُعِي تأسيسه منذ زمن عمر بن الخطاب، وأصبح زمن توليه بلاد الشام جاهزاً لغزو البحر.

ويبدو أن عثمان وصل إلى مرحلة الوثوق بجاهزية معاوية وأسطوله لغزو البحر واضعاً أمام الأخير شرطين للسماح له بالغزو هما:[٤٦]

- الأول: أن يكون غزاة البحر مقاتلين متطوعين أي مُخيرين غير مجبرين بأمر عسكري، والآخر، أن يتم الغزو بقيادة معاوية نفسه ومعه زوجته، وتبدو هذه الشروط تحفيزية لا تعجيزية، وهو الذي يثق بقيادة معاوية وخبرته الإدارية والعسكرية، التي ظهرت منذ الفتوحات الأولى وتوليته أجناد الشام كلها إضافة للجزيرة الفراتية.

أما معاوية فيبدو أنه لم ينتظر طويلاً بعد وصول الإذن له بتنفيذ خطة الغزو المعدة سلفاً، على الرغم من أن بعض المصادر المتوفرة لا تتحدث كثيراً عن تفاصيل استعداداته، إلا أنها ذكرت ما يفيد أن الغزوة البحرية الأولى وقعت عام ٢٨هـ ٦٤٨م، وأن الأسطول أُعد في عكا وانطلق من مينائها، وأن عدد المراكب كانت كثيرة قدرها ابن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ/ ٩٢٦ م) بحوالي (٢٢٠)مركباً[٤٧]، اتجهت إلى جزيرة قبرص،

بقيادة معاوية ومعه زوجته (فاخته بنت قرضة)، وشارك فيها بعض كبار الصحابة وزوجاتهم؛ مما أضفى على الحملة هالة من الهيبة المشحونة بالحماسة البالغة؛ كونها الأولى من نوعها، ولمكانة النساء والصحابة ودورهم الجهادي والمعنوي[٤٨].

وقد نجحت الحملة في فرض سيطرتها البحرية والبرية على سواحل الجزيرة، وأجبرت أهلها على قبول شروط صلح مع المسلمين دفعوا بموجبه الجزر، وتعهدوا بعدم مساعدة الأسطول البيزنطي، وإبلاغ المسلمين بحركاته العدوانية[٤٩].

وأدى النجاح في البحر إلى تكرار الغزوات في الأعوام التالية، وتمكن الأسطول الإسلامي من فتح قبرص في العام التالي بعد إخلال أهلها بشروط الصلح المعقود معهم، كما فتحت جزيرة أرواد الواقعة قبالة طرطوس، وشنت غارات بحرية على جزر رودس وصقلية وكريت في عرض البحر[٥٠] وتوجت الغزوات بالنصر المؤزر بمعركة (ذات الصواري)، المشهورة عام ٣٤هـ/ ١٥٤م[٥١] التي حطمت معظم مراكب الأسطول البيزنطي، وشلت قدرته على الحركة لسنوات طويلة، وعدت من المعارك البحرية الفاصلة، التي قلبت موازين القوى في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط لصالح المسلمين[٥٢].

إن النجاح في غزو البحر، وضرب الأسطول البيزنطي، وفتح بعض الجزر، ومرابطة مقاتلين مسلمين فيها أرسى المقدمات العملية لاستقرار المدن الساحلية، فضلاً عن المصرية، كما حفز معاوية على الاستمرار ببني خطته الهجومية البحرية والبرية؛ لتحقيق كل أهدافها بفتح القسطنطينية وإسقاط الدولة البيزنطية، إلا أن تطور الأحداث الداخلية، التي وقعت أواخر عهد عثمان المشهورة بأحداث الفتنة والحرب الأهلية حالت مؤقتاً دون تحقيقها .

**الخاتمة:**

من كل ما سبق تستنتج هذه الدراسة ما يأتي:

١- شكّلت ظاهرة التحصين العسكري محطة تاريخية هامة في حياة الدولة الإسلامية ومستقبلها في الدفاع عن أراضيها مقابل الخطر البيزنطي الذي هددها بشكل مستمر.

٢- تنوّع التحصين بين إعادة بناء المدن القديمة وترميم أسوارها وحصونها، وشحنها بالمقاتلين النظاميين والمتطوعين الأشداء كقوة ضاربة لحمايتها.

٣- تطورت عمليات التحصين والتجنيد، من حيث نقل المعركة عبر البر والبحر،

وممارسة الأفعال القتالية إلى أرض العدو.

٤- نجاح عمليات التحصين والقتال في حماية الثغور ضد أقوى أعداء الدولة العربية الإسلامية.

**الهوامش:**

(١) الثغور: مفردها ثغر، وهو كل موضع قريب من أرض العدو يُخشى اختراقه؛ لذلك يجري تحصينه، ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، (ت٧١١هـ/ ١٣١١م)، **لسان العرب**، اعتنى بتصحيحه: أمين محمد عبدالوهاب، ومحمد صادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٩٩٩م، ج٢، ص١٠٣، سيشار إليه لاحقاً: ابن منظور، **لسان**، ياقوت الحموي، ياقوت بن عبدالله، (ت٦٢٦هـ/ ١٢١٨م): **معجم البلدان**، ط٢، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٨٤م، م٢، ص٧٩، سيشار إليه لاحقاً: ياقوت، **معجم**.

(٢) ينظر: عباس، إحسان: **تاريخ بلاد الشام من ما قبل الإسلام حتى بداية العصر الأموي**، مطبعة الجامعة الاردنية عمان، ١٩٩٠م، ص١٧٥، وما بعدها، سيشار إليه لاحقاً: عباس، تاريخ، العمري، أكرم ضياء، **عصر الخلافة الراشدة، محاولة نقد الرواية التاريخية وفق مناهج المحدثين**، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٦م، ص٣٧٠، وما بعدها، سيشار إليه لاحقاً: العمري، **عصر**.

(٣) ينظر: اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، (ت٢٩٢هـ/ ٩٠٥م): **تاريخ اليعقوبي**، دار صادر، بيروت، د.ت، م٢، ص١٣٣، سيشار إليه لاحقاً: اليعقوبي، تاريخ، البلاذري، أحمد بن يحيى، (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م): **فتوح البلدان**، مراجعة وتحقيق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العملية، بيروت، ١٩٨٣م، ص١١٥، سيشار إليه لاحقاً: البلاذري، **فتوح**، الطبري، محمد بن جرير، (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م): **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، ج٣، ص٣٨٧، سيشار إليه لاحقاً: الطبري، **تاريخ**.

(٤) الأجناد: مفردها جند، والتجنيد: التجميع، ويقصد بها المناطق العسكرية والإدارية التي قسمت بموجبها بلاد الشام في صدر الإسلام، ينظر، اليعقوبي، **تاريخ**، ص١٥٤، أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، (ت١٨٢هـ/ ٧٩٨م): **الخراج**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م، ص٣٩، سيشار إليه لاحقاً أبو يوسف، **الخراج**، ياقوت، **معجم**، م١، ص١٠٣.

(٥) اليعقوبي، **تاريخ**، م٢، ص١٣٤، ١٤١، خليفة بن خياط، (ت٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق: أكرم ضياء العمري، ط٢، دار العلم، دمشق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٧م، ص١١٧، سيشار إليه لاحقاً: خليفة، **تاريخ**، البلاذري، **فتوح**، ص١٢١، ١٤٠.

(٦) عباس، **تاريخ**، ص٢٥٢، السيد الباز العرين، **الدولة البيزنطية**، دار النهضة العربية،

بيروت، ١٩٦٥م، ص١٣٥، سيشار إليه لاحقاً: العريني، **الدولة**.

(٧) البلاذري، **فتوح**، ص١١٥، وما بعدها.

(٨) اتخذت مركزاً لتجمع الجيوش الفاتحة لاعتبارات استراتيجية، وهي قريبة من موقع معركة اليرموك، وتبعد عن دمشق حوالي ٨٠كم باتجاه الجنوب، ينظر: عبدالعزيز الدوري: "**العرب والأرض في بلاد الشام**"، ص٢٦، **المؤتمر الدولي التاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع عشر**، ط١، الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٤م، ص٢٥-٣٩، سيشار إليه لاحقاً: الدوري، **العرب**.

(٩) تسير من الشرق إلى الغرب، وتحيط بهضبة الأناضول من الجهتين الشرقية والجنوبية الشرقية، وتتسم بارتفاع قممها وانحدار سفوحها، وتتخللها الأودية العميقة، والأنهار الصغيرة، التي ترفد الفرات، وبعضها يصب في الساحل الشمالي للبحر الأبيض المتوسط، ينظر: لسترنج، كي، **بلدان الخلافة الشرقية**، نقلة إلى العربية: بشير فرنسيس، وكور كيس عواد، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٦٠، سيشار إليه لاحقاً: لسترنج، **بلدان**.

(١٠) لسترنج، **بلدان**، ص١٦٢، فيليب حتي، وآخرون: **تاريخ العرب**، ط٧، دار غندور للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م، ص٢٦٥، سيشار إليه لاحقاً :حتي، **تاريخ**.

(١١) البلاذري، **فتوح**، ص١٥٠-١٥١، الطبري، **تاريخ**، ج٤، ص٥٣، ابن العديم، عمر بن أحمد، (ت٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، **بغية الطلب في معرفة تاريخ حلب**، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٨م، ص٢٣٤-٢٣٥، سيشار إليه لاحقاً، ابن العديم، **بغية**.

(١٢) البلاذري، **فتوح**، ص١٥٠-١٥١

(١٣) الطبري، **تاريخ**، ج٤، ص٥٣.

(١٤) **المصدر نفسه**.

(١٥) ينظر: الإصطخري، **مسالك**، ص٥٥، ابن حوقل، **صورة**، ص١٥٣، لسترنج، **بلدان**، ص١٦٠.

(١٦) ينظر: الإصطخري: **مسالك**، ص٥٥، ابن حوقل، **صورة**، ص١٥٤، ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله، (ت٢٧٢هـ / ٨٨٥م)، **المسالك والممالك**، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٩م، ص٩٥، سيشار إليه لاحق: ابن خرداذبة، **المسالك**، لسترنج، **بلدان**، ص١٦٠.

(١٧) ينظر: اليعقوبي، **تاريخ**، م٢، ص١٥١، البلاذري، **فتوح**، ص١٤٧-١٤٨ قدامة بن جعفر، (ت٣٢٨هـ/ ٩٤٠م): **الخراج وصناعة الكتابة**، تحقيق: محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، العراق، ١٩٨١م، ص٢٩٥، سيشار إليه لاحقاً: قدامة، **الخراج**.

(١٨) لسترنج، **بلدان**، ص١٦٦، العريني، **الدولة**، ص٢٧٨.

(١٩) الإصطخري، **مسالك**، ص٥٥، ابن حوقل، **صورة**، ص١٥٤.

(٢٠) حتي، **تاريخ**، ص٢٥٩، الدوري، عبدالعزيز: **التكوين التاريخي للأمة العربية**، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤م،

ص٦٥-٦٦، سيشار إليه لاحقاً: الدوري، **التكوين**.

(٢١) ينظر، ابن الأثير، علي بن محمد، (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م): **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تحقيق: الشيخ علي معوض وزميله، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م، ج١، ص١٣٢، سيشار إليه لاحقاً: ابن الأثير، **أسد**. حتى، **تاريخ**، ص٢٠٨-٢٠٩، جوزيف نسيم يوسف: **تاريخ الدولة البيزنطية**، ط١، الإسكندرية، ١٩٨٤م، ص١١٠-١١١، سيشار إليه لاحقاً: يوسف، **تاريخ**.

(٢٢) زارها أربع مرات متتالية، واحدة منها لم تتم بسبب انتشار مرض الطاعون في بلاد الشام، ينظر: اليعقوبي، تاريخ، م٢، ص١٤٩، الطبري، **تاريخ**، ج٤، ص٥٩

(٢٣) اليعقوبي، **تاريخ**، م٢، ص١٤٧، البلاذري، **فتوح**، ص١٤٥، الطبري، **تاريخ**، ج٣، ص٦٠٧.

(٢٤) البلاذري، فتوح، ص١٣٣-١٣٤.

(٢٥) البلاذري، فتوح، ص١٣٣-١٣٤، الجاسم، هاشم إسماعيل، **الخطة العسكرية الدفاعية للثغور البرية والبحرية حتى نهاية العصر الأموي**، ندوة التراث الحربي، ط١، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٨٦م، ص٢١، سيشار إليه لاحقاً: الجاسم، الخطة.

(٢٦) أبو يوسف، **الخراج**، ص٥٧، البلاذري، **فتوح**، ص١٣٣-١٣٤، الدوري، **العرب**، ص٢٦، ص٢٨.

(٢٧) اليعقوبي، **تاريخ**، م٢، ص١٥٥، البلاذري، **فتوح**، ص١٤٢.

(٢٨) اليعقوبي، **تاريخ**، م٢، ص١٥٣-١٥٤، البلاذري، **فتوح**، ص١٣٧-١٣٨، ١٤٢، الطبري، **تاريخ**، ج٤، ص٦٤-٦٥.

(٢٩) البلاذري، **فتوح**، ص٤٢٦.

(30) Ostrogorsky, G , History of the Byzantine State , Trans by Joan Hussey , Oxford , 1956 ,P,104.

(٣١) اليعقوبي، **تاريخ**، ص١٥٠، البلاذري، **فتوح**، ص١٤٥، الطبري، **تاريخ**، ج٣، ص١٤٤.

(٣٢) البلاذري، **فتوح**، ص١٤٦، خليفة، تاريخ، ص١٥٥، الطبري، **تاريخ**، ج٣، ص١٤٤.

(٣٣) البلاذري، **فتوح**، ص١٥٧، قدامة، **الخراج**، ص٣٠٦.

(٣٤) اليعقوبي، **تاريخ**، م٢١، ص١٥٥-١٥٦، الطبري، **تاريخ**، ج٤، ص١١٢.

(٣٥) الطبري، **تاريخ**، ج٤، ص٢٥٨-٢٥٩، ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون، (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥ م) **مقدمة ابن خلدون**، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ص٢٥٣، سيشار إليه لاحقاً: ابن خلدون، **مقدمة**.

(٣٦) الطبري، **تاريخ**، ج٤، ص٨٩.

(٣٧) العريني، **الدولة**، ص١٤١-١٤٢، وعن مواسم الحملات، ينظر: قدامة، **الخراج**، ص١٩٢-١٩٣.

(٣٨) لسترنج، **بلدان**، ص١٦٦، **العريني**، **الدولة**، ص٢٧٨. ينظر الخريطة رقم(٣).

(٣٩) البلاذري، **فتوح**، ص١٦٨-١٦٩، الطبري، **تاريخ**، ج٣، ص٦٠٣، قدامة، **الخراج**، ص٣٠٧، ابن العديم، **بغية**، ص١٦١،

لسترنج، **بلدان**، ص١٦٦.

(٤٠) لسترنج، **بلدان**، ص١٦٦، العريني، **الدولة**، ص٢٧١، عليّة عبدالسميع الجنزوري، **الثغور الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى**، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٧٥-٧٦، سيشار إليه لاحقاً: الجنزروي، **الثغور**.

(٤١) البلاذري، **فتوح**، ص١٨٩، ١٩٣، الجاسم، **الخطة**، ص٢٣.

(٤٢) البلاذري، **فتوح**، ص١٥٧، ٢٢٣، خليفة، **تاريخ**، ص١٥٨.

(٤٣) البلاذري، **فتوح**، ص١٥٧، ٢٢٣، خليفة، **تاريخ**، ص١٥٨، قدامة، **الخراج**، ص٣٤٠، الطبري، **تاريخ**، ج٤، ص٢٥٠.

(٤٤) البلاذري، **فتوح**، ص١٣٤، ٢٦٢.

(٤٥) **المصدر نفسه**، ص١٢٤.

(٤٦) المسعودي، علي بن الحسين، (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، د.ت، ج٣، ص٣٩، سيشار إليه لاحقاً: المسعودي، **مروج**، ابن أعثم، **الفتوح**، ج٢، ص١١٩.

(٤٧) ابن أعثم الكوفي، **الفتوح**، ج٢، ص١١٧-١١٨.

(٤٨) البلاذري، **فتوح**، ص٢٣٧، نقولا زيادة، "**الأسطول العربي في أيام الأمويين**"، ص٤١-٤٢، **المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، بلاد الشام في العصر الأموي**، تحرير: محمد عدنان البخيت، ومحمد يونس العبادي، عمان ١٩٩٠م، ص٣٧-٨٦، سيشار إليه لاحقاً: زيادة، **الأسطول**.

(٤٩) الطبري، **تاريخ**، ج٤، ص٢٩٠، ابن أعثم، **الفتوح**، ج٢، ص١٢٨-١٢٩.

(٥٠) البلاذري، **فتوح**، ص١٥١، خليفة، **تاريخ**، ص١٦٠، الطبري، **تاريخ**، ج٤، ص٢٥٨، المقريزي، أحمد ابن علي، (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م): **الخطط المقريزية**، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٧٠هـ، ج٣.

(٥١) ابن أعثم الكوفي، **الفتوح**، ص٢، ص١١٧-١١٨.

(٥٢) أرشيبالد لويس، **القوى البحرية والتجارية في البحر الأبيض المتوسط**، (٥٠٠-١١٠٠م)، ترجمة: أحمد محمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠م، ص١٠٨-١١٥، العريني، **الدولة**، ص١٤٣، زيادة، **الأسطول**، ص٤٢-٤٣.

# المشكلات الاجتماعية في مدينة زبيد في عهد السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري: الجريمة والأمراض الاجتماعية أنموذجاً

## (٨٩٤ - ٩٢٣ هـ / ١٤٨٨ - ١٥١٧ م)

د.طه حسين عوض هديل *

تاريخ وصول البحث: ١٠/ ٤/ ٢٠١٤م تاريخ قبول البحث: ٨ / ١٢/ ٢٠١٥م


## ملخص

تناول هذا البحث دراسة تاريخية للمشكلات الاجتماعية التي واجهتها مدينة زبيد في عهد السلطان الظافر عامر الثاني بن عبدالوهاب الطاهري في المدة من سنة ٨٩٤ -٩٢٣ هـ/ ١٤٨٨ -١٥١٧ م، ونتيجة لتعدد هذه المشكلات في هذه المدينة وغيرها من المدن اليمنية وتنوعها بين فقر ومرض وجهل وتخلف وأمية؛ حاولنا حصر هذه الدراسة في مشكلتين؛ هما مشكلة انتشار الجريمة، ومشكلة الأمراض الاجتماعية التي تفشت بشكل ملفت للنظر خلال مدة الدراسة في بعض أحياء هذه المدينة، لتشكل همّاً على قلوب عامة الناس، بعد أن تضرر منها الجميع دون استثناء. ومن خلال دراستنا لمثل تلك المشكلات وجدنا أن الجريمة تنوعت بين القتل، والسرقة، والتزوير، والخطف، وقطع الطريق وغيرها، بينما تلخصت الأمراض الاجتماعية في الفساد الأخلاقي من شذوذ، وفواحش، وشرب للمسكرات والخمور، ومعتقدات باطلة تنوعت بين الاعتقاد بالأولياء والأموات، والقبور، والسحر، والشعوذة وغير ذلك.

## Abstract

This research offers a historical examination of the social problems that the city of Zabid faced during the reign of Sultan Al-Thafer 'Amer II bin Abdul Wahab al-Tahiri during 894-923AH /1488-1517AD. Due to the diversity of these problems ranging from poverty, disease, ignorance, backwardness, and illiteracy in this city and other cities in Yemen; the research attempts to confine this examinations in two problems namely the spread of crime and the problem of social diseases, which both burdened and harmed everybody without exception. Consequently, it has been found that crime ranged from killing, robbery, forgery, kidnapping, and waylaying among others; while social diseases ranged from moral corruption, intoxication, and erroneous beliefs to name a few.


* أستاذ مشارك، كلية التربية، جامعة عدن.

**المقدمة:**

من الملاحظ من خلال دراستنا لتاريخ اليمن في العصر الإسلامي أن المجتمع اليمني عانى من كثير من المشكلات الاجتماعية التي كان أبرزها: الفقر، والمرض، والتخلف، والجهل، والفساد الأخلاقي، والمعاصي، والجريمة وغيرها من الأمراض الاجتماعية المختلفة، والمشكلات التي انعكست عليه وعلى جميع أفراده. وعلى الرغم مما كان لهذه المشكلات من تأثيرات سلبية على الدولة والمجتمع، لا تقل عن تأثيرات الحروب والصراعات الدامية، والكوارث الطبيعية المدمرة فإنها لم تلقَ حقها من الدراسة والبحث والتحليل، للتعرف إلى أسبابها، وآثارها، وطرق معالجتها، ومن ثَمَّ تحاول هذه الدراسة ردم جزء من هذه الهوة في مسار البحث التاريخي والاجتماعي، على الرغم من شحة المادة التاريخية لموضوع الدراسة، وتطلبها إلى جهد كبير لتجميعها من بين سطور أمهات المصادر التاريخية التي عاصر بعضها الحدث، أو سمع عنه، أو كُتب في مدة زمنية قريبة منه، لاسيما وأن مثل تلك المشكلات الاجتماعية والأخلاقية تُعد اليوم من أبرز ما تعاني منه المجتمعات عامة. لذا حاول الباحث في هذه الدراسة الوقوف على تجارب الأولين في معالجة مثل تلك المشكلات، وذلك ليفيد منها أصحاب القرار -مؤسسات وأفراداً- في المجتمعات الإسلامية المعاصرة للتخفيف على الناس ومعالجة قضاياهم المختلفة بتكاثف جهود الدولة والمجتمع نفسه، والمختصين من رجال العلم في هذا المجال.

ونتيجة لأهمية الموضوع وحساسيته، وتجنباً للتطويل، فقد حاولنا حصر دراستنا هذه في مشكلتين؛ هما: مشكلة انتشار الجريمة، ومشكلة الأمراض الاجتماعية، بوصفهما من المشكلات التي عانت منها اليمن في مدة الدراسة، التي حددناها بعهد السلطان الظافر عامر الثاني بن عبدالوهاب الطاهري الذي حكم اليمن في المدة من سنة ٨٩٤-٩٢٣هـ/ ١٤٨٨-١٥١٧م، كما اتخذنا عينة دراستنا في مدينة يمنية واحدة تُعد في ذلك الحين من أهم مدن الجزيرة العربية عامة واليمن خاصة؛ ألا وهي (مدينة زبيد) التي عُرفت تاريخياً بمكانتها العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية بين حواضر العالم الإسلامي، علماً بأن أكثر الدراسات التي اهتمت بتاريخ هذه المدينة العريقة ركزت في محتواها على الجوانب الإيجابية المشرقة من تاريخها دون التعمق في بعض خفاياها التي

كانت سبباً في معاناة كثير من أبنائها.

لقد كان من بين أهم الأسباب التي شدتني للكتابة في هذا الموضوع رغبتي في التعرف إلى أهم المشكلات التي أثرت سلباً في مجتمع مدينة زبيد في عهد السلطان الظافر عامر الثاني بن عبدالوهاب الطاهري، مع التركيز على أهمها مثل: مشكلة انتشار الجريمة بأنواعها المختلفة، والأمراض الاجتماعية، كالفساد الأخلاقي والمعتقدات الباطلة وما شابه ذلك، وما كان لها من تأثير في مجتمع هذه المدينة، والدور الذي قام به حكام اليمن وولاة زبيد، وعلماؤهم وعامة الناس فيها لمعالجتها أو الحد منها، ومن آثارها السلبية فيمن حولهم من الرعية. متبعاً في ذلك منهج السرد التاريخي التحليلي والوصفي للأحداث التي من خلالها يمكن الوصول إلى نتائج هادفة ومفيدة.

ومهما يكن الأمر، فقد كانت المادة العلمية من بين أهم المشكلات التي واجهتني عند تفكيري في كتابة هذه الدراسة، لاسيما وأن معظم من كتبوا في هذه الحقبة التاريخية ركزوا في كتاباتهم على جوانب معينة، مثل الفتن السياسية وتبعاتها، والصراعات الأسرية، والتعريف بعلماء العصر وكبرائه من أصحاب السلطة والجاه والمكانة الاجتماعية، مع تعريجهم على ذكر بعض الأفراد ممن ذكروا بحسن الخلق والسمعة الطيبة، دون الاهتمام بما شهده العصر من جوانب اجتماعية دقيقة وخطيرة قد يكون الكتابة فيها من الأمور التي يترفع عنها بعض المؤرخين أو يعدونها من المعيبات في حقهم.

ولتحقيق الهدف المنشود من هذه الدراسة قمت بتقسيمها إلى مقدمة وستة محاور رئيسة وخاتمة، تناولت في المحور الأول الأهمية التاريخية لمدينة زبيد، ووضعها في عصر الدولة الطاهرية، وعهد السلطان الظافر عامر الثاني بن عبدالوهاب الطاهري. ثم درست في المحور الثاني المشكلات الاجتماعية التي واجهت المجتمع اليمني عامة، ومجتمع مدينة زبيد خاصة، وأسباب انتشارها. وعرّفت في المحور الثالث أهم هذه المشكلات، وهي مشكلة الجريمة، وذكرت أنواعها، وكيفية انتشارها في المدة موضوع الدراسة.

وتطرقت في المحور الرابع إلى الأمراض الاجتماعية التي عانت منها مدينة زبيد، وكيفية انتشارها في تلك المدة. وخصصت المحور الخامس لأثر المشكلات الاجتماعية في مجتمع مدينة زبيد. وأفردت المحور السادس لمعرفة موقف السلطان عامر وولاته مما ظهر في زبيد من مشكلات، وسبل معالجتهم لها والتخفيف منها، فضلاً

عن دور المجتمع في المشاركة في التخفيف منها، وأنهيت دراستي هذه بخاتمة لخصت من خلالها أهم النتائج والاستنتاجات التي توصلت إليها.

**أولاً: الأهمية التاريخية لمدينة زبيد**[١]:

عُرفت مدينة زبيد تاريخياً بأنها كانت واحدة من بين أهم حواضر العالم الإسلامي التي اشتهرت بمدارسها ومساجدها وعلمائها في التاريخ الإسلامي، وقد وصفت بأنها أكثر بلدان اليمن فقهاء ومثقفين وعلماء[٢]، إذ كانت ثالثة المدن العلمية في جزيرة العرب بعد مكة المشرفة والمدينة المنورة لشهرتها العلمية[٣]، وقد حظيت عبر تاريخها الطويل بعناية واهتمام السلاطين الذين تتابعوا على حكم اليمن، لما كان لها من أهمية كبيرة دفعت ببعضهم؛ مثل سلاطين الدولة الرسولية (٦٢٦-٨٥٨هـ/ ١٢٢٩-١٤٥٤م) ونسائهم وأمرائهم إلى تحصينها، وبناء الجوامع والمدارس والزوايا[٤] وغيرها من المنشآت الدينية والتعليمية فيها[٥]، ونتيجة لطبيعتها الخلابة جعلها بعض هؤلاء السلاطين عاصمة شتوية، يتجهون إليها للاستجمام والنقاهة، والترفيه عن أنفسهم في مواسم الخير والأمطار، وللتمتع بأجوائها وحدائقها ومتنزهاتها الجميلة[٦]، فعمروا فيها وحولها القصور والبيوت، واحاطوها بالحدائق والجنان الغناء[٧]، مما جعل من هذه المدينة قبلة للعلماء وطلاب العلم، والباحثون عن الجمال والطبيعة والترفيه[٨].

وعلى أية حال، فقد بقيت مدينة زبيد محافظة على مكانتها الدينية والعلمية في عصر الدولة الطاهرية (٨٥٨-٩٤٥هـ/ ١٤٥٤-١٥٣٨م) التي أقامها بعد سقوط الدولة الرسولية؛ الملك المجاهد شمس الدين علي وأخيه الملك الظافر صلاح الدين عامر ابني طاهر بن معوضة بن تاج الدين[٩]، وقد لقيت هذه المدينة وأهلها كثير من الاهتمام والعناية من قبل سلاطين هذه الدولة الذين تعاقبوا عليها، وممن اشتهر منهم بذلك السلطان المجاهد علي (ت٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م) الذي كان يزورها لتلقي العلم، والجلوس في مجالس العلماء للسماع منهم، ويستغل مثل هذه الزيارات ليوزع الصدقات المختلفة في أهلها، فضلاً عن جهوده المختلفة في الإسهام في الجانب الزراعي في بساتينها وأوديتها[١٠].

وعلى الرغم مما تعرضت له الدولة الطاهرية من صراعات داخلية في إطار الأسرية الحاكمة، ومع القبائل اليمنية المختلفة[١١]، والقوى الزيدية في شمال اليمن[١٢]، إلا أن سلاطينها سخروا

جهودهم لبناء هذه المدينة وتأمينها؛ فعمروا فيها المدارس، وحبسوا الأوقاف، وجدّدوا المساجد والجوامع؛ مثلما فعل السلطان المنصور تاج الدين عبدالوهاب بن داود الطاهري (ت ٨٩٢هـ/ ١٤٨٨م) الذي بنى المدرسة المنصورية التي اشتهرت بالوهابية، وأوقف عليها أفضل أراضي وادي زبيد، وحفر حول أجزاء من المدينة خندق لحمايتها من القبائل، وجدد مسجدها المعروف بمسجد الأشاعر[١٣]، وعمل البرك بجامع زبيد، والسبل والصهاريج[١٤].

وقد كان لتولي السلطان الظافر عامر الثاني بن عبدالوهاب بن داود الطاهري (ت ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) الحكم أثره فيما شهدته اليمن عامة، ومدينة زبيد خاصة من ازدهار في مختلف نواحي الحياة العامة، لاسيما وأنه قد وصف بالجود والحلم، والإحسان للناس، والكرم معهم، ومع العلماء[١٥]، لهذا كان يُعد من أبرز سلاطين الدولة الطاهرية، وأطولهم حكماً، مع ما تميزت به مدة حكمه من صراعات، لم تمنعهُ من البناء والتعمير، وما ترتب على ذلك من تطور ونماء ورخاء وعلم لا يمكن إنكاره[١٦]، وقد لقيت مدينة زبيد اهتمام خاص من قبل السلطان عامر؛ فراح في بناء جوامعها، وتعمير المدارس فيها، ومن أشهر آثاره هناك الجامع الأعظم، الذي أنفق فيه كثيراً من الأموال، والمدرسة الظافرية، ومدرسة شيخ الصوفية الكبير إسماعيل بن إبراهيم الجبرتي، ومشهد الفقيه أبي بكر الحداد وغير ذلك من المنشآت الدينية والتعليمية والخدمية[١٧]، وعلى الرغم مما شهده مجتمع مدينة زبيد من اهتمام من قبل دولة السلطان عامر، وما شهدته المدينة من تطور في جوانبها المختلفة العلمية والفكرية، وكثرة علمائها والعلماء الوافدين إليها؛ إلا أن ذلك لم يمنع من أن تعاني هذه المدينة من بعض المشكلات والأمراض الاجتماعية التي تفشت بين فئات من سكانها، وهو من الأمور الطبيعية التي من الممكن أن تظهر في مجتمع أي مدينة من المدن الإسلامية، وفي أي زمان ومكان، مما يدفعنا إلى البحث عن دواعي انتشار مثل هذه المشكلات والأمراض وسبب تفشيها بين فئة من الناس.

## ثانياً: المشكلات الاجتماعية في مجتمع مدينة زبيد وأسباب انتشارها:

شهد المجتمع اليمني كغيره من المجتمعات الإسلامية بعض المشكلات الاجتماعية السلبية التي انتشرت فيه بشكل ملحوظ، ومن المسلم به أن تكون لهذه المشكلات أسباب مختلفة أدت إلى تفشيها وانتشارها بين أفراد المجتمع، ولا يمكن دراسة تلك المشكلات دون التعرف إلى أسبابها، وكيفية انتشارها؛

لذلك قبل البدء بدراسة أسباب انتشار مثل هذه المشكلات لابد أولاً من التعرف إلى مدى انتشارها في اليمن خلال مدة الدراسة.

**١ـ مدى انتشار المشكلات الاجتماعية في المجتمع اليمني:**

إن القارئ لما كُتِب عن اليمن في العصر الطاهري، يجد أن هناك عدداً من المشكلات الاجتماعية التي تفشت في المجتمع اليمني، وقد بلغ هذا التفشي مداه في بعض الفترات، لاسيما في عهد السلطان الظافر عامر بن عبدالوهاب، ولكن من خلال بحثنا هذا يتبين لنا أن مدينة زبيد –موضوع دراستنا– في عهد السلطان المذكور كانت من أكثر المدن اليمنية التي برزت فيها العديد من هذه المشكلات الخطيرة التي تأذى منها المجتمع عامة، وليس معنى هذا أن بقية المدن لم تعانِ من مثل هذه المشكلات؛ فقد شهدت بعض المدن اليمنية الكبرى وجود كثير من هذه المشكلات المؤثرة سلباً، وتورد لنا بعض المصادر التاريخية التي عاصر مؤلفوها الحقبة الزمنية المحددة للدراسة، بعض تلك المشكلات؛ وتفصّل في وصفها وإبراز خطورتها على مجتمعات المدن التي حدثت فيها، علماً بأن الجريمة بأنواعها القتل والسرقة وقطع الطريق والتزوير، والأمراض الاجتماعية من سحر وشعوذة واعتقاد بقبور الأولياء وغير ذلك، كانت من أبرز ما عانى منه الناس في ذلك الوقت، وقد يعتبر القارئ أن تلك من الأمور الطبيعية التي من الممكن أن تحدث في أي مجتمع من المجتمعات الإسلامية أو غيرها، إلا أن تفاقم بعضها، وبشاعتها، ومدى صداها، وأثرها في المجتمع، وفي هز هيبة الدولة والسلطان، هو ما دفعنا إلى التركيز عليها وذكرها، لاسيما جريمة القتل التي لم تخلُ منها أي من المدن اليمنية في ذلك الحين[١٨]، مع أن نسبتها في مختلف المدن اليمنية لم تكن بذلك المستوى الذي كانت عليه في زبيد التي أسهبت بعض المصادر في وصف ما تفشت فيها من جرائم؛ وتُعد مدينة عدن ثاني المدن اليمنية التي شهدت عدداً من تلك المشكلات ومنها الجريمة، ومن أشهر جرائمها التي استشهدنا بها وأبشعها جريمة القتل التي شهدتها هذه المدينة في سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م؛ وراحت ضحيتها امرأة بريئة كانت تكتري للناس المصاغ والحلي في المناسبات والأفراح[١٩]، كما يذكر لنا ابن الديبع[٢٠].

وفي الوقت نفسه، شهدت مدن يمنية أخرى جرائم كان لها صدى خطير على حياة الناس والمجتمع، لاسيما بعد أن بلغ خطرها إلى رجال السلطان وولاته ممن كانوا يمثلون النظام والسلطان، وترصد لنا بعض كتب التاريخ عدداً من تلك الجرائم التي كان من أبرزها الجريمة التي شهدها بندر الحديدة[٢١]

سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م وراح ضحيتها عَبْدُ للملك المنصور عبدالوهاب الطاهري، ومقدم المنطقة من قبل السلطان الظافر عامر، وكان يعرف بالنقيب دَرْبوسَن[٢٢]، ومن الملاحظ أن فشل من يمثلون الدولة في حماية أرواحهم هو ما زاد من تذمر الناس وخوفهم على أنفسهم وأسرهم وأموالهم، لغياب هيبة السلطان والنظام، وقد بلغ من ضعف أمن دولة الظافر عامر الثاني أمام بعض هذه المشكلات إلى درجة عجزها عن حماية ضيوفها المقيمين في مخيماتها وفي قصور السلطان نفسه، مما شكل فضيحة في حق القائمين على أمنها، وتسبب هذا الضعف في جريمة القتل التي حدثت سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م وراح ضحيتها ولد ابن مخارش أمير منطقة الجوف[٢٣] الذي كان ضيفاً لدى السلطان الظافر ووجد مقتولاً في مخيمه بمنطقة رداع العرش[٢٤]، وشكل مقتله فضيحة في حق السلطان الذي أزعجه مثل هذا الأمر، وأتعبه تعباً شديداً[٢٥]، علماً بأن مشكلة انتشار جريمة القتل لم تكن هي فقط ما عانت منه اليمن في ذلك الزمن بل كانت واحدة من بين أهم المشكلات التي واجهها الناس، إذ انتشر إلى جانبها السرقة، وقطع الطريق، والتزوير، وأمور أخرى نحن بصدد دراستها، منها السحر والشعوذة والكهانة التي صار لها في ذلك الزمن شيوخها وكتبها، مثل شيخ الإسماعيلية إسماعيل بن حنش الذي ظهر في تعز[٢٦] في ذلك الحين[٢٧]. إلا أن مقارنة مثل تلك المشكلات بما وجد في بعض أحياء زبيد يدفعنا إلى القول إن ما انتشر في هذه المدينة من جرائم مختلفة، وأمراض اجتماعية مستعصية وخطيرة، وأمور أخلاقية سيئة رغم مكانتها العلمية والدينية بالنسبة لليمنيين وغيرهم من الأمم الإسلامية، لا يمكن مقارنته بما ظهر في المناطق والمدن اليمنية الأخرى، إذ سجلت بعض أحياء هذه المدينة في عهد السلطان عامر الثاني، أعلى نسبة لمستوى الجريمة بأنواعها، فضلاً عن ما تفشي فيها من الأمراض الاجتماعية المتنوعة من شذوذ جنسي وشرب للمسكر وغيره، وهو ما تؤكده بعض المصادر التاريخية التي عاصر مؤلفوها الحدث، ودونوا كل ما شاهدوه أو سمعوه من جرائم بشعة، وأمراض اجتماعية مخزية انتشرت بين بعض شوارع هذه المدينة التاريخية العريقة وأزقتها وأسواقها[٢٨]، إلا أنه وقبل الخوض في دارسة هذه المشكلات لابد أولاً من التعرف إلى الأسباب التي أدت إلى انتشارها في اليمن عامة وأحياء من مدينة زبيد خاصة تمهيداً لدراستها في المباحث القادمة.

**٢ـ أسباب انتشار المشكلات الاجتماعية:**

من المعروف أن انتشار الجرائم في

لمجتمعات أو تفشي الأمراض الاجتماعية فيها، وبشكل ملحوظ ولافت للنظر، لابد أن تكون له أسباب مختلفة، قد تكون مرتبطة بالمجتمع نفسه وأمنه وثقافته، وعاداته وتقاليده، أو مرتبطة بالبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها أفراده، أو بالمستوى العلمي أو الثقافي لهم؛ أو بأمور متعلقة بالفرد نفسه وتدينه وأخلاقه وتربيته، لذلك من الصعب دراسة تلك المشكلات دون دراسة الأسباب التي أدت إلى انتشارها بين أفراد المجتمع، التي من أهمها:

أ- ضعف الوازع الديني لدى شريحة من الناس، ممن مارسوا بعض الأعمال المنافية للأخلاق، لاسيما أقلهم علماً وتديناً، وجهلهم بالأضرار المترتبة على وجود مثل تلك المشكلات بينهم من ناحية دينية ودنيوية وصحية وأمنية، مما كان له الدور الفاعل والأساس في انتشار بعض المفاسد، بل وقيام عدد منهم بالتشجيع على ذلك لأسباب ارتبطت بتركيبتهم العقلية والفكرية، وبطبيعة حياتهم ومعيشتهم الخاصة[٢٩]، مما كان له أثره السيئ في مجتمع هذه المدينة وسكانها.

ب- غياب دور الدولة -خلال فترات- لانشغالها بالصراعات الداخلية والأسرية، وعجزها عن خلق حالة من الاستقرار في هذه المدينة وغيرها، وحماية مجتمعها من عبث العابثين والفاسدين من المجرمين والقتلة، ممن وجدوا في غياب الدولة، وانتشار الفوضى وتفشيها؛ أرضية خصبة لمزاولة جرائمهم، ونشر فواحشهم المختلفة التي تسببت في فساد فئة واسعة من الناس[٣٠].

ج- ضعف هيبة الدولة أمام كثير من الناس ممن شجعتهم الأوضاع الأمنية المتردية، وانتشار الجرائم والمفاسد على التجرؤ عليها وعلى قوانينها وكبار من يمثلونها من الولاة والحكام[٣١].

د- عدم وجود الرقابة الكافية من قبل عدد من الأهالي على أبنائهم وتركهم عرضة للمفسدين ولمن لا ضمائر لهم؛ حتى أنهم كانوا سبباً في فساد بعض من شباب مدينة زبيد، ممن أدى اختلاطهم بهؤلاء إلى فقدان أخلاقهم وضياع مبادئهم وانتهاء مستقبلهم، بعد الاستجابة لرغباتهم المختلفة من شرب للمخدرات والمسكرات والفواحش التي لا يقبلها عقل ولا دين[٣٢].

هـ- قصور ثقافة المجتمع، ونظرته للقتلة والمجرمين والفاسدين نظرة الأبطال الشجعان، وهي سمة تميز بها المجتمع اليمني عن سائر المجتمعات الإسلامية، لتركيبته القبلية المشجعة على مثل هذه الأمور التي

أدت إلى انتشار جريمة القتل وقطع الطريق؛ لاسيما بين رجال القبائل[٣٣]، وما ترتب عليها من انتشار لظاهرة أكثر خطورة وهي ظاهرة الثأر بين أفراد المجتمع اليمني القبلي، وما كان لها من انعكاسات على بقية أفراد المجتمع، وتحديداً في زبيد.

و- انتشار العصبية القبلية بين أبناء القبائل اليمنية في تهامة وزبيد، وتغذيتها من قبل الزعامات القبلية وتشجيعهم لها، مما زاد من توتر المجتمع، وزيادة نسبة الجريمة بين أفراده، وانعكاس مثل هذه الأمور الخطيرة على أبناء المجتمع الطاهري في زبيد وغيرها[٣٤].

ز- تفشي المسكرات والمواد المخدرة بين فئة من أبناء مجتمع مدينة زبيد، والتعاطي الملحوظ لها بينهم، دون الخوف من الله تعالى، مع تراخي دور الدولة -على ما يبدو- وعدم التعامل بشدة مع من كانوا يتعاملون مع الخمور أو يقومون بتصنيعها وبيعها من البداية؛ لدرجة أن أصبح لمروجيها شوارعهم وأسواقهم الخاصة ببيع مثل هذه المسكرات، وهو ما سمح لبعض من أبناء زبيد التي تميزت باكتظاظها السكاني لتعاطي مثل هذه المسكرات أو بيعها والمتاجرة بها[٣٥].

ح- من خلال بعض الأحداث التي شهدتها مدينة زبيد خلال مدة الدارسة يتبين لنا أن هناك غياباً لدور الجهات المسؤولة في الدولة والمجتمع المدني، في الجانب التوعوي الكافي، بل وتغاضي بعضهم عمّا كانوا يشاهدونه أو يسمعونه عن تلك المشكلات الخطيرة، فضلاً عن وجود الأرضية الخصبة لانتشارها بين فئة معينة من الناس، بعد غض طرف المجتمع عنها؛ لاسيما كبار فقهاء المجتمع وعلمائه الذين لم نجد لهم أي دور أو معارضة -إلا فيما ندر-، مع عدم ارتقاء تلك المعارضة والتوعية إلى حجم تلك المشاكلات وهولها، وهو ما جعل بقية أفراد مجتمع مدينة زبيد يتغاضون عمّا كان يحيط بهم من مساوئ ومعاصٍ وفواحش مخلة بالمجتمع، وتحديداً في بعض المناطق المزدحمة بالسكان والأسواق[٣٦].

ط- وجود بعض بؤر الفساد، لاسيما في بعض أحياء هذه المدينة التي كانت تعد من المدن اليمنية الكبرى، وغياب الرقابة عليها من قبل الجهات المختصة في الدولة، مما جعل من تلك البؤر فيما بعد تكون نواة لبقية المفاسد، وأماكن لانتشار المحرمات، بعد أن لقيت لها رواجاً بين فئة من الناس كانت من ناحية نفسية وأخلاقية مهيأة لتقبل أي من تلك الأمراض الخطيرة، نتيجة لضعفها، وقلة مناعتها إزاء ما وجدته حولها[٣٧].

ي- التردي الفكري والديني والأخلاقي بين فئة من أبناء زبيد، والوافدين عليها من خارج اليمن؛ وعدم تمييزهم بين الحلال والحرام، والصحيح والخطأ، وهو ما لاحظناه من خلال ما ارتكب من معاصٍ وجرائم دون إدراكهم لعواقبها الوخيمة عليهم وعلى من حولهم من أبناء مجتمعهم الذي واجه الكثير من المشكلات بسبب ما ارتكبوه[٣٨].

ك- يتبين لنا أنه كان للوضع المادي المتدهور لعدد من الفئات البسيطة، وانتشار الفقر والحاجة إلى المال بينهم، دور في اتجاه بعضهم إلى السرقة، وقطع الطريق، والتورط في بعض المشكلات غير الأخلاقية لسد حاجاتهم المادية، وتوفير لقمة العيش لهم ولأسرهم.

ل- انتشار الزوايا والقبور المشهورة التي أصبحت بسبب مكانتها الدينية لدى عدد من أهالي زبيد بما فيهم كبار القيادات في الدولة ملجأً لأصحاب الجرائم المختلفة؛ يتخفون فيها ليكونوا بمأمن من أيدي رجال السلطان أو أصحاب الحق، حتى أسهم هذا الأمر في أن تشكل تلك الزوايا أماكن وبؤراً للقتلة والمجرمين، وكل من ارتكب جرماً يخاف أن يحاسب بسببه[٣٩].

ونصل هنا إلى خلاصة مفادها؛ أنه كان لكل واحد من تلك الأسباب دوره في أن يتعرض المجتمع اليمني للكثير من المشكلات الاجتماعية التي أثرت فيه بشكل سلبي، وصارت تشكل وباءً خطيراً تأذى منه الجميع دون استثناء حاكماً ومحكوماً، مع العلم أن تلك المشكلات تنوعت بين جرائم خطيرة، وأمراض اجتماعية، ومفاسد أخلاقية، ومعتقدات خاطئة، نحن بصدد دراستها في المباحث التالية.

## ثالثاً: الجريمة ومدى انتشارها في مدينة زبيد:

شكلت الجريمة واحدة من بين أهم المشكلات الاجتماعية التي تفشت في المُجتمع اليمني خلال عهد السلطان الظافر عامر الثاني، ومن الملاحظ من خلال دراستنا هذا التنوع الملحوظ في نوعية الجريمة التي عرفتها أحياء مدينة زبيد- موضوع بحثنا-، إلا أن ما ميز هذه المشكلة الاجتماعية هو الأسلوب الهمجي والبشع عند القيام بها، والذي عادة ما يتخلى فيه الجناة عن إنسانيتهم عند ارتكابها، دون النظر إلى عواقب ما ارتكبوه وآثاره عليهم وعلى المجني عليه، ومن أهم هذه الجرائم:

### ١- القتل:

كانت جريمة القتل من أبرز ما ظهر

في مدينة زبيد في المدة موضوع الدراسة، لاسيما وأنها كانت تبرز وتنتشر في مراحل معينة، وتقل أو تختفي في مراحل أخرى، وفي أحياء معينة حسب قوة الدولة وضعفها، وعلى ما يبدو أنه كان لانشغال دولة السلطان عامر بما واجهتها من صراعات قبلية وأسرية وغيرها دور في ضعفها وعدم قدرتها على ضبط الأوضاع الأمنية، والتعامل السريع مع مثل تلك المشكلات عند ظهورها مباشرة، الأمر الذي أدى إلى تفشيها بسرعة كبيرة.

ومع هذا، فإن ما يهمنا من دراستنا لجريمة القتل في هذا البحث هو التعرف بشكل أكبر إلى أشهرها وأبشعها، لاسيما التي أثارت خوف الناس وفزعهم، وتُعد الجريمة التي شهدها حائط المنظرة -أشهر شوارع زبيد- في آخر يوم من سنة ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م؛ من أشهر ما أرتكب في المدينة من جرائم؛ وذلك حين أصبحت امرأة مقتولة خنقاً دون أن يعرف قاتلها، وعلى الرغم من توجيه أصابع الاتهام لعدد من أهالي هذه المدينة فإن الأدلة والبراهين لم تثبت إدانتهم، فأفرج عنهم[٤٠]، وظلت ملابسات هذه القضية مجهولة، وكان لفشل القبض على مرتكبيها أثره في سكان زبيد الذين أقلقهم أن يتكرر مثل هذا الأمر، لاسيما وأن من قام بمثل هذا الجرم ما يزال طليقاً، وقد يكون بينهم.

وتتابع الأحداث لتسجل عدداً آخر من جرائم القتل التي حدثت في مدينة زبيد وبعض القرى التابعة لها، ولأهميتها وما كان لها من تأثير في الشارع التهامي، حاولنا رصدها وجمعها والتعرف إليها، ومن هذه الجرائم جريمة القتل التي حدثت في زبيد ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م بعد أن تفشى في بعض شوارعها الفساد والفسق والخمور، وكان ضحيتها رجل يعرف بـ: أبي العباس عبداللطيف بن الخطاب، قاضي الرقعة[٤١]، وإصابة ابن عمه عثمان بن عبدالباقي بن الخطاب[٤٢]. في حين شهدت سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م جريمة قتل أخرى في قرية المزجاجية[٤٣] القريبة من زبيد، فقد قتل فيها شخص يدعى عبدالله بن أحمد العريمي على يد عبد لابن عمه عيسى بن علي العريمي، بسبب قضايا مالية جعلته يدفع بهذا العبد لقتله، وذلك بعد أن استغل وقت راحته ونومه لينفذ جريمته، بجذع من حطب ضربه به في رأسه حتى فارق الحياة[٤٤]. كما شهدت مدينة زبيد جريمة قتل أخرى سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م تسببت في مقتل شاب يعرف بالصديق بن أحمد بن هاشم، على يد صديقٍ له يعرف بابن أحمد

ابن الحاج الذي قبض عليه من قبل مَن كان حولهم من الناس ليسلموه للدولة لكي يلقى جزاء جريمته[٤٥].

وفي ظل التفلّت الأمني الذي كانت تشهده اليمن في بعض المراحل، لم تعد جرائم القتل والنصب والاحتيال مقصورة على السكان الأصليين من أهالي المدن والقرى والبوادي، بل شجع ذلك بعض القادمين من خارج اليمن على التعامل بأساليب النصب والاحتيال، التي غالباً ما تؤدي إلى جريمة القتل، ويبدو أن ما كان يصدر من تصرفات من قبل الوافدين إلى المدن اليمنية المختلفة كان يثير أهالي هذه المدن، أكثر مما تثيرهم تصرفات أبنائهم أو أهالي المدينة الأصليين؛ لما كانوا يرون فيه من تعدٍّ على حرمات مدينتهم من قبل الوافدين إليها، وتعد الجريمة التي حدثت في زبيد سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م من الجرائم التي أثارت أهالي هذه المدينة، وذلك عندما قتل رجل أعجمي يعرف ببني مارندران -يدَّعي أنه شريف- رجلاً أعجمياً آخر من أهل شيراز[٤٦]، بسبب أمور مالية أدت إلى نكران أحدهما للآخر؛ مما دفع المارندران إلى قتل صاحب شيراز للاستحواذ على المال الذي كان قد وضع عنده أمانة، ويبدو أن النوايا الإجرامية التي كانت موجودة في داخل المارندران، والطمع الذي أعمى بصيرته دفعه إلى التحايل على صاحب المال حتى استدرجه إلى داره ثم قام بقتله على حين غفلة[٤٧].

والملاحظ، من خلال نماذج الجرائم التي ذكرناها أن الاختلاف في الشؤون المالية تُعد من أكثر الأمور التي كانت تثير الخلاف بين الناس وتؤدي إلى القتل[٤٨]، ومع ذلك شهدت اليمن قضايا قتل أخرى كانت أشد بشاعة ودموية من سابقتها، حتى أن أسلوبها ووحشيتها أدت إلى إثارة خوف الناس وفزعهم في المناطق التي ارتكبت فيها، لاسيما وأن مثل هذه القضايا لم تكن بالقضايا الاعتيادية؛ بل شكل بعضها قضايا رأي عام لتهديدها لأمن واستقرار المجتمع بمن فيه، ومما ورد في ذلك؛ قضية المرأة التعزية الدلالة التي فُقدت في زبيد سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م، بعد أن كانت قد أخذت مصاغ وحلي من الذهب واللؤلؤ من بيت شخص يعرف بالفخري بن طلحة لتكتريه لشخص يسمى إسماعيل بن عبداللطيف المحالبي، وهي عادة عرفتها اليمن في ذلك الزمن واستخدمها الناس في المناسبات الأسرية المختلفة، وقد دفع اختفاء هذه المرأة أهلها وصاحب المصاغ إلى التوجه إلى المحالبي للسؤال عنها، وأمام إنكاره التواصل معها أو معرفتها، اضطر أهلها وصاحب المال إلى أن يشتكوه إلى أمير

زبيد الشريف العفيف عبدالله بن علي بن سفيان؛ الذي طلب المحالبي إلى مجلسه للتحقيق معه، وأمام رفضه الجلوس أمامه وإصراره على النكران، كثف أمير زبيد من تحرياته وبحثه في هذه القضية حتى ظهرت حقيقتها التي أثارت عامة الناس في زبيد، إذ تبين أن المحالبي كان قد اكترى (استأجر) بيتاً بأحد حافات (شوارع) زبيد، تعرف بحافة (باب النخل) دون علم أحد، ثم استدرج هذه المرأة إليه بعد أن حفر لها حفرة عميقة فيه، ووضعها فيها بالقوة ودفنها، حتى إنه عند نبش الحفرة وجدت المرأة جالسة بكامل لبسها، ويديها على رأسها، وقد فارقت الحياة، وكأنها كانت تحاول أن تدفع عن نفسها التراب والحجارة عند صبه فوقها، إلا أن ما أثار أهالي زبيد ومن حولها هو أنه تبين أن الرجل دفن المرأة الدلالة وهي حية دون شفقة أو رحمة، لا لشيء ولكن للحصول على ما معها من مصاغ، مما جعل قضيتها قضية رأي عام لما فيها من قسوة وإجرام وقلة إنسانية[٤٩].

وفي الوقت نفسه، شهد شارع (ربع المعاصر) في مدينة زبيد سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م جريمة أخرى قتل فيها رجل يعرف بابن عبداللطيف بابكير، بعد أن قام رجل يعرف بابن المصري بطعنه بوحشية وإجرام في رأسه وظهره حتى الموت، بسبب مناوشات حدثت بينهما، وقد أثار هرب القاتل وعدم تمكن الدولة منه أهالي هذه المدينة، وأزعجهم لاستمراره حراً طليقاً دون عقاب[٥٠]. في حين دونت جريمة قتل أخرى في مدينة زبيد سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م ناتجة عن بعض الخلافات التي كانت تحدث بين شباب هذه المدينة، قُتل فيها الشاب إسماعيل بن الصديق الصفار على يد شاب آخر يعرف بداود بن محمد الرق، وكسابقتها من الجرائم؛ هرب الجاني إلى بيت أحد الفقهاء ليكون في حمايته مما اقترفه من جرم، الأمر الذي جعل أهل المقتول ومن يحيط بهم يقفون حائرين أمام هذا التصرف الإجرامي[٥١].

وعلى أية حال، فقد سجلت زبيد أكثر حالات انتشار جريمة القتل من بين مدن اليمن الأخرى، لاسيما وأنها مدينة تميزت بكبر مساحتها، وتشعب أزقتها وشوارعها، والتنوع العرقي فيها، والكثافة السكانية، وضعف الأمن، وقلة الاستقرار لانشغال الدولة بما واجهته من مشكلات وفتن، وقد بلغ الأمر ببعضهم إلى ارتكاب جرائمهم في وسط سوق المدينة، وأمام أعين مرتاديه وسمعهم، ثم الخروج أمام الملأ دون خوف أو رهبة من أحد، بما فيهم

رجال الدولة الذين كانوا يمثلون الأمن في المدينة، وتُعد الجريمة التي حدثت في سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م في (سوق الأساكفة) وراح ضحيتها أحد أصحاب دكاكين هذا السوق، ويعرف بولد أحمد بن عمر الجابي، من أشهر هذا النوع من الجرائم، وككثير من الجرائم التي شهدتها هذه المدينة، يذكر ابن الديبع(٥٢) أن منفذيها خرجوا بأسلحتهم أمام الناس ليستجيروا ببيت أحد كبار مشائخ المنطقة، إلا أن من أكثر الأمور التي كانت تزيد من استياء الناس أن تقيد جريمة القتل (ضد مجهول)، لعدم معرفة القاتل، وفشل الدولة في ضبطه، كالجريمة التي حدثت في (حائط المنظر) في سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م، وقيدت ضد مجهول(٥٣).

وقد يصل الأمر بضعف الدولة وعدم قدرتها على حماية الموقوفين لديها على ذمة قضايا أخرى، أن تحدث قضايا التهجم والقتل لهؤلاء الموقوفين أمام رجال الأمن المسؤولين عن حمايتهم، ومن أشهر قضايا القتل هذه، التي ذكرها لنا ابن الديبع(٥٤) التي حدثت سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م وقال إنه راح ضحيتها عبدالله بن عمر بن الهادي القرشي الذي قتل بعد خروجه من مدينة زبيد على مرأى من أحد عسكر الدولة، كانت الضحية تحت مسؤوليته، لسبب لم يذكر، فضلاً عن حالات القتل التي يتعرض لها رجال الدولة بين فينة وأخرى على يد بعض القتلة والمجرمين(٥٥).

لقد كانت هذه الجرائم وغيرها دليلاً على أن هناك من الناس من عرف في ذلك الوقت بخطورته على المجتمع؛ لعدم اكتفائه بارتكاب جريمته فقط، أو إخفاء معالمها؛ بدفنها كأي جريمة قد تحصل في أي مجتمع يخاف صاحبها من أن تنكشف، بل يقوم أيضاً بالتمثيل بجثة المقتول أو تشويهها أو إحراقها دون رحمة أو شفقة، وتدلل لنا هذه الوحشية على أن هناك خللاً سلوكياً وأخلاقياً في نفسيات هؤلاء الجُناة دفعتهم إلى مثل هذه الأعمال المشينة، في حين يبدو أن بعض هؤلاء كانوا يعانون من أمراض واضطرابات نفسية خطيرة على المجتمع، حتى إن ذلك السلوك أتعب الأهالي وزرع بينهم الخوف والفزع وفقدان الأمن والأمان والاستقرار النفسي، لما كانت تحوم حولهم من وساوس وأوهام تشعرهم بأنهم قد يتعرضون لما تعرض له غيرهم من قتل وتمثيل. وقد شكل بعض هذه الجرائم قضايا رأي عام لما كان لها من صدى، ليس على مستوى سلطة المدينة فقط ورجال الأمن والمختصين منهم بحماية المجتمع وأفراده وأهالي المناطق التي شهدت مثل هذه الجرائم، بل وصل صداها وخطرها إلى

السلطان عامر الثاني شخصياً الذي أمر بالقصاص العاجل لمثل هذه الجرائم عند سماعه بها، ليخفف قليلاً من وقعها على الناس[٥٦]؛ ومع كل هذا استمرت الجريمة في مجتمع زبيد في المدة موضوع الدراسة، والدليل على ذلك ما شهدته المدينة من جرائم قتل مختلفة خلال السنوات: ٩١٧هـ ١٥١١م، وَ٩٢١هـ/ ١٥١٥م وغيرها[٥٧]، فضلاً عن الجرائم التي كانت ترتكبها القبائل فيما بينها ويذهب ضحيتها الأبرياء من أبنائها[٥٨].

**٢ـ السرقة وقطع الطريق:**

وتُعد من الأنماط السلوكية الخطيرة التي عانت منها بعض مدن اليمن في مدة الدراسة، لاسيما وأن مرتكبيها لم يكونوا أقل خطورة من غيرهم من القتلة والمجرمين الذين عاثوا في الأرض فساداً، وصاروا يشكلون قلقاً وإزعاجاً لمن حولهم، وتأتي خطورة مشكلة السرقة وقطع الطريق كون مرتكبيها في أحيانٍ كثيرة يندفعون إلى ممارسة سلوكٍ آخر غير سوي تكون عواقبه وخيمة، إضافة إلى سلوك السرقة، كالقتل – مثلاً– الذي قد يفعله السارق لكي تكتمل جريمته، وما قضية المرأة التي قُتلت في زبيد، والمرأة التي قتلت في عدن[٥٩] وغيرها من قضايا السرقة والاحتيال التي تؤدي إلى القتل، إلا خير دليل على مدى التمادي في ارتكاب الجرم الذي قد يتطور إلى أكثر من ذلك مقابل الحصول على مسروقات قد لا تكون بحجم الجريمة التي تزهق من أجلها روح إنسان.

وقد سجلت لنا بعض الكتب التي دونت لهذه المدة الزمنية العديد من حالات السرقة التي اختلفت أسبابها بين الفاقة والحاجة إلى المال، والخلل في سلوك بعض من يقوم بمثل هذه النوع من الجرم، وبين الرغبة في إشباع الذات لنقص يعود بصاحبه للأنماط التربوية والأخلاقية التي تربى عليها بعض هؤلاء اللصوص، فضلاً عن بُعد من يقوم بمثل هذه الأعمال عن الله تعالى، وضعف إيمانهم به، وعدم تمييزهم بين ما حرم وما أحل سبحانه وتعالى، دون الاكتراث إلى جرم فعلهم وانعكاساته على من حولهم.

وقد شهد عهد السلطان عامر الثاني حالات سرقة واحتيال وقطع للطريق، بهدف ابتزاز الناس ونهب أموالهم، وبرزت في أوقات مختلفة من تاريخ حكمه أسماء لعدد من الشخصيات التي امتهنت هذه الأعمال المشينة في أحياء زبيد، ومن هؤلاء حسب ما ذكره لنا ابن الديبع[٦٠] في أحداث سنة ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م؛ السراج بن الخاص الحمراني، والصديق بن الفقيه علي الحوايجي، وفتوح بن

إسماعيل المحمري، ومحمد بن البيطار النداف وغيرهم ممن سوف نتحدث عنهم لاحقاً.

ونتيجة لكثرة عدد من زاول هذه الأعمال وسعة انتشارهم في مناطق مختلفة، لم تعد بيوت العامة وأسواقها الأماكن الوحيدة التي يستهدفها اللصوص، بل توسعت هذه المشكلة ليصل أثرها إلى بيوت الله تعالى من مساجد وجوامع، مثلما حدث في سنة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م عندما سُرق من خزانة جامع السلطان الظافر عامر المعروف بالجامع الظافري بزبيد، الجزء الأول من كتاب: "خادم العزيز والروضة" للزركشي دون معرفة الفاعل(٦١)، ومن الملاحظ أن نجاح هذا الفعل شجع صاحبه أو غيره إلى تكرار السرقة مرة أخرى، ولكن هذه المرة من الخزانة السلطانية نفسها التي فقد منها كتاب آخر ومهم وهو الجزء التاسع من: " فتح الباري لشرح البخاري"(٦٢)، وقد بلغت الجرأة ببعض اللصوص إلى أن تمتد أيديهم إلى مقتنيات السلطان وأمواله، مثلما حصل في سنة ٩١٣هـ /١٥٠٨م عندما سرق عدد من الرجال أموالاً للسلطان وفروا بها(٦٣).

وعلى الرغم من الإجراءات التي اتبعتها الدولة للحد من هذه المشكلة فإن بعضهم ترك السطو على البيوت والمحلات التجارية؛ ليتجه إلى قطع الطريق على المارة وأمام مرأى ومسمع الدولة لسلب ما معهم من أموال، ومن أشهر من اتجه إلى ذلك رجل من قبيلة (المعازبة) في تهامة عرف بأحمد الزاهر، ظهر في سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م وتميز بجبروته وتجرُّئه على سرقة المارة دون أي وجه حق(٦٤)، في حين بلغ الأمر ببعضهم أن شكلوا عصابات متخصصة في إخافة عابري السبيل، وقطع الطريق على الناس والقوافل التجارية ونهب ما فيها، ومن هؤلاء رجل عرف بالقداسي المفسد، حيث أوجد له حصناً، وجمع من حوله عصابة من اللصوص فاق عددهم الخمسين رجلاً أصبحوا يشكلون قلقاً على المناطق التي وجدوا فيها(٦٥). علماً بأن أكثر من عمل في قطع الطريق على الناس في المدة موضوع الدراسة هم من زعماء القبائل ورجالها الذين اغتروا بعددهم وعدتهم ومكانتهم في مناطقهم، ليشكلوا عصابات تقطع الطريق وتنهب المارة؛ على الرغم من مكافحة الدولة وإرهابها لهم(٦٦).

ومهما يكن الأمر، فقد عانت مدن وقرى كثيرة في عهد السلطان عامر من السرقة، على الرغم من الإجراءات المشددة التي اتبعها مع مرتكبيها، وتعد مدينة زبيد التي عرفت بازدحامها وكثرة شوارعها وأسواقها ومحلاتها التجارية، إحدى تلك المدن، لاسيما بعد أن برز فيها أناس

اشتهروا بذلك بين أهالي هذه المدينة، أمثال ابن عَوْمان الذي ظهر سنة ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م، ووصف بأنه سرق من زبيد وغيرها كثيراً من الأموال، وبلغ به الأمر في إحدى سرقاته إلى التسلل إلى بيت رجل يعرف بحسين بن الزين الخراط -يبدو أنه تاجر- ليسرق منه قرابة ألفي دينار[٦٧]. كما اشتهر في زبيد سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م رجل مصري عرف بكثرة السرقة لبيوت الناس، وعلى الرغم المكائد التي عُملت لكشفه فإنه كان أكثر حرصاً ممن حوله، إلى درجة فشل الدولة والمجتمع في إثبات إدانته بالجرائم التي قام بها لمدة طويلة، مما دفع بالقائمين على أمن مدينة زبيد إلى إصدار أوامر بنفيه إلى خارج المدينة، ومع ذلك ظلت السرقة في دمه حتى تم ضبطه متلبساً بجرمه بعد التحايل عليه من قبل بعض الأهالي الذين تمكنوا من خداعه وفضحه ثم القبض عليه وتسليمه للدولة[٦٨]. كما ظهر في زبيد سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٩م أيضاً عدد من اللصوص الذين اشتهروا بسرقاتهم المتعددة، أمثال: يعقوب بن المقدم الذي تعددت سرقاته لبيوت الناس هناك[٦٩]، وابن الضلع الذي فقد يده ورجله بسبب كثرة سرقاته المتكررة للناس في زبيد[٧٠]. وعبدالقادر بن محمد السلاسلي الذي ظهر سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م في زبيد يسرق وينهب ويخيف الناس ليلاً كشبح ذاع صيته، وصار هدفاً للمتربصين من أهالي هذه المدينة، لدرجة أنه فقد روحه مقابل هذا العمل غير الأخلاقي في إحدى المرات التي كان متخفياً فيها في أحد مساجد زبيد[٧١]، ومع ذلك ظلت بيوت ومحلات هذه المدينة وغيرها من المدن اليمنية المختلفة عرضة للصوص والسراق والمجرمين الذين لم يعد يخيفهم موقع المكان المسروق أو صاحبه[٧٢].

ومن العجيب، أن هذه الأعمال الإجرامية الخطيرة لم يزاولها الرجال فقط، كما قد يُوهم بذلك كثرة ما ذكرنا من أسماء اللصوص الرجال، بل كان للنساء نصيب فيها؛ إذ زاول بعضهن مثل هذه الأعمال دون خوف أو رهبة من الدولة أو المجتمع، ويذكر لنا ابن الديبع[٧٣] في أحداث سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م، بعض ممن أمتهن السرقة من النساء في ذلك العهد في زبيد أمثال امرأة تسمى بنت العكوز، وقد عرف عنها جرأتها الزائدة في سرقة من حولها، رغم ما تعرضت له من ضرب ونفي، فظلت تمارس السرقة في كل مكان تنفى إليه، يقول عنها ابن الديبع[٧٤]: "وما زالت تسرق، وتسرق، وتسرق وتعاقب، فلا ينكي فيها ذلك". ومنهنّ زوجة أبي الخير بن خليل التي ظهرت في عدن[٧٥].

وعلى ما يبدو أن جريمة السرقة من الجرائم التي عانى منها الناس في زبيد حتى نهاية الربع الأول من القرن العاشر على الرغم من عدم إشارة المصادر إلى ذلك صراحةً، بل ما أورده ابن الديبع[٧٦] في أحداث سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م عن ولد السلاسلي، وإسرافه في إخافة أهل زبيد وسرقتهم دليل على استمرار ذلك الأمر رغم العقوبات الصارمة التي اتخذتها الدولة ضد هؤلاء.

زبدة القول، إن السرقة وقطع الطريق كانتا من أخطر المشكلات الاجتماعية التي عرفتها زبيد في ذلك الوقت، على الرغم من الإجراءات الأمنية التي اتبعتها الدولة لمحاربتها، أو حتى التخفيف منها، فظلت شبحاً يخيف الناس ويقلق راحتهم، في زبيد ومعظم المدن اليمنية الأخرى.

**٣ـ التزوير:**

تُعد مشكلة التزوير، لاسيما تزوير العملة، من أهم ما عانت منه دولة السلطان عامر الثاني، لما كان لها من تأثير في اقتصادها وأسواقها ومعاملاتها الخاصة والتجارية، ومن الملاحظ أن بروز هذه المشكلة لم يأتِ كغيره من المشكلات إلا في وقت متأخر من عمر هذه الدولة، لاسيما سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م التي تؤكد المصادر التاريخية أن فيها تغيرت الفلوس وكثر زيفها، وعلى وجه الخصوص في مدينة زبيد التي كانت واحدة من بين أكبر مدن اليمن وأشهرها في ذلك الحين، وقد بلغ من تأثير زيفها إلى درجة قيام أمير هذه المدينة الذي لم تذكر المصادر اسمه، بإصدار أوامره لجميع الناس بالتعامل بها، ولم يقبل منهم غير ذلك، فامتثل الجميع لأوامره كما يقول ابن الديبع[٧٧].

وعلى ما يبدو، أن قضية تزوير العملة قد استفحل أمرها وزاد انتشارها في مناطق مختلفة من اليمن؛ بسبب تخاذل الدولة في ضبط المتسببين فيها والمزيفين والمروجين والموزعين للأموال المزورة، وهو ما دفع السلطان الظافر سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م إلى التحرك السريع من البلاد العليا إلى مدينة تعز أحد أهم مراكز ضرب العملة في ذلك العصر، وقيامه باستدعاء شيخ دار الضرب هناك الهادي بن منصور، ووجه له اتهاماً مباشراً بالغش في العملة، مما عرضه للحساب والتقييد فيما بعد، بعد أن ثبت تورطه وخيانته وغشه للعملة عند سكها[٧٨].

وعلى الرغم مما بذلته الدولة من جهود للحفاظ على قيمة العملة ومحاربة تزويرها، فإن هذه المشكلة نفسها عادت

مرة أخرى للظهور سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م، عندما تغيرت الدراهم السلطانية في مدينة زبيد وكثر زيفها، وتلفت أموال الناس بسبب ذلك، وبلغت عشر قفال[٧٩] ونصف قفلة بإثني عشر دينار فضة، مع أن وزنها الحقيقي سبع قفال ونصف قفلة، وقد تسبب هذا الأمر في اضطراب سعر العملة وضياع أموال الكثير من الناس بعد أن اختلطت أموالهم بالأموال المزيفة[٨٠].

وأمام هذا السقوط في العملة بسبب زيفها وغشها تطلب الأمر التحرك السريع من قبل الجهات المسؤولة لوقف هذا التدهور الذي جاء على اقتصاد الدولة وكبار تجارها، وراحت تلك الجهات تبحث عمن هم وراء هذا العمل الخطير؛ مما دفع ببعض أمراء بني طاهر إلى توجيه أصابع الاتهام إلى المختصين من الصاغة والصيارفة، ورسم عليهم بسبب اتهام جماعة منهم بقص العملة، وطلب منهم الوقوف بين يدي السلطان الظافر الذي كان شديداً مع كل من تورط منهم في عملية تزييف العملة، إلا أنهم أنكروا كل ما وجه إليهم من تهم[٨١].

ومن العجيب، أن المصادر التي بين أيدينا لم تسعفنا بأي أخبار أخرى عن مشكلة تزوير العملة بعد هذه الحادثة، وقد يكون ذلك بسبب الإجراءات الصارمة التي اتخذتها الدولة أو بسبب إغفال المصادر عن الاهتمام بمثل هذا الأمر؛ وهو الرأي الأصح، إذ إنه ليس من المعقول أن تنتهي المسألة بكل هذه السهولة، لاسيما وأنها شكلت ظاهرة وجدت في المجتمع، وتفشت ولابد أن تكون لها انعكاسات وتوابع.

**رابعاً: الأمراض الاجتماعية في مدينة زبيد:**

على الرغم من كثرة المشكلات السياسية والاقتصادية والبيئية التي ابتلي بها اليمنيون في العصر المذكور، وما كان لها من تأثير سلبي في حياتهم؛ فإن هناك مشكلات أخرى – إضافة إلى ما ذكرنا – زادت من محنة هذا المجتمع، وأثارت خوف أهله لما كان لها من انعكاسات في حياتهم وأخلاقهم وبيئتهم، وقد بلغ الأمر ببعض الباحثين المحدثين[٨٢] أن وصف بعض هذه المشكلات بالأمراض الخبيثة التي تصيب المجتمع بمن فيه، حكاماً ومحكومين، من أهل الدنيا والدين، وتؤدي إلى ركاكته، لاسيما وأنها أوبئة خطيرة قد تترك خلفها حالة من الانهيار الأخلاقي والبيئي والصحي والنفسي.

وعلى الرغم من المسحة البراقة التي تميز بها هذا المجتمع من صلاح وتقوى وعلم؛ أكدتها المصادر التي أرخت لهذه المدة

المهمة من تاريخ اليمن، وأثبتتها المنشآت الدينية والعلمية والخدمية التي كانت سمة لذلك العصر(٨٣)، فضلاً عن التطور العلمي الكبير المشهود به لليمن خلال تلك الحقبة التاريخية(٨٤)؛ فإن تلك المسحة الخارجية لا تلبث -في أحيان كثيرة - أن تتضح حقيقتها لمن يتعمق في البحث في تاريخ بعض الدول، فتبدو طلاء خارجياً قد يخفي وراءه انحلالاً خلقياً، وأمراضاً متوطنة خبيثة تثير الاشمئزاز والنفور، مثلما يقول عنها الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور(٨٥)، ولأهمية الموضوع حاولت البحث بدقة عن أهم هذه الأمراض وأخطرها على الناس في ذلك الحين، فوجدت أن هناك تنوعاً واضحاً في تلك الأمراض التي عرفتها زبيد في عهد السلطان عامر الثاني، ومن أهمها:

**١ـ الشذوذ الجنسي**:

كان الشذوذ الجنسي من مظاهر الانحلال الأخلاقي الذي بُليت به بعض المجتمعات الإسلامية، وعانى منه مجتمع مدينة زبيد في عهد السلطان عامر بنسب مختلفة، إذ كان يعد من أخطر الأمراض التي انتشرت بين عدد من الناس، وفي أحياء معينة من زبيد، فكان لها انعكاسات تربوية وأخلاقية خطير على المجتمع، وعلى ما يبدو أن جذور هذه المشكلة قد بدأت تتفشى في فترات محددة، لما ذكره ابن الديبع(٨٦) في أحداث سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م من انتشار لبعض الأمراض التي لا تنتشر إلا عن طريق العلاقات الجنسية غير الشرعية(٨٧)، وتعد سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م(٨٨)، وسنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م من أكثر السنوات التي برزت فيها ملامح هذه المشكلة بشكل لافت للنظر، خاصة وأنه ظهر فيها من المعاصي والفواحش والفجور ما جعل الكثير من الناس يتخوفون من تأثيرها في حياتهم الخاصة والأسرية، لاسيما بعد أن تفشى بين الكثير منهم وتحديداً في مدينة زبيد صحبة الأحداث جهاراً نهاراً. وقد بلغ من خطر هذه المشكلة وتفشيها أن تم أخذ بعض الصبيان من الأسواق ليلاً والدخول بهم إلى الأماكن المظلمة منها، ليُفعل بهم ما يُفعل، ولممارسة الشذوذ الجنسي بهم دون أي إنكار ممن حولهم من الناس، وقد شكل هذا الأمر مشكلة خاف منها من لم يتورط فيها من أبناء المجتمع، وتعالت أصواتهم بعد أن تحول هذا الأمر إلى ظاهرة انعكست على العديد من الجوانب الاجتماعية والأخلاقية والصحية(٨٩). في حين عانى مجتمع مدينة زبيد من زنى الذي وصل إلى درجة ظهور بعض حالات ما يسمى زنا المحارم، فقد ذُكر أن هناك من زنا

بزوجة أبيه في سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م[٩٠].

ومع ذلك، استمرت ظاهرة انتشار استعمال الذكور في السنوات اللاحقة[٩١] لاسيما في بعض أحياء زبيد، وازداد عدد الممارسين لها، أمام مرأى ومسمع الدولة وعلماء الدين من الفقهاء وغيرهم، وبخاصة بعد أن أصبح لهم شوارعهم وبيوتهم الخاصة بهم، وطقوسهم التي أشركوا فيها الكثير ممن يبحثون عن المتعة المحرمة، وقد بلغ بهم الأمر أمام سكوت من حولهم من أفراد المجتمع والجهات المسؤولة في الدولة، إلى جمع عدد من الناس، وإقامة الحفلات الماجنة المصحوبة بشرب الخمور وممارسة الرذيلة في بيوتهم، مما جعل من وجودهم ظاهرة أخلاقية سيئة دفعت الدولة في سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م إلى ضرورة التصرف السريع لإيقافها بعد أن بدأت آثارها تأتي على المدينة وأهلها، وبعد أن أصبح لهذا الموضوع انعكاسات خطيرة وجرائم تسبب في إحداثها هؤلاء الشاذون ببعض أبناء هذه المدينة الذين انصاع بعضهم لمثل هذه الأمراض الاجتماعية المدمرة[٩٢].

وبعد هذه الحادثة لم نجد في المصادر التي بين أيدينا أي ذكر حول مشكلة الشذوذ الجنسي، وقد يكون لصرامة الدولة في التعامل مع مثل هؤلاء أثره في محاسبتهم وتشتيتهم وتطبيق شرع الله عليهم، ودوره في التخفيف من هذه الظاهرة أو القضاء عليها، لعدم ذكر أي معلومات أخرى عنها لاحقاً.

**٢ـ الخمور والمسكرات**:

وتُعد من أكثر المشكلات خطورة، وأبرزها انتشاراً في عهد السلطان عامر الثاني[٩٣]، لما ترتب عليها من انعكاسات إجرامية وأخلاقية وأدبية، جاءت على كثير من أفراد المجتمع، لاسيما وأن خطورة هذه الظاهرة تأتي بسبب فقدان صاحبها للقدرة العقلية على إدراك ما يفعله مع من حوله من أفراد أسرته أو المجتمع المحيط به، وقد تفاقمت خطورة هذه المشكلة بعد أن أصبح للخمارين في العصر الطاهري بيوت ودكاكين لبيع الخمور، التي كانت توضع في دنان مخصصة لها، يسكب من خلالها لمتعاطيها كلٌّ حسب حاجته ونقوده، بل كان لها تجارها ومروجوها الكبار والمشهورون مثل ابن الوجيه الذي كان يملك في مدينة زبيد العديد من دكاكين بيع الخمر[٩٤]. وقد تميزت هذه الظاهرة في العصر المذكور بأن من عمل فيها ليس من الرجال فقط ولكن عملت فيها النساء أيضاً، وتعد شوارع مدينة زبيد وأزقتها من أكثر شوارع وأزقة المدن اليمنية بروزاً لهذه المشكلة، بعد أن انتشر بيع الخمور فيها من قبل الرجال

والنساء، إلا أن خطورة هذه الظاهرة زادت بعد أن ظهرت انعكاساتها على المجتمع، لاسيما بعد أن أصبحت هذه الشوارع أماكن للقتلة والمجرمين ومسرحاً للعديد من الجرائم التي راح ضحيتها العديد من الأبرياء من المارة الذين أصبحوا عرضة لأذية المتعاطين للكحول بعد خروجهم من محلات شرب الخمور، وقد سجلت كتب التاريخ بعض هذه الجرائم التي ارتكبها بعض المخمورين؛ مثل الجريمة التي شهدتها زبيد سنة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م، وقتل فيها رجل من المارة يعرف بـ: أبي العباس عبداللطيف بن خطاب[٩٥].

وعلى أية حال، فقد شكلت ظاهرة شرب الخمور وباء خطيراً على المجتمع اليمني في المدة موضوع الدراسة، لاسيما وأن جميع أساليب الدولة وطرقها لم تجدِ نفعاً مع متعاطيها بعد أن ظهر ملازما لها الفسق والفجور وغيره[٩٦]، وظلت هذه المشكلة في تفاقم مستمر، ولمدة طويلة من عمر هذه الدولة؛ ومما يؤكد لنا تفاقم هذه المشكلة خلال المدة اللاحقة الوصف الدقيق الذي قدمه لنا ابن الديبع عند حديثه عن حال المجتمع في زبيد سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م، وما تفشى فيه من فسق وانحلال أخلاقي وفجور بلغ حد المجاهرة في شرب الخمور خلال بعض الأشهر المباركة، مثل شهر رمضان، إضافة إلى ارتكاب بعضهم للمحرمات المختلفة، وقد قال ابن الديبع[٩٧] في ذلك: "ظهر بمدينة زبيد من الفسق والمعاصي والفجور وشرب الخمور وشهادات الزور، ما لم يعهد بها قبل ذلك، حتى وجد في شهر رمضان جماعة يشربون الخمر بالنهار، وحكي عن بعضهم أنه باع بنتاً له، وعن بعضهم أنه تزوج بنت زوجة أبيه، وفشا بين الناس صحبة الإحداث". وقد يكون هناك نوع من المبالغة فيما قدمه لنا ابن الديبع من وصف لحال مجتمع زبيد، إلا أنه مع ذلك مدنا بصورة واقعية بعض الشيء، رسم لنا من خلالها حال هذا المجتمع، وما وجدت به من أمور استنكرها هو نفسه وعلماء ذلك العصر؛ لما ترتب عليها من آثار سوف نتحدث عنها بالتفصيل في المباحث اللاحقة.

وعلى ما يبدو، أن مشكلة شرب الخمور من المشكلات التي لم تجد لها الدولة علاجاً قاطعاً في مدينة زبيد، وهو ما يؤكده يحيى بن الحسين الذي يذكر في أحداث عن سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م أن الفسق انتشر في هذه المدينة، بعد أن انتشرت الخمور، وظهر أثرها بشكل كبير على الأهالي[٩٨].

وكيفما كان الأمر، فعلى الرغم من انتشار ظاهرة شرب الخمور بين فئة من أبناء

المجتمع الطاهري؛ فإن الرواج الأكبر لمثل هذه الظاهرة كان قد وجد بين من مارسوا الشذوذ الجنسي في بعض المدن اليمنية مثل مدينة زبيد، الذين اشتهرت بيوتهم وأماكن تواجدهم بأنها كانت مواضع لشرب الخمور، كما أصبحت الخمور من الأشياء المعتادة التي يتعاطونها في لحظات نشوتهم، وعند إقامة حفلاتهم الماجنة التي يدعو لها من هم على شاكلتهم من أبناء هذه المدينة[٩٩].

**٣- الاعتقاد بالأولياء والمشايخ:**

عُرف المجتمع اليمني منذ القدم بتقديره واحترامه للأولياء والصالحين وكبار المشايخ وقبور من مات منهم وزواياهم، وقد بلغت درجة الاحترام والتقدير إلى أن تصبح تلك البيوت والقبور والزوايا مواضع محترمة لها مكانتها وقدسيتها عند جميع أفراد المجتمع على اختلاف مكانتهم وتعدد طبقاتهم، لدرجة قد يتوقف فيها الشرع والقانون عن التطبيق والفصل في الكثير من القضايا إذا ما لجأ الجاني إليها، وقد يرى بعضهم أن تلك المسألة التي تعطي للأولياء والمشايخ مكانة دينية خاصة تعد من الأمور الطيبة التي قد يتميز بها أي مجتمع متدين ومحافظ على عاداته وتقاليده ومعتقداته، إلا أن ما يثير في هذا الموضوع (الاعتقاد بالأولياء والمشايخ وقبورهم) أن يتفاقم هذا الشيء ليتحول إلى مرض يصيب الجميع، فيستغله كثير من أصحاب الأمراض الاجتماعية – التي ذكرناها سابقاً- من القتلة واللصوص وأصحاب الجرائم المختلفة، ليزاولوا جرائمهم ويبثوا سمومهم دون خوفٍ أو رهبة لا من دولة أو مجتمع، لاسيما وأنهم يعرفون بأنهم سيستجيرون بقبور هؤلاء وبيوتهم[١٠٠]، وأن احترام وخوف المجتمع من التعدي عليها سيحميهم من أي حساب أو عقاب -إلا فيما ندر-، وتورد لنا بعض المصادر التاريخية التي بين أيدينا أسماء لعدد من هذه القبور والزوايا والبيوت في مناطق ومدن يمنية مختلفة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: زاوية الشيخ الغزالي[١٠١] بن طلحة الهتّار بمدينة زبيد، التي يقول عنها ابن الديبع[١٠٢]: " هي زاوية عظيمة محترمة، من عهد الشيخ الغزالي المذكور، من لجأ إليها مظلوماً أو خائفاً، أمن على نفسه وماله..."، كما وجد في عدن زاوية الشيخ الصالح عبدالله بن عبداللطيف العراقي (ت ٨٤٧هـ / ١٤٤٣م) التي كانت أيضاً ملجأ للهاربين من الدولة بسبب قضايا اجتماعية أو سياسية[١٠٣]. علماً بأن تلك القبور والزوايا ما هي إلا نماذج لغيرها من هذه المواضع التي انتشرت في مختلف مناطق اليمن ومدنها وقراها وبواديها وجبالها[١٠٤]؛ وتجنباً للتطويل حاولنا الاكتفاء بذكر هاتين

الزاويتين اللتين كانتا من أشهر ما وجد في اليمن، ولما دار حولهما من أحداث أولتها كتب التاريخ اهتماماً خاصاً. في حين بلغت درجة الاعتقاد ببعض هذه القبور والزوايا وببعض الفقهاء والصالحين إلى أن يصبحوا مزاراً لأصحاب الحاجات والمرضى، بل بلغ بهم الأمر إلى أن يدعوهم من دون الله لتحقيق بعض مطالبهم.

**٤ـ السحر والشعوذة:**

واجه المجتمع اليمني في المدة موضوع الدراسة مشكلة اجتماعية سلبية أخرى كان لها تأثيرها الخطير عليه وعلى أفراده ممن تعاملوا معها وعملوا بها، ألا وهي مشكلة السحر والشعوذة وادّعاء معرفة الغيبيات التي كانت سبباً في خروج بعض أفراد هذا المجتمع عن بعض تعاليم ديننا الإسلامي الحنيف[١٠٥]، وعلى ما يبدو أنه كان لحالة الجهل والتخلف التي تميزت بها شريحة واسعة في ذلك الحين، والفراغ الروحي والديني، وضعف الإيمان، والاعتقاد ببعض الدجالين والمشعوذين ممن سلبوا عقول الناس، دور فيما وصلت إليه هذه المشكلة من توسع وانتشار، ومن أبرز من عرف بالدجل والشعوذة والسحر رجل ظهر في منطقة تهامة سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م، عرف بإبراهيم الخواص من بني الأكسع، كان أحد فقراء الشيخ أحمد المشرع[١٠٦]، واشتهر في المنطقة بتمويهه وكذبه، واستخدامه لأنواع السحر التي كان يخيلها لهم، لدرجة ظنهم أنها كرامات زادت من رواج سوقه عند كثير من الجهلة[١٠٧]، فضلاً عن إدعائه معرفة الغيب الذي أدى إلى اعتقاد جمع كبير من الناس به وبقدراته، لاسيما من أفراد الفئات البسيطة في المجتمع والجهلة مثل العبيد والمفسدين والبدو من أهل المناطق الجبلية، ممن وجد في مناطقهم ملاذاً آمناً لبث سمومه ومفاسده وسحره وشعوذته بينهم[١٠٨].

**خامساً: أثر المشكلات الاجتماعية في مجتمع مدينة زبيد:**

لقد كان لكل تلك المشكلات التي ذكرناها سابقا انعكاسات كبيرة وخطيرة على المجتمع اليمني الذي عانى من كل ذلك، ووقف موقف الرافض لها، حسب ما ورد في بعض المصادر التي أرخت لمرحلة الدراسة، فإذا ما وقفنا أولاً أمام مشكلة الجريمة بكل تفريعاتها، لاسيما ما انتشر منها في بعض الأوقات بشكل لافت للنظر – وصل حد الظاهرة– نجد أنه كانت لها آثار بالغة على حياة فئات من الناس دون استثناء، إذ صارت هذه المشكلة شبحاً مخيفاً ومقلقاً عانى منه الحاكم قبل المحكوم، والغني قبل الفقير، وهو ما يؤكده ابن الديبع[١٠٩] عند حديثه عن مقتل ابن مخارش ولد صاحب

الجوف الذي قتل في مخيم السلطان الظافر برداع العرش، حيث يقول في ذلك: أصبح ولد بن مخارش صاحب الجوف مقتولاً في مخيم السلطان برداع العرش، ولم يعلم قاتله، فتعب السلطان من ذلك وفحص عن قاتله فلم يقدر عليه. ويدلل لنا ابن الديبع بقوله: "فتعب السلطان" على مدى الحالة النفسية السيئة التي وصل إليها الظافر في هذه اللحظات بسبب الجريمة التي وصلت حتى عقر داره، لتنال ضيوفه، وتشكل عاراً في حقه وحق رجال أمنه أمام المقربين منه ورعيته، ممن رأوا أن عدم قدرة السلطان على ضبط الأمن في قصوره، دليل على فشله في تحقيق الأمن لرعيته، واهتزاز مكانته ونظرة الناس له في هذا الجانب.

كما تسببت الجريمة في نشر الخوف والفزع والاضطراب الأمني والنفسي والاجتماعي في نفوس الناس؛ مما ساهم في عجز الدولة عن كشف ملابسات بعض الجرائم، التي شجعت غيرهم على ارتكاب جرائم أخرى زادت الوضع سوءاً. كما تسببت هذه المشكلة في انتشار ظاهرة اجتماعية أكثر خطورة من غيرها وهي ظاهرة الثأر؛ لاسيما بين أبناء المجتمع القبلي الذين شكل الثأر جزءاً من شخصيتهم، وجانباً مهماً من رجولتهم التي لا يستطيعون الحفاظ عليها إلا به (بالثأر) للحفاظ على مكانتهم ومركزهم بين القبائل الأخرى، مما تسبب في قتل العديد من الأبرياء ممن لا ذنب لهم[١١٠].

وعلى أية حال، فلم تكن انعكاسات مشكلة السرقة وقطع الطريق بأقل ضرراً من مشكلة القتل، إذ أدى انتشار السرقة في عهد السلطان الظافر عامر الثاني بن عبدالوهاب الطاهري بين عامة الناس وخاصتهم في الأسواق والبيوت والطرقات وغيرها إلى إرعابهم، وزيادة خوفهم على أملاكهم وأموالهم المختلفة، لاسيما بعدما وصلت الأمور إلى سرقة خزائن السلطان نفسه، ودُور العلم والمساجد، وبيوت البسطاء من العامة[١١١]، في حين زادت الأمور سوءاً عندما بلغت السرقة الطرقات التي تمر بها القوافل التجارية؛ لدرجة قد تؤدي إلى توقف حركة التجارة أو ركودها في بعض الفترات بسبب قطع الطريق على التجار الذين أوقفوا تجارتهم بين المدن بعد أن شعروا بفقدان الأمن في الطرق التي يسلكونها، خاصة وأنه لم يكن هناك أي رد فعل من قبل الدولة لصد هؤلاء وإيقافهم عند حدهم، إلا فيما ندر، في حين شجع انتشار هذه المشكلة وضعف الأمن بعضهم على اتباع أساليب متعددة للنصب على التجار؛ لأخذ أموالهم والهرب بها، أو الاتفاق مع بعض التجار لتهريب بضائعهم

بطرق مختلفة[١١٢] بحرية أو برية، تهرباً من الضرائب الجمركية التي كانت تفرضها الدولة عليهم، وشكلت بذلك عصابات أدى انتشارها وتعاملها مع التجار إلى الإضرار بالجانب الاقتصادي للدولة التي فقدت مصدراً من مصادر دخلها المالي الجمركي، أو التخفيف منه.

وفي الوقت نفسه، أدى انتشار بعض الأمراض الاجتماعية مثل: الشذوذ الجنسي في بعض المدن إلى ظهور أوبئة وأمراض خطيرة، لم يعهدها أهل اليمن قبل ذلك في حياتهم، ويعد مرض النار الفارسي الذي انتشر في المدة من سنة (٩٠٦-٩٠٩هـ/ ١٥٠٠-١٥٠٣م) في أحياء مدينة زبيد وغيرها من أخطر تلك الأمراض وأكثرها بروزاً، وهي عبارة عن حبوب وبثور تنتشر في الجسم بشكل كثيف ومخيف، وعلى ما يبدو أنها كانت معدية، ومتنة ومؤلمة ومشوهة لجسم من يصاب بها، وفضلاً عمّا يصاحب المريض بها من مضاعفات أخرى مثل الحكة الشديدة والالتهاب المزعج، ويصف لنا ابن الديبع[١١٣] أثر مرض الحبوب المعروفة بالنار الفارسي التي زاد تفشيها سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م بقوله: وكان قد كثر ببلاد اليمن وزاد، وذهب عن الناس وعاد، واستمر معهم من أوائل سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م فيما بعدها، وحُرجت منه الصدور، وضاقت النفوس. ويعيد ابن الديبع[١١٤] كل ذلك إلى إتيان الأحداث والصبيان والفحش بهم، وهو ما يؤكده يحيى بن الحسين[١١٥]. في حين أدى انتشار الشذوذ الجنسي إلى تفسخ وانحلال بعض فئات المجتمع، وزيادة الفواحش والرذائل التي عمل الشاذون جنسياً على تفشيها بين أبناء المناطق التي وجدوا فيها، لدرجة أصبحت فيها بيوتهم ومحلاتهم أماكن لتجميع المنحلين أخلاقياً من الناس لشرب الخمور وممارسة الرذيلة والفحش الذي لا يقبله شرعٌ ولا عرف، حتى أن منهم من استقطب بعض الصبيان والمراهقين والشباب لهذه البيوت لمشاركتهم جلساتهم وحفلاتهم ومعاصيهم، فكان ذلك سبباً في ضياعهم وتدمير أخلاقهم ومستقبلهم[١١٦]، لاسيما بعد أن انتشرت بينهم الجريمة من قتل وسرقة وغيرها.

إضافة إلى ذلك، كان لانتشار الخمور وتزايد أعداد متعاطيها انعكاساته الخاصة والعامة على الأسرة اليمنية والمجتمع، لاسيما وأن بعض الجرائم التي شهدتها اليمن في شوارع بعض المدن اليمنية وأزقتها من قتل وغيره كان مرتكبوها مخمورين[١١٧]، في حين أدى انتشار شرب الخمور إلى تفسق المجتمع وانحلاله بعد انتشار المفاسد بين فئة معينة فيه، ووصل

الأمر ببعض الأفراد إلى ارتكاب المحرمات والمجاهرة بها والزنا بالمحارم واللواط وغيرها حتى في الأشهر الحرم[١١٨]، بعد أن تجرد هؤلاء من كل مشاعر الإنسانية والأخلاق والقيم والمعتقدات التي حثنا ديننا الإسلامي على تجنبها.

كما تأثر الناس في المدة موضوع الدراسة بحالات التزوير التي تعرضت لها العملة، وأدت إلى أن تفقد العملة الرسمية قيمتها النقدية، ويفقد التجار وأصحاب الأموال الكثير من قيمة أموالهم بسبب ما ظهر عليها من غش وتزوير، قلل من سعر التعامل بها في الأسواق وفي المعاملات الخاصة، فشكل ضربة موجعة لرجال المال والأعمال، وعلى الرغم من محاولات الدولة حل هذه المشكلة والكشف عن مواضع الخلل فيها فإن محاولاتهم هذه لم تجد نفعاً، لاسيما وأنهم لم يتمكنوا من كشف المتلاعبين بها.

إلا أن أبرز الأمور التي شجعت العديد من عامة الناس وخاصتهم على ارتكاب الجريمة من قتل وسرقة ونصب وتحايل وتزوير ما عرف في التاريخ بنظام الاستجارة ببيوت وزوايا وقبور كبار علماء اليمن ومشايخها وأوليائها، ممن شكلت بيوتهم وقبورهم خطأً أحمر يصعب على الدولة والمجتمع تعديه، لما كان يعتقد بهم وبقدراتهم على إيذاء من يتجرأ على قبورهم أو بيوتهم تحت أي مبرر، وإن كان المستجير قاتلاً لرجل من بيت السلطنة الطاهرية، ومع ذلك لاحظنا تجرؤ بعض المتنفذين في الدولة الطاهرية – وهي حالات نادرة– على مهاجمة بعض تلك الزوايا والقبور، بعدما صارت ملاذاً أمناً للقتلة والمجرمين ممن أصبح وجودهم يشكل خطراً على المجتمع كافة[١١٩]. كما أدت ظاهرة الاعتقاد بالأولياء والصالحين وبقبور من مات منهم إلى التمسك بهم وتعظيمهم من دون الله تعالى، وهو ما يؤكد لنا ما وصل إليه المجتمع اليمني من تخلف خلال بعض الحقب الزمنية من تاريخه.

وإذا ما نظرنا إلى الآثار التي تركتها مشكلة السحر والشعوذة التي كان يعتقد بها حتى بعض كبار العلماء والفقهاء في زبيد، فقد أسهمت في انتشار التخلف والجهل، مع أن ديننا الإسلامي الحنيف يمنعنا من إتيان السحرة والمشعوذين والدجالين ممن امتهنوا هذا الأمر للحصول على الأموال الكثيرة ممن يعتقد بهم من الناس، في حين أدى التعامل بهذه الظاهرة بين الجهلة من الناس إلى زيادة حالات النصب والاحتيال والخداع والابتزاز لأموال هؤلاء ممن فاق اعتقادهم بهؤلاء المشعوذين اعتقادهم بالله تعالى.

لهذا، عانى المجتمع اليمني في مدة الدراسة من كل تلك المشكلات الاجتماعية التي انتشرت بين أفراده، وتأثر بما تركته من آثار وانعكاسات عليه، وكانت سبباً في انحلاله وتدهوره الأخلاقي والنفسي والصحي، ومع ذلك فإن هناك أشارات مختلفة تؤكد لنا أن هناك ردود أفعال ومواقف صارمة كان مصدرها الحكام وولاتهم وعمالهم وقضاتهم ورعيتهم ممن لم يريحهم هذا الوضع الخطير والسيئ والمشوه للمجتمع، وأن هناك أساليب وطرقاً وإجراءات مختلفة اتبعتها الدولة الطاهرية للتخلص من تلك المشكلات أو التخفيف منها، وهو ما سنقوم بدراسته في المبحث القادم.

**سادساً: دور المجتمع اليمني في الحد من مشكلاته الاجتماعية:**

قد يعتقد القارئ لما تم استعراضه أنه كان هناك تخاذل وتقاعس كبير من قبل بني طاهر وولاتهم والمجتمع أمام كل المشكلات المجتمعية المذكورة سابقاً في زبيد وغيرها؛ والحقيقة التي ظهرت أمامنا جلية من خلال التعمق في هذه الدراسة أن هناك مواقف جادة، وجهوداً كبيرة وحثيثة بذلت من قبل جميع القائمين على هذه الدولة وبعض الشخصيات المؤثرة في المجتمع، مع تقصير بعضهم في واجباتهم ومسؤولياتهم أمام ما برز أمامهم من مشكلات، وبعد البحث وجدنا أن موقف آل طاهر وجميع الخيرين من أبناء المجتمع في محاربة مثل هذه المشكلات السلبية جاء بطرق وأساليب إجرائية مختلفة، أخذوا في تنفيذها وتطبيقها للتخلص من تلك المشكلات أو حتى التخفيف منها، ومن تلك المواقف والأساليب:

**١ـ موقف السلطان عامر الثاني من المشكلات الاجتماعية:**

لقد استدعت خطورة بعض المشكلات التي انتشرت بين فئات معينة من أبناء مدينة زبيد في العصر المذكور ضرورة تدخل السلطان عامر الثاني بوصفه حاكماً ومسؤولاً أمام الله تعالى، وقد تبين لنا من خلال دارستنا هذه أن هناك تنوعاً ملحوظاً في أساليب وطرق التعامل مع كل مشكلة من تلك المشكلات المجتمعية، فكانت أحكام الشريعة الإسلامية الغراء هي الحل للتخلص من أكثر هذه المشكلات التي تنافت مع ما جاء به ديننا الإسلامي، في حين حتّمت بعض المشكلات على السلطان والقائمين على دولته ضرورة فرض هيبة الدولة، واستعمال القوة لمعالجة بعضها[١٢٠]، وهو ما سندرسه لاحقاً.

**أـ تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وفرض هيبة الدولة:**

حرص بنو طاهر منذ تأسيس دولتهم على أن تكون الشريعة الإسلامية هي الدستور الرسمي لسياستهم، والمنهج القويم لدولتهم لحل ما سوف يواجههم من مشكلات اجتماعية سلبية منافية للعقيدة الإسلامية، وعادات المجتمع اليمني المحافظ وتقاليده، فراحوا في تطبيق أحكام الشريعة بشكل جاد وصارم[١٢١]، إلا أن ذلك لم يمنعهم من انتهاج أسلوب المرونة -أحياناً- مع بعض من تأثروا بتلك المشكلات أو عملوا بها، وعدم الفصل معهم مباشرة إلا بعد إعطائهم فرصة لمراجعة أنفسهم وإعادة حساباتهم، في محاولة لإصلاحهم بالطرق السلمية والنفسية. ويتبين لنا من خلال ما حصلنا عليه من معلومات أن هناك إجراءات صارمة وأحكاماً نافذة صدرت عن القضاء الطاهري، تدل على أن هناك مواقف رافضة، ومحاربة شديدة لمن تورطوا في مثل تلك المشكلات والأمراض التي أثرت في المجتمع، مع حرصهم على تقصي الحقائق قبل إصدار الأحكام الشرعية، وترك من لم يثبت عليه شيء من التجاوزات الناجمة عن تلك المشكلات[١٢٢].

وعلى الرغم من تعدد المشكلات التي ذكرناها آنفاً فإن مشكلة القتل كانت من أكثر المشكلات الاجتماعية التي طبقت عليها أحكام الشريعة الإسلامية، لما لها من انعكاسات خطيرة على المجتمع، وتورد لنا المصادر التي بين أيدينا الكثير من تلك الأحكام، ومما ذكرته في هذا الجانب أنه في سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م صدر حكم الإعدام بحق من قتل النقيب دَرْبوسن، بعد أن ثبتت إدانته، وقبض على من حرضه أو سانده[١٢٣]، في حين بذلت الدولة الطاهرية كل جهدها في متابعة ملابسات الكثير من قضايا القتل التي انتشرت في ذلك الحين للقبض على الجناة المتهمين فيها، وتنفيذ شرع الله عليهم إذا ما ثبت ما يدينهم فيها[١٢٤].

وفي الوقت نفسه، طبقت الشريعة الإسلامية على من ثبت قيامه بأي نوع من أنواع السرقات، بعد إعطاء بعضهم الفرصة تلو الفرصة لمراجعة أنفسهم والتوبة، مع التشديد على كل من تسول له نفسه التعمق في هذه المشكلة التي زاد خطرها في المدة موضوع الدراسة، ومن تلك الأحكام على سبيل المثال لا الحصر: الحكم الذي صدر سنة ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م، بحق كلٍ من الشيخ السراج بن الخاص الحمراني، والصديق بن علي الحوايجي، وفتوح بن إسماعيل المحمدي، ومحمد بن البيطار النداف، بعد أن ثبت فسادهم بالسرقة وقطع الطريق على الناس

ونهب ما معهم، فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف[١٢٥]، ليكونوا عبرة وعظةً لغيرهم من الناس ممن تسول لهم أنفسهم التعمق في مثل هذا الأمر أو التمادي في مثل هذه المشكلات. ومن ذلك تطبيق شرع الله تعالى في حق شيخ دار الضرب في زبيد الشيخ إسماعيل السنبلي سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م، بعد أن ثبتت إدانته في غش العملة وتزويرها[١٢٦]. كما قطعت في سنة ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م يد رجل يسمى ابن عومان عرف بفساده، بعد أن سرق من زبيد وغيرها سرقات متعددة، وقبض عليه متلبساً بجريمته في بيت كان يسطو عليه[١٢٧]. وفي سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م قطعت يد امرأة سارقة تعرف ببنت العكوز، لسرقتها المتكررة، بعد أن حاولت الدولة تأديبها بالطرق الشرعية المسموح بها، كإعطائها فرصة للتوبة ومراجعة نفسها، إلا أن تماديها في هذا الأمر دفع القضاء الطاهري إلى إصدار حكم بقطع يدها على ما اقترفته من جرم[١٢٨]. كما قطعت في سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م يد رجل مصري تمادى في أذية الناس وسرقة بيوتهم وأموالهم في زبيد، فكان لذلك أثره في خلق حالة من الراحة والطمأنينة في نفوس أهالي هذه المدينة[١٢٩]، وفي العام نفسه ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م أمر القضاء الطاهري في مدينة زبيد بقطع يد يعقوب بن المقدم ورجله، بعد أن تم إلقاء القبض عليه وهو يسرق، وفي حوزته العديد من المسروقات[١٣٠]، وترصد لنا المصادر التي بين أيدينا حكماً قضائياً آخر في العام المذكور، يأمر بقطع يد رجل آخر يعرف بابن الضلع ورجله، بعد أن انتشر خبر سرقاته لمدينة زبيد ليلاً، واستجارته ببيت الشيخ الغزالي صباحاً للهرب من عقاب الدولة، وبعد تكاتف جهود الناس والدولة قبض عليه متلبساً بجرمه، وفصل القضاء في أمره بقطع يده ورجله ليكون عبرة لغيره[١٣١]، في حين أمر بعض ولاة الدولة الطاهرية رجالهم بقتل كل من يحاول عدم الخضوع للدولة أو الاستجابة لرجالها من المتهمين في قضايا سرقة أو قتل أو غيرها، والتخفيف عمن يعترف بجرمه[١٣٢].

ونتيجة لخطورة بعض هذه الجرائم، لاسيما جرائم القتل، وما كان لها من تأثير، تؤكد بعض المصادر التاريخية أن السلطان الظافر عامر بن عبدالوهاب قاد بعض الحملات بنفسه لإلقاء القبض على بعض من يثبت إدانتهم في جرائم قتل[١٣٣]، وهو ما يؤكد لنا مدى حرص الحكام في ذلك الحين

على إقرار الأمن والاستقرار في المناطق التي شكلت بؤرة للقتلة والمجرمين.

وعلى أية حال، فقد خلق تنفيذ بني طاهر لأحكام الشريعة الإسلامية في اليمن حالة من الطمأنينة والاستقرار الأمني والنفسي والاجتماعي بين عامة الناس، لشعورهم بأن تنفيذ شرع الله ضد هؤلاء سيكون رادعاً قوياً لمن تسول له نفسه التأثر أو الانخراط في مثل هذه المشكلات أو الإصابة بمثل هذه الأمراض الخطيرة التي لم تأتِ إلا بالبلاء على المجتمع وأبنائه.

**بـ تأمين المدن والحفاظ عليها:**

سعت الدولة الطاهرية منذ قيامها للحد من انتشار الجرائم التي ذكرناها سابقاً من قتل وسرقة وغيرها؛ بتأمين المدن والحفاظ عليها من القتلة والمجرمين، لخلق حالة من الأمن والاستقرار فيها، وتأتي عملية التأمين هذه عن طريق تحديد وقت معين لفتح وإغلاق أبواب بعض المدن الكبرى والرئيسة، لتجنب تسلل أو خروج بعض ممن ثبت تورطهم في أي قضايا جنائية تتطلب محاسبتهم، وتعد مدينة زبيد من بين أهم المدن اليمنية التي حرص ولاة الدولة الطاهرية على فتح أبوابها وإغلاقها في أوقات محددة للحفاظ عليها وعلى سكانها[١٣٤]. ولتأمين المدن نشر أيضاً ولاة بني طاهر عيونهم وجواسيسهم في الشوارع والطرقات للتربص بالمتأثرين بالظواهر الاجتماعية المذكورة ومتابعتهم وملاحقتهم والقبض عليهم، لينالوا جزاءهم من القضاء العادل[١٣٥].

**جـ محاربة منابع الفساد والمفسدين:**

على الرغم مما احتلته زوايا بعض الأولياء وقبورهم، وبيوت بعض كبار العلماء والفقهاء، من مكانة وتقدير في قلوب اليمنيين، فإن استغلال بعضهم لمكانتها دفع حكام الدولة الطاهرية وولاتها إلى التجرؤ عليها، على اعتبار أن بعضها أصبح منبعاً من منابع فساد الكثير من الناس، ممن أسهموا في تفشي بعض المشكلات التي ذكرناها سابقاً، بعد أن صارت مرتعاً ومأمناً لهم، إثر كل جريمة يرتكبونها، أو فعلاً قد يقترفونه، ومن الزوايا التي عدت واحدة من منابع الفساد زاوية الشيخ الغزالي بن طلحة الهتار بمدينة زبيد، التي كانت ملجأ للخائفين والمجرمين والقتلة واللصوص، وقد بلغ من خطورة هذه الزاوية أن تم مهاجمتها من قبل والي زبيد الأمير شمس الدين علي بن شجاع العنسي سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م، بعد أن كثر فيها عدد المطلوبين الهاربين من الدولة على قضايا نصب وديون مختلفة، فقبض على العديد من المستجيرين بها، وضربهم ضرباً شنيعاً،

وحاسبهم، وصادر أموالهم[١٣٦]. وعلى ما يبدو أن نجاح هذا الأمر دفع أمراء بني طاهر إلى تكراره، فقاموا بمهاجمة قبر الشيخ عيسى الهتار في قرية التريبة سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م، وتمكنوا من أخذ عدد من المطلوبين في قضايا فساد مختلفة[١٣٧].

فضلاً عن ذلك، سعى بنو طاهر أيضاً إلى التخلص من بعض المشكلات السلبية الأخرى عن طريق البحث والتقصي عن منابعها الفاسدة ومهاجمتها، للقضاء عليها، وتعد مشكلة شرب الخمور من بين أهم تلك المشكلات الخطيرة والمؤثرة سلباً في المجتمع الطاهري؛ وللتخلص منها، ومحاسبة المشجعين عليها هاجم ولاة الدولة بيوت الخمارين ومحلاتهم، وقد شهدت مدينة زبيد في سنة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م، حملة كبيرة لم يشهد لها مثيل في ذلك الزمن، قادها الأمير شمس الدين علي بن شجاع، تمكن من خلالها من دخول بيوت الخمارين، وحمل ما وجد فيها من دنان الخمر، واهرقها في التراب، وضرب الخمارين من الرجال والنساء، ثم نفاهم من المدينة، بعد أن سُمِرَتْ بيوتهم، وسمرت دكاكينهم، لاسيما دكاكين كبار تجارهم، التي شهدت قضايا قتل كان سببها سكر من يعملون فيها[١٣٨].

إلا أن أكثر بؤر الفساد التي لقيت محاربة شديدة كانت أماكن انتشار الشاذين جنسياً من الرجال، الذين أصبحوا يشكلون خطراً على مجتمعات بعض المدن، بعد أن صار لهم كيانهم الخاص بهم، حتى إنه بسبب ما اشتُهر عنهم من مجون ومعاصٍ وسكر وأمراض، أمر السلطان الظافر في سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م، بنفيهم عن بعض المدن مثل مدينة زبيد التي انتشروا فيها، وضربهم، وتخريب بيوتهم، وقد تولى هذه المهمة الشريف عبدالله بن سفيان الذي أمر بمهاجمة بيوتهم التي يمارسون فيها الفواحش والحفلات الماجنة ونهبها، وإراقة خمورهم التي يجمعون الناس عليها، بعد أن أمسك بجماعة منهم، وأمر بضربهم مائة عود، ونفاهم إلى خارج المدينة، لأفعالهم المشينة والمشبوهة[١٣٩].

ولم يتوان بنو طاهر في الخروج إلى الحصون والقلاع البعيدة التي عرف عنها أنها كانت من منابع الفساد، ومهاجمتها، وقتل من وجد فيها من المفسدين، والقبض على من سلم منهم، مثلما فعل المقدم الفقيه جمال الدين محمد النظاري سنة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م، عندما قام بمهاجمة عصابة فاسدة كان يقودها رجل عرف بـ: علي القداسي، كان تقوم بقطع الطريق على الناس وإخافتهم ونهب ما معهم، فقام بقتله وعدد من رجاله، والقبض على من

تبقى منهم، وإيداعهم السجن لينالوا جزاءهم[١٤٠].

وفي الوقت نفسه، دفعت عملية هرب بعض الجناة من القتلة والمجرمين من العدالة وفشل الدولة في الوصول إليهم، بعض الأمراء والولاة إلى مهاجمة بيوت أهالي هؤلاء المطلوبين والقبض عليهم وتقييدهم وإيداعهم السجون، حتى يسلم الجناة من أبنائهم أنفسهم، وقد تصل بهم الأمور إلى تهديم بيوتهم، أو إغلاق محلاتهم، إذا كانوا من أصحاب الأملاك[١٤١]. في حين سعى بعض الولاة إلى إلزام أهالي من عليهم قضايا اختلاسات دفع مبالغ مالية كبيرة قد تصل إلى عشرات الألوف من الدنانير، غرامةً إلزامية، وإيداع من يفشل في توفيرها السجن حتى يسلمها[١٤٢].

كما شدد بنو طاهر في محاسبة المشتبه بهم في قضايا التزوير والغش التي شهدتها العملة في المدة موضوع الدراسة، محاولين التخلص من هذه المشكلة التي تعرضت لها النقود الطاهرية، ويعد السلطان الظافر من أكثر من ناضل للتخلص من هذا الأمر، وذلك بعد أن أمر باستدعاء المتورطين فيها والمشتبه بهم في سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م، مثل شيخ دار الضرب في تعز الهادي بن منصور الذي أثبتت خيانته بعد أن ظهر في دراهمه غش فاحش، فقام بمحاسبته بسبب ذلك، وتقييده، وإيداعه السجن ليكن عبرة وعظة لغيره من المشجعين على نشر بعض الأمور المضرة بالمجتمع والناس والاقتصاد[١٤٣]، كما قبض في سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م على جماعة من الصاغة والصيارفة اتهموا بتزويرهم للعملة الطاهرية، وأرسل بهم إلى الأبواب السلطانية، بعد أن صادر أموالهم، في محاولة للحد من هذه المشكلة، ومن أبرز من اتهموا بذلك أحمد بن عين الغزال الحموي، وأحمد بن مفضل العصّار، وعمر المحور، وغيرهم[١٤٤].

وعلى أية حال، فقد ظلت المشكلات الاجتماعية السيئة والسلبية التي عانى منها الناس والمجتمع في المدة موضوع الدراسة من الأولويات التي سعى بنو طاهر إلى محاربتها، رغبة منهم في التخلص منها على اعتبار أنها بؤرة من بؤر الفساد ومنبع من منابع التخلف في المجتمع، وعلى الرغم من تعددها فإنهم بذلوا الغالي والنفيس لأجل إنهاء بعضها، ولو باستخدام العنف والقوة العسكرية، مثل محاربتهم السحر والشعوذة والتنبؤ بالغيبيات، التي كان لانتشارها بين الغوغاء من الناس والجهلة منهم انعكاساته على غيرهم، ممن وصل ببعضهم الأمر إلى تقديم الولاء والطاعة لمثل هؤلاء المشعوذين

والسحرة دون الدولة، مثلما حدث في سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م، مع إبراهيم الخواص الذي اعتقد به وبصلاحه الكثير من الناس، رغم علم الكثير منهم بأنه يتعامل بالسحر والشعوذة، وهو ما دفع بني طاهر إلى التحرك السريع للقضاء عليه وعلى من والاه وصدق به من الناس[١٤٥]،

**٢ـ معالجة المجتمع لمشكلاته الاجتماعية:**

شكلت بعض الإشارات التي رصدتها لنا كتب التاريخ عن موقف المجتمع اليمني الطاهري من المشكلات المجتمعية السلبية المذكورة، دليلاً على أن المجتمع في العصر المذكور كان مجتمعاً حياً متفاعلاً مع كل مجريات الأحداث التي تدور حوله، لدرجة رفضه لما ظهر فيه من أمور منافية للشرع وللعادات والتقاليد التي عُدت دخيلة عليه، لاسيما بعد أن وصلت أضرارها إلى كل بيت، وتسللت آثارها إلى كل فرد في المجتمع، ويعد الدور الذي قام به الأئمة في المساجد من أبرز الأدوار، وقد تمثل في إنكارهم على تلك المشكلات الجديدة على المجتمع، التي لم يجنوا من ورائها إلا العاهات والأمراض العضوية الخطيرة والمميتة، ويذكر ابن الديبع[١٤٦] في هذا الخصوص أن منابر المساجد من سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م إلى سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م، لم يهدأ لها بال بعد أن انتشرت الأمراض الناجمة عن الشذوذ الجنسي الذي تفشى بين الشباب والصبيان في ذلك الحين، لدرجة تضرع الأئمة بالدعاء إلى الله تعالى لكشف ما حل بالناس من تلك الأمراض، بعد أن ضاقت منها الصدور.

وإضافة إلى ذلك، أسهم المتضررون من عامة الناس من انتشار هذه المشكلات في دعم الدولة ومساندتها في الكشف عن كثير من القتلة والمجرمين واللصوص الذين عاثوا في الأرض فساداً، ودبروا لهم المكائد بالاتفاق مع الدولة للكشف عنهم، والقبض عليهم للتخلص من شرورهم[١٤٧].

**الخاتمة:**

لقد توصلنا في بحثنا هذا والمسمى بـ: "المشكلات الاجتماعية في مدينة زبيد في عهد السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري" الجريمة والأمراض الاجتماعية أنموذجا (٨٩٤-٩٢٣هـ/ ١٤٨٨-١٥١٧م)" إلى عدد من النتائج والاستنتاجات، أهمها:

١- أن مدينة زبيد التي عرفت بمكانتها العلمية والدينية في ذلك العصر شهد بعض أحيائها العديد من المشكلات الاجتماعية الخطيرة، التي ظهرت بشكل بارز في المدة موضوع الدراسة، وقد كان لبعض المؤرخين فضلٌ

كبيرٌ في رصدها وإبراز خطرها، في الوقت الذي غض الطرف عنها أكثر المؤرخين الذين دونوا لهذه المرحلة التاريخية المهمة.

٢- أن المجتمع اليمني عامة ومجتمع مدينة زبيد خاصة، على الرغم مما وصل إليه من صيت بلغ الآفاق في النواحي العلمية والدينية، فإنه كان يعاني من كثير من الأمراض والظواهر والمشكلات الخطيرة التي أتعبت كاهله وأرهقته، بعد أن تأثر كثير من الناس بما يدور حولهم.

٣- أن جانباً من المجتمع اليمني، لاسيما في المناطق التهامية، كان يعيش حالة من التخلف بلغ مرحلة الإشراك بالله تعالى، لما ظهر بين الناس من اعتقاد بالأولياء وقبور الأموات التي شكلت فيما بعد وكوراً للقتلة والمجرمين وغيرهم من الخارجين عن سيطرة الدولة.

٤- أن هناك بشاعة ملحوظة في كثير من المشكلات الاجتماعية، وقد تمثّل ذلك في الأساليب اللاإنسانية التي كانت ترتكب بها بعض الجرائم.

٥- على الرغم مما ذكرنا من مشكلات اجتماعية درسناها في بحثنا هذا إلا أن ذلك لم يؤثر في سمعت مدينة زبيد التي ظلت منبراً للعلم والعلماء عبر التاريخ، وموقع لمحاربة كل ما يخالف ما جاء به ديننا الإسلامي الحنيف من قيم أخلاقية وطهارة إنسانية.

٦- أن هناك رفضاً واضحاً من قبل عامة الناس في المجتمع الزبيدي لما ظهر بينهم من أمور منافية للأخلاق، وتعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

٧- أن الدولة الطاهرية وسلاطينها وولاتها على الرغم من انشغالهم بأمور الحكم والصراعات الداخلية إلا أنهم كانوا يتحركون بين الفينة والأخرى لمحاربة مثل تلك المشكلات، ومعالجتها بطرق مختلفة، تنوعت بين استخدام القوة، وتطبيق الشرع الإسلامي، والدعاء والتوعية عبر المساجد، والدعاء وغير ذلك من الطرق التي كان لها أثر كبير في نفوس أهالي مدينة زبيد.

**الهوامش:**

(١) **زبيد:** من أشهر مدن تهامة، وتقع في الجهة الجنوبية من مدينة الحديدة، كانت زاخرة بالعلماء وطلبة العلم، وبخزائن المخطوطات النفيسة، وبها عدد كبير من المدارس والمساجد والجوامع، وكانت مقصودة لطلب العلم من أماكن شتى من داخل اليمن وخارجه، واشتهرت بصناعة الأقمشة، وصباغتها، وبصناعة الحلي من الذهب والفضة. انظر: الأكوع، إسماعيل بن علي، **البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي**، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص١٣٨-١٣٩؛ الويسي، حسين بن علي،

**اليمن الكبرى،** ط٢، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص١٠٤- ١٠٥.

(٢) الجندي، أبو عبدالله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب، **السلوك في طبقات العلماء والملوك،** تحقيق: محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ج١، ص٤٧٣.

(٣) الحبشي، عبدالله محمد، **حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول،** منشورات وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، ١٩٨٠م، ص٥٩.

(٤) **الزوايا:** جمع زاوية وهي أربطة الصوفية وأماكن عبادتهم. دهمان، محمد أحمد، **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي،** ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٨٥؛ مجهول، **تاريخ الدولة الرسولية،** ص١٢٤، حاشية رقم (١٤٧) للمحقق.

(٥) انظر: الخزرجي، أبو الحسن علي بن الحسن، **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية،** عنى بتصحيحه: محمد بسيوني عسل، مطبعة: الهلال، القاهرة، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م، ج١، ص٨٤، ٢٧٦، ٢٩٣، ٤٢٦-٤٣٠، ٤٤١؛ ج٢، ص٢٣، ١١٨، ١١٩، ١٢٦، ١٧٢، ١٥٨، ٣١٨؛ **العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك،** مخطوطة مصورة، ط٢، نشر وزارة الإعلام والثقافة، مشروع الكتاب ٦/ ١، صنعاء، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ق١٦٣ب، ق١٦٤أ، ق٢٠٥أ؛ ابن الديبع، وجيه الدين أبو الضياء عبدالرحمن بن علي، **الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد،** تحقيق: يوسف شلحد، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٩١، ٩٩، ١٠٨، ١١١-١١٢.

(٦) ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (القسم الخاص بمملكة اليمن)،** حققه وقدم له: أيمن فؤاد سيد، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٤٦، ٤٨.

(٧) انظر: ابن عبدالمجيد، تاج الدين عبدالباقي، **تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن،** تحقيق: عبدالله محمد الحبشي ومحمد أحمد السنباني، ط١، دار الحكمة، صنعاء، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٢٧٠؛ الملك الأشرف، أبو العباس إسماعيل بن العباس، **فاكهة الزمن ومفاكهة الآداب والفنن في أخبار من ملك اليمن على أثر التابعة ملوك العصر الزمن،** (الباب الخامس)، تحقيق: علي حسن معيلي، رسالة دكتوراه جامعة تونس، تونس، ٢٠٠٥م، ص٧٣٥.

(٨) على الرغم من تلك المكانة العظيمة التي احتلتها هذه المدينة إلا أنه ظهر فيها خلال العصر الرسولي بعض العادات السيئة، والمفاسد التي أثرت في مجتمعها المحافظ، وتعتبر عادة واحتفالات نضوج النخل المعروفة بعادة السبوت التي تخرج فيها النساء بكامل زينتهن ولباسهن دون حياء أو خجل مع الرجال إلى مزارع النخيل أو السواحل القريبة من المدينة للمبيت فيها، واختلاطهم الفاحش، وتعاطي بعضهم للخمور أثناء تلك الاحتفالات من بين أكثر العادات السيئة والأمراض الاجتماعية التي تفشت بين السكان، بعد أن شجع لها سلاطين

الأسرة الرسولية، بل وفرضوا على الجميع المشاركة فيها، وقد كانت تلك العادات السيئة سبباً في خروج العديد من فقهاء زبيد وعلمائها عنها، بعد أن ساءتهم مثل تلك التصرفات. للمزيد انظر: ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد، **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستنصر،** اعتنى بتصحيحها: أوسكر لو فقرين، ط٢، دار التنوير، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص٧٩-٨١؛ ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة برحلة ابن بطوطة،** ج١، قدم له وحققه: محمد عبدالمنعم العريان، راجعه وأعدّ فهارسه: مصطفى القصاص، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٢٥٦؛ الجندي، **السلوك،** ج٢، ص٥٠؛ الخزرجي، **العقود اللؤلؤية،** ج١، ص٢٩١.

(٩) تنسب الأسرة الطاهرية إلى قبيلة الذراحن الحميرية التي سكنت منطقة جبن في رداع. ابن الديبع، **قرة العيون بأخبار اليمن الميمون،** حققه وعلق عليه: محمد بن علي الأكوع، ط٢، دار بساط، صنعاء، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ص٤٠٥، هامش رقم (١) للمحقق، ٤٠٦؛ الحداد، محمد يحيى، **التاريخ العام لليمن،** ج٣، دار التنوير، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص٢١٥؛ الوائلي، عبدالحكيم، **موسوعة قبائل العرب،** ج٣، ط١، دار أسامه، الأردن، ٢٠٠٢م، ص١١٢٦. في حين تعيد بعض المصادر نسبهم إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز. ابن الديبع، **قرة العيون،** ص٤٠٥؛ **بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد،** تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، ط١، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٧٩م، ص١٢١؛ عماد الدين إدريس بن الحسين بن عبدالله بن علي الأنف، **روضة الأخبار ونزهة الأسمار في حوادث اليمن الكبار والحصون والأمصار،** تحقيق: محمد بن علي الأكوع، دار المعرفة، صنعاء، ١٩٩٥م، ص١٦١؛ بامخرمة، أبو محمد الطيب بن عبدالله، **قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر،** ج٣، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٣٦٠١-٣٦٠٢؛ بافقيه، محمد بن عمر الطيب، **تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر،** تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، ط١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩، ص١٢٤. وتذهب بعض المصادر إلى إعادة نسبهم إلى بني أمية دون الإشارة إلى انتمائهم إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز. شرف الدين، عيسى بن لطف الله بن المطهر، **روح الروح فيما جرى بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح،** مخطوط مصور، ط٢، وزارة الإعلام والثقافة، مشروع الكتاب ٧/ ١، صنعاء، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ق٤ب. وقد قامت هذه الدولة على أنقاض الدولة الرسولية التي حكمت اليمن في المدة من (٦٢٦-٨٥١هـ/ ١٢٢٩-١٤٥٤م )، وقد كان بنو طاهر ولاة لسلاطين الدولة الرسولية. انظر: ابن الديبع، **قرة العيون،** ص٣٨٩؛ الحبيد، عبدالله حامد، **قيام الدولة الطاهرية تحت قيادة الملكين المجاهد علي والظافر عامر**

**أبناء طاهر بن معوضة آل طاهر،** جامعة أم القرى، مكة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص٥- ١١.

(١٠) ابن الديبع، **قرة العيون،** ص٤٢١-٤٢٢.

(١١) للمزيد من التفاصيل عن تلك الصراعات انظر: بلعيد، محمد منصور، القوى السياسية المعارضة للدولة الطاهرية في اليمن وأثرها على الحياة العامة (٨٥٨- ٩٤٥هـ/ ١٤٥٤- ١٥٣٨م)، رسالة دكتوراه، جامعة عدن، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٢م، ص٥٩-٢٩٢.

(١٢) الطياري، علي هادي، **صراع الطاهريين مع أئمة الزيدية وأثره في الحياة العامة في اليمن ٨٥٨-٩٤٣هـ، رسالة** ماجستير، جامعة عدن، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م، ص٦١-١٠٤.

(١٣) ابن الديبع، **الفضل المزيد،** ص١٥٥، ٤٢٤.

(١٤) ابن الديبع، **قرة العيون،** ص٤٣٠.

(١٥) النهرواني، محمد بن أحمد، البرق اليماني في الفتح العثماني، أشرف على طبعه: حمد الجاسر، ط١، دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ص٨٠.

(١٦) عن مدة حكم السلطان الظافر عامر الثاني وما شهدته من تطورات سياسية انظر: الشلي، محمد بن أبي بكر بن أحمد، **السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر،** تحقيق: إبراهيم بن أحمد المقحفي، ط١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٦٢-١٦٥؛ المدخلي، محمد ربيع هادي عمر، **الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية في عصر السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري (٨٩٤- ٩٢٣هـ/ ١٤٨٨-١٥١٧م)،** رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص٦٨-٤٥٢.

(١٧) ابن الديبع، قرة العيون، ٤٧٠-٤٧١؛ العَيْدَرُوس، محي الدين عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله (ت ١٠٣٨هـ)، **النور السافر عن أخبار القرن العاشر،** ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ، ص١١٠.

(١٨) على سبيل المثال انظر: شنبل، أحمد بن عبدالله، **تاريخ حضرموت المعروف بـ: تاريخ شنبل،** تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، ط٢، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م، ص٢٦٦-٣١١.

(١٩) من الملاحظ أن ظاهرة اكتراء المصاغ كانت من الظواهر والمهن التي عرفها المجتمع اليمني في ذلك العصر، وعادة ما تعمل بها نساء دلالات متخصصات، كن يمتزن بالثقة والأمانة بين الناس، لدرجة تسمح لبعض الأهالي أن يعطوهن ذهبهم ومصاغهم ليؤجرنه لهم بمقابل معلوم، وتكون الدلالة هي الضامنة في إعادته لأهله كما هو دون سرقة أو نقصان.

(٢٠) عن تفاصيل هذه الجريمة انظر: **الفضل المزيد،** ص٣٢٨.

(٢١) **الحديدة:** بلدة مشهورة على ساحل البحر الأحمر غربي صنعاء، وهي اليوم من أكبر المدن اليمنية على ساحل البحر الأحمر. الحجري، محمد بن أحمد، **مجموع بلدان اليمن وقبائلها،** مج١، ج٢، تحقيق وتصحيح ومراجعة: إسماعيل بن علي الأكوع، ط٢، دار الحكمة اليمانية،

صنعاء، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص٢٥٠-٢٥١.

(٢٢) انظر: ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص١٨٩.

(٢٣) **الجَوْف:** مدينة في الشمال الشرقي من مدينة صنعاء على مسافة أربع مراحل ( ١٢٢ كيلو متراً). الحجري، **مجموع**، مج١، ج١، ص١٩٥-٢٠١.

(٢٤) **رَدَاع العرش:** مدينة عامرة في الشرق من ذمار على مسافة ٥٠ كيلو متراً، وهي مركز ناحية رداع. الأكوع، **البلدان اليمانية**، ص١٢٧.

(٢٥) بامخرمة، **قلادة النحر**، ج٣، ص٣٧١٦؛ باسنجلة، عبدالله بن محمد بن أحمد، **تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر**، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص٢٣.

(٢٦) **تعز:** مدينة مشهورة في السفح الشمالي لجبل صبر، وكانت عاصمة الدولة الرسولية (٦٢٦-٨٥٨هـ/ ١٢٢٩-١٤٦٢م)، ويتوسط بينها وبين جبل صبر قلعة تعز التي تعرف اليوم بالقاهرة. الأكوع، **البلدان اليمانية**، ص٦١.

(٢٧) انظر: ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٤٤٣؛ يحيى بن الحسين، **غاية الأماني في أخبار القطر اليماني**، تحقيق: عبدالفتاح عاشور، دار الكتب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م، ج١، ص٦٢٤.

(٢٨) يُعد ابن الديبع الشيباني من أبرز من أرخ لذلك العصر، وما شهده من تطورات في جوانب حياة الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية، إلا أن ما ميزه عن غيره من المؤرخين أنه اهتم بأدق تفاصيل حياة الناس الاجتماعية، وراح في جمعها وتدوينها، لاسيما ما يتعلق بالمشكلات الاجتماعية المختلفة وتحديداً في مدينة زبيد، وعلى الرغم من أن ابن الديبع هو المؤرخ الرسمي للدولة الطاهرية، وسلاطينها، وأكثر المؤرخين قرباً إليهم، لكنه رصد العديد من تلك المشكلات التي يعدها البعض تشويه للحكام الطاهرين وولاتهم، ولمدينة زبيد التي لم يعرف عنها في التاريخ إلا العلم والعلماء والمساجد والمدارس، علماً بأن ذلك يُعد من الأمور الطبيعية التي من الممكن أن تظهر في أي مدينة علم أو مجتمع من المجتمعات الإسلامية. انظر: عبادي، عبود عبد ناصر، **ابن الديبع ومنهجه في الكتابة التاريخية ( قرة العيون + بغية المستفيد وذيله الفضل المزيد ) أنموذجاً**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عدن، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص٢، ٤٦-٥٣.

(٢٩) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٣٢٠- ٣٢١.

(٣٠) يحيى بن الحسين، **غاية الأماني، ج١**، ص٦١٧، ٦٤٦.

(٣١) بامخرمة، **قلادة النحر**، ج٣، ص٣٧١٦؛ باسنجلة، **العقد الثمين**، ص٢٣.

(٣٢) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٢٨٢.

(٣٣) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٤٣٨ - ٤٧٠.

(٣٤) بامخرمة، **قلادة النحر**، ج٣، ص٣٧٢٣.
(٣٥) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٢٣٨.
(٣٦) **المصدر نفسه**، ص٣٠٢ - ٣٠٤، ٣١٣.
(٣٧) **المصدر نفسه**، ص٣٢٠ -٣٢١.
(٣٨) **المصدر نفسه**، ص٢٩٨.
(٣٩) **المصدر نفسه**، ص٢٣٢-٢٣٣.
(٤٠) **المصدر نفسه**، ص١٨٦.
(٤١) **الرقعة:** لم أتعرف على موقعها. ولعله خطأ طباعي والمقصود به (الرقبة)، وهي من قرى وادي رماع في تهامة. المقحفي، إبراهيم أحمد، **معجم البلدان والقبائل اليمنية**، ج١، دار الكلمة، صنعاء، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص٦٩٩.
(٤٢) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٢٣٨-٢٣٩.
(٤٣) **المزجاجية:** من قرى زبيد، وينسب إليها بنو المزجاجي، وقد خرج منهم جماعة من العلماء. الحجري، **مجموع**، مج٢، ج٤، ص٧٠٦.
(٤٤) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٢٥٣.
(٤٥) **المصدر نفسه**، ص٣٠٢.
(٤٦) **شيراز:** مدينة عظيمة بأرض فارس، وتعد دار مملكتها، ينزلها الولاة والعمال، وهي من المدن الإسلامية التي بناها محمد بن القاسم بن أبي عقيل ابن عم الحجاج. انظر: الحِميري، محمد بن عبدالمنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ط٢، تحقيق: إحسان عباس، مطابع دار السراج، بيروت، ١٩٨٠م، ص٣٥١.
(٤٧) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٢٩٨.
(٤٨) **المصدر نفسه**، ص٣٠٢.
(٤٩) **المصدر نفسه**، ص٣٠٣ - ٣٠٤.
(٥٠) **المصدر نفسه**، ص٣١١.
(٥١) **المصدر نفسه**، ص٣١٣.
(٥٢) **المصدر نفسه**، ص٣١٥.
(٥٣) **المصدر نفسه**، ص٣٢٠.
(٥٤) **المصدر نفسه**، ص٣٢٥-٣٢٦.
(٥٥) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٤٥٤.
(٥٦) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص١٨٩، ٢٥١.
(٥٧) **المصدر نفسه**، ص٣٣٥، ٣٥٢، ٣٥٤.
(٥٨) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٤٣٨-٤٧٠.
(٥٩) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٣٠٣-٣٠٤، ٣٢٨.
(٦٠) **المصدر نفسه**، ص١٩١.
(٦١) **المصدر نفسه**، ص٢٣٩.
(٦٢) **المصدر نفسه**، ص٢٤٠.
(٦٣) با سنجلة، **العقد الثمين**، ص٢٨٧.
(٦٤) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٢٦٠- ٢٦١.
(٦٥) **المصدر نفسه**، ص٢٦٦.
(٦٦) بامخرمة، **قلادة النحر**، ج٣، ص٣٧٢٣.
(٦٧) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٢٦٦- ٢٦٧.
(٦٨) **المصدر نفسه**، ص٣٠٨.
(٦٩) **المصدر نفسه**، ص٣١٤.
(٧٠) **المصدر نفسه**، ص٣١٤-٣١٥.
(٧١) **المصدر نفسه**، ص٣٥٤.
(٧٢) للمزيد من أخبار هذه السرقات انظر: **المصدر نفسه**، ص٣٥٢.
(٧٣) **المصدر نفسه**، ص٢٨٣.
(٧٤) **المصدر نفسه** والصفحة نفسها.
(٧٥) **المصدر نفسه**، ص٣٢٨.
(٧٦) **قرة العيون**، ص٤٦٠.
(٧٧) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٢٤٨.
(٧٨) **المصدر نفسه**، ص٢٥٣.

(٧٩) **القفلة:** الوازنُ من الدراهمِ، كَمَا فِي الصِّحاح، قَالَ الأَزْهَرِيّ: هَذَا من كلامِ أهلِ اليمنِ. الزبيدي، أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبدالرزّاق الحسيني الملقّب بمرتضى، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ج٣٠، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، دون بلد، دون تاريخ، ص٢٦٧. ولم أجد في المصادر كم تساوي.

(٨٠) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٣٢٢.

(٨١) سوف يتم الحديث بالتفصيل لاحقاً عن موقف السلطان الطاهري والدولة من مثل هذه الأمور عند الحديث عن موقف الدولة من المشكلات الاجتماعية المذكورة.

(٨٢) انظر: عاشور، سعيد عبدالفتاح، **المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك**، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٢٤٧ -٢٦٤.

(٨٣) انظر: ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص١٩١، ١٩٢، ١٩٥، ١٩٦، ٢٧٨، ٣١٧، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٩، ٣٧٢، ٣٧٣؛ قرة العيون، ص٤٣٧.

(٨٤) فييح، عاشور عبيد سالم، **الحياة العلمية في عهد الدولة الطاهرية، (٨٥٨-٩٤٥هـ/ ١٤٥٤- ١٥٣٨م)**، ط١، دار جامعة عدن، عدن، ٢٠١٠م، ص٩١-١٣٩.

(٨٥) **المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك**، ص٢٤٧.

(٨٦) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٢٨٢.

(٨٧) سوف يتم الحديث عن أهم هذه الأمراض وأنواعها عند الحديث عن أثر الأمراض الاجتماعية في المجتمع.

(٨٨) يحيى بن الحسين، **غاية الأماني**، ج١، ص٦٣٢.

(٨٩) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٢٨٢.

(٩٠) يحيى بن الحسين، **غاية الأماني**، ج١، ص٦٣٢.

(٩١) **المصدر نفسه**، ص٦٣٤.

(٩٢) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٣٢٠ -٣٢١.

(٩٣) يحيى بن الحسين، **غاية الأماني**، ج١، ص٦٣٢.

(٩٤) **الفضل المزيد**، ص٢٣٨.

(٩٥) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٢٣٩.

(٩٦) يحيى بن الحسين، **غاية الأماني**، ج١، ص٦٣٢.

(٩٧) **الفضل المزيد**، ص٢٨٢.

(٩٨) يحيى بن الحسين، **غاية الأماني**، ج١، ص٦٣٨.

(٩٩) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٣٢٠ - ٣٢١.

(١٠٠) بامخرمة، **قلادة النحر، ج٣**، ص٣٧٣٠.

(١٠١) **المصدر نفسه**، ص٣٥٩٧.

(١٠٢) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٢٣٢، ٢٣٩، ٢٧٦.

(١٠٣) بامخرمة، **قلادة النحر**، ج٣، ص٣٦٠٦.

(١٠٤) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٤٠٦، ٤٠٨؛ **الفضل المزيد**، ص٢٤٨، ٣١٣- ٣١٤؛ بامخرمة، **قلادة النحر**، ج٣، ص٣٦٧٣-٣٦٧٤، ٣٦٧٦.

(١٠٥) عن بعض هؤلاء انظر: يحيى بن الحسين، **غاية الأماني**، ج١، ص٦٢٤.

(١٠٦) بنو المشرع بيت فقه لا يزال لهم بقية في وصاب وزبيد. انظر: ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٤٥٠، هامش (٥).

(١٠٧) بامخرمة، **قلادة النحر، ج٣**، ص٣٧٢٣.
(١٠٨) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٤٥٠.
(١٠٩) **المصدر نفسه**، ص٤٤٤-٤٤٥.
(١١٠) عماد الدين إدريس، **روضة الأخبار**، ص١٠ وما بعدها.
(١١١) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٢٤٠، ٢٦١، ٢٦٦- ٢٦٧، ٢٨٣، ٣٠٠، ٣٠٨، ٣١٤، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤.
(١١٢) **المصدر نفسه**، ص٢٦٦، ٢٨٦ - ٢٨٧، ٢٩٥.
(١١٣) **المصدر نفسه**، ص٢٨٢.
(١١٤) **المصدر نفسه.**
(١١٥) يحيى بن الحسين، **غاية الأماني**، ج١، ص٦٣٢.
(١١٦) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٣٢٠ -٣٢١.
(١١٧) **المصدر نفسه**، ص٣٢١، ٣٢٠، ٢٣٨، ٢٣٩.
(١١٨) **المصدر نفسه**، ص٢٨٢.
(١١٩) **المصدر نفسه**، ص٢٣٢- ٢٣٣، ٢٤٨، ٣١٣، ٣١٥.
(١٢٠) يحيى بن الحسين، **غاية الأماني**، ج١، ص٦١٨، **٦٢٠.**
(١٢١) جهاد محي الدين محمد مسعود، **الحياة السياسية والمظاهر الحضارية في عهد الدولة الطاهرية (٨٥٨-٩٣٣هـ/ ١٤٥٤- ١٥٢٦م)**، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ٢٠٠٤م، ص١٨٩-١٩١.
(١٢٢) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٢٨٦، ١٨٩.
(١٢٣) **المصدر نفسه**، ص١٨٩.
(١٢٤) **المصدر نفسه**، ص٣٢٥ – ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٥.
(١٢٥) **المصدر نفسه**، ص١٩١.
(١٢٦) **المصدر نفسه**، ص٢٣٣.
(١٢٧) **المصدر نفسه**، ص٢٦٧.
(١٢٨) **المصدر نفسه**، ص٢٨٣.
(١٢٩) **المصدر نفسه**، ص٣٠٧- ٣٠٨.
(١٣٠) **المصدر نفسه**، ص٣١٤.
(١٣١) **المصدر نفسه**، ص٢١٤-٢١٥.
(١٣٢) **المصدر نفسه**، ص٣٥٣، ٣٥٣.
(١٣٣) ابن الديبع، **قرة العيون**، ص٤٤٥؛ باسنجلة، **العقد الثمين**، ص٢٤؛ يحيى بن الحسين، **غاية الأماني**، ج١، ص٦٢٥.
(١٣٤) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٣١٤.
(١٣٥) **المصدر نفسه**، ص٣٢٣.
(١٣٦) **المصدر نفسه**، ص٢٣٢.
(١٣٧) **المصدر نفسه**، ص٢٤٨.
(١٣٨) **المصدر نفسه**، ص٢٣٨-٢٣٩.
(١٣٩) **المصدر نفسه**، ص٣٢٠-٣٢١؛ يحيى بن الحسين، **غاية الأماني**، ج١، ص٦٣٨.
(١٤٠) ابن الديبع، **الفضل المزيد**، ص٣٦٦.
(١٤١) **المصدر نفسه**، ص٢٣٩، ٢٦١.
(١٤٢) **المصدر نفسه**، ص٢٤٨.
(١٤٣) **المصدر نفسه**، ص٢٥٣.
(١٤٤) **المصدر نفسه**، ص٣٢٣.
(١٤٥) **المصدر نفسه**، ص٢٧٨-٢٧٩.
(١٤٦) **المصدر نفسه**، ص٢٨٢.
(١٤٧) **المصدر نفسه**، ص٣٠٨.

# أحمد بابا التنبكتي ومنهجه في كتابه
# (نيل الابتهاج بتطريز الديباج)

د. آمنة محمود الذيابات*

تاريخ وصول البحث: ١٩/ ٥/ ٢٠١٤م تاريخ قبول البحث: ٢٠/ ١٢/ ٢٠١٥م


## ملخص

يلقي هذا البحث الضوء على أحد ألمع علماء وفقهاء السودان الغربي، وهو أحمد بابا التنبكتي، وجاء البحث بعنوان **أحمد بابا التنبكتي ومنهجه في كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج**" حيث يتناول في محتواه تراجم علماء المذهب المالكي، وهذا الكتاب هو ذيل لكتاب ابن فرحون (ت ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م) المسمى "**الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**". وقد تناولت هذا الموضوع من خلال **ثلاثة مباحث** هي:

**المبحث الأول**: نبذة عن جغرافية إقليم السودان الغربي وممالكه السياسية، **والمبحث الثاني**: التعريف بشخصية أحمد بابا: (اسمه ومولده، شيوخه وتلاميذه والوظائف التي تولاها، تخصصه ومذهبه، وآثاره العلمية، وفاته، رأي العلماء: ثناؤهم ونقدهم المؤلف)، **والمبحث الثالث**: منهج أحمد بابا في كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج (سبب تأليف الكتاب ومنهجه في بناء الترجمة، ومصادره، الاختصارات والذيول التي أُلفت على هامش كتاب نيل الابتهاج).


كلمات مفتاحية: أحمد بابا، بتطريز الديباج، التنبكتي، في كتابه، ومنهجه، نيل الابتهاج.


## Abstract

This study sheds light on Ahmed Babah al-Tanbakti, one of the most distinctive scholars in western Sudan. It discusses his methodology in his book entitled "*Nayl al-Ibtihaj fi Tatreez al-Debaj*" in which it deals with the accounts of al-Malki dogma. This book belongs to Ibn Farhoun's book (799AH/1396AD) entitled "*al-Debaj al-Mothahab fi Ma'refat A'yan 'Olma' al-Mathahab*". This study is divided into three chapters:

- The first chapter: An introduction to the geography of the western Sudan region and its political kingdoms.


* أستاذ مساعد، قسم العلوم الاجتماعية ، كلية الاداب والفنون، جامعة حائل.

- The second chapter: A biography of Ahmed Babah: His name and birth, his sheikhs and students, and positions that he occupied, his specialization and method, his intellectual influences, his death and the view of scholars: Their praise and criticism.
- The third chapter: Ahmed Babah's method in his book "Nayel al-Ibtihaj fi Tatreez al-Debaj" (his approach in translation and his sources, abbreviations, and his endnotes.
**Keywords**: Ahmed Babah, Tatreez al-Debaj, al-Tanbakti, his book, his method, Nayl al-Ibtihaj.

**المقدمة:**

يتناول البحث أحد الشخصيات العلمية الهامة التي تنسب إلى إقليم السودان الغربي، الذي يقع جنوب الصحراء الكبرى هذا الإقليم الذي لم تعتد الألسنة على ذكره والاعتناء به إلا نادراً، فهو يكاد يكون مجهولاً بالنسبة للبعض، ومادة علمية خصبة للبعض الآخر، بعد أن أخذوا ينفضون التراب عن آثاره العلمية، ومخطوطاته التي تزخر بها المكتبات ودور المخطوطات، وتتمثل هذه الشخصية بالفقيه والمؤرخ أحمد بابا التنبكتي الذي ينتسب إلى إقليم السودان الغربي، وتناولتُ في هذا البحث الموسوم بـِ: "أحمد بابا التنبكتي ومنهجه في كتابه (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) الموضوع في ثلاثة مباحث: الأول تمهيد درست خلاله الإطار الجغرافي لإقليم السودان الغربي وأقسامه، ثم دراسة موجزة لتاريخ الممالك والدول الإسلامية التي وجدت في السودان الغربي خاصة وهي مملكة غانا ومالي والتكرور والبرنو وسنغي، والدور الحضاري لهذه الممالك حتى عصر المؤلف، والأحوال السياسية التي ألمت بمدينة تنبكتو التي عاش بها المؤرخ أحمد بابا، وأثرها في الحركة العلمية والعلماء وفي أحمد بابا خاصة. واختص المبحث الثاني: بدراسة شخصية أحمد بابا التنبكتي من حيث مولده ونشأته وحياته العلمية وشيوخه وتلاميذه وتخصصه ونكبته، وما تعرض له من محن، والوظائف التي تولاها وآثاره العلمية من مؤلفات، ووفاته وآراء العلماء وثناؤهم عليه، ثم المآخذ العلمية عليه. أما المبحث الثالث فاهتم بالتفصيل بكتابه نيل الابتهاج بتطريز

الديباج من خلال أسباب تأليفه، ونظرة في كتاب الديباج المذهب في أعيان علماء المذهب لابن فرحون، ثم منهج أحمد بابا في كتابه الذي وضعه على هامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون، وسماه "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" من حيث الإضافات وبناء الترجمة، وموارده من كتب وروايات شفوية، ثم اختصاره نيل الابتهاج في كتاب سماه "**كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**" ثم أثر أحمد بابا فيمن جاء بعده في تآليفهم واختصاراتهم على هامش كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ثم انتهى البحث بالنتائج التي توصلت إليها.

## المبحث الأول: التعريف بجغرافية إقليم السودان الغربي وممالكه السياسية:

تشمل بلاد السودان المنطقة الواسعة الواقعة في غرب أفريقيا التي تنحصر بين الصحراء في الشمال، والغابات الاستوائية في الجنوب، وتمتد شرقاً إلى حدود مرتفعات الحبشة، وغرباً إلى المحيط الأطلسي[1].

وتتميز تضاريسها بأنها مستوية الشكل، وهي هضبة متوسطة الارتفاع، تتخللها بعض المرتفعات الجبلية الماندينكا Mandingue التي يصل ارتفاعها (من٤٠٠م إلى٧٨٠م). يجري بالمنطقة نهران رئيسيان هما نهر السنغال، ونهر النيجر، الذي سماه الرحالة والجغرافيون العرب أحياناً نهر النيل أو بحر النيل، نظراً لأنه يغمر مناطق شاسعة وقت الفيضان. لذلك تتميز المنطقة بكثرة وجود المستنقعات والأدغال.

**وتقسم بلاد السودان إلى ثلاثة أقسام:**

- **الأول:** السودان الغربي ويشمل حوض نهر السنغال، ونهر غامبيا والمجرى الأعلى لنهر الفولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر، **والثاني** السودان الأوسط: ويشمل حوض بحيرة تشاد، **والثالث:** السودان الشرقي ويشمل الحوض الأعلى لنهر النيل جنوب بلاد النوبة، وسماه الجغرافيون العرب بلاد الزنج[2]، وقد تغلغل الإسلام في السودان الغربي التي عرفت قيام ممالك إسلامية، والتي أقامت علاقات متعددة مع بلاد المغرب، خاصة في مجال التجارة التي نشطت بينهما فكانت تستورد من المغرب الملح - الذي يُحتاج إليه بكثرة- والحبوب والتمور والثياب والأواني، بينما كانت المغرب تحصل من منطقة السودان على الذهب خاصة والعاج والعبيد.

تاريخياً شهد إقليم السودان قيام ممالك قوية حكمت السودان، وأرست فيه نظاماً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً منظماً،

فنظمت التجارة، وأقامت علاقات مع الدول الواقعة جنوبها وشمالها، وأهم هذه الممالك التي حكمت السودان:

**١ـ مملكة غانة**(٤٦٩-٦٠٠هـ/١٠٧٦-١٢٠٣م):

ونقصد غانة القديمة التى تقع بين منحنى «النيجر» ونهر السنغال، وتمتد بحدودها حتى جنوبي «موريتانيا» الحالية، وكانت عاصمتها مدينة تُسمَّى «كومبى» وكانت غانة القديمة ذات نفوذ وسلطان واسعين خضع لها معظم بلاد «السودان الغربي» فى النصف الأول من العصور الوسطى. ويرجع تاريخ نشأتها إلى الفترة ما بين القرن الثالث والرابع الميلاديين، ويبدو أن كلمة «غانة» كانت لقبًا يطلق على ملوكهم، ثم اتَّسع مدلول هذا الاسم حتى أصبح يطلق على العاصمة والدولة معا. وترجع قوتها وتوسعها إلى استعمالها الحديد قبل غيرها من القبائل السودانية، وتنظيمها التجارة، خاصة تجارة الذهب والملح، وفرضها الضرائب على القوافل التجارية، مما وفر لها مصادر مادية هامة.[٣] وصلت إليها البعثات الإسلامية بعد أن فتح الأمويون مراكش الغربية ما بين سنتي (١١٦-١٣٣هـ/ ٧٣٤-٧٥٠م) لكنها لم تحقق نجاحا ثم أخذ الإسلام ينتشر بها عن طريق التجار وهجرات العرب والبربر إلى المنطقة ثم تعمق الإسلام وانتشر في أنحاء غانة كافة على يد المرابطين، حيث وثق حكام غانة المسلمين صلاتهم بالخلافة العباسية[٤].

**٢ـ مملكة مالي**:

أسستها قبائل الماندي سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م، و خضعت في أول الأمر لحكم مملكة غانة الوثنية، ثم أسلمت قبائل الماندي على يد المرابطين، وبعد وفاة السلطان المرابطي أبي بكر بن عمر وقع النزاع بين أتباعه على الحكم، مما فتح المجال أمام السوننكي حكام غانة السابقين للاستيلاء عليها، ثم ضعفت البلاد في أواخر عهد السوننكيين بسبب تنافس حكام المقاطعات التابعة لغانة من أجل السيطرة على السلطة، مما فتح المجال أمام قبائل الماندي يقيادة ملكهم سانديانا، من تحقيق نصر على ملوك السوننكي ويستولي على بقية الأجزاء التابعة لمملكة غانة، كما انتصر على ملك قبائل الصوصو، وأقام على أنقاضها دولة إسلامية جديدة عرفت باسم دولة مالي سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، وبنى عاصمتها نياني وسط الدولة التي تقع جنوب نهر النيجر.[٥]

وقد بلغت مملكة مالي أوجها في القرن ٨هـ/ ١٤م، فامتدت بحدودها شمال

الصحراء، حيث مصادر ملح تغازة. وامتدت جنوباً حتى أطراف السفانا عند مصادر الذهب، وغرباً حتى المحيط الأطلسي، وشرقاً حتى مناجم النحاس بتكدا[٦]، وبذلك قدر بعض المؤرخين العرب طولها بمسيرة أربعة أشهر من الغرب إلى الشرق، وعرضاً بمسيرة ثلاثة أشهر من الجنوب إلى الشمال[٧] وأشهر سلاطينها الملك ماري جاطة (سنودياتا كيتا) (٦٢٨-٦٥٣هـ/ ١٢٣٠-١٢٥٥م)، ثم ابنه الملك منسا علي(٦٥٣-٦٦٩هـ/ ١٢٥٥-١٢٧٠م)، ثم الملك منسي موسى(كنكن موسى) (٧١٢-٧٣٧هـ/ ١٣١٢-١٣٣٧م) الذي حكم ربع قرن و بلغت الدولة في عهده أوجها قوة وثروة وحضارة، وإقامة علاقات قوية مع الدول الإسلامية في المغرب ومصر. وتتحدث الكتب التاريخية عن حجته المشهورة سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م، إذ سار "في قوة عظيمة وجماعة كثيرة من الجند منهم ستون ألفا رجالا، ويسعى بين يديه إذا ركب خمسمائة عبد، بيد كل واحد منهم عصاً من ذهب، في كل منها خمسمائة مثقال ذهب" كما ذكر السعدي[٨]. وقد مر برحلته بلاد برنو وكانم وواداي ومصر والتقى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤١م) في مصر الذي أحسن استقباله، ثم سار للحج وأنفق أموالاً طائلة في الحجاز من صدقات وغيرها.[٩]

كما استولت مالي على مدينة تمبكتو وعلى بلاد سنغاي وعاصمتها كاغ أو كاو سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م، في عهد منسا موسى (٧١٢-٧٣٧هـ/ ١٣١٢-١٣٣٧م)، ويقول السعدي بصدد ذلك "ودخل أهل سغى في طاعته بعد جوازه إلى الحج بطريقها ورجع فابتنى مسجداً ومحراباً خارج مدينة كاغ"[١٠] زيادة على ضم سنغاي فإنه "طرق تنبكت فملكها وهو أول ملك ملكها وجعل خليفته فيها وابتنى فيها دار السلطنة[١١] ، فضلا عما اشتهرت به من ثروة ضخمة جنتها من التجارة خاصة الذهب والملح، وسعت مالي على غرار غانة، إلى تنظيم هذه التجارة؛ بين الشمال والجنوب وتنظيم الأمن ومساعدة التجار وفرض الضرائب على التجارة مما جعلها تجني فوائد هامة ملأت خزائن ملوكها، وجعلتهم يشتهرون خارج السودان في العالم الإسلامي وأوروبا، خاصة وأنها تنتج كميات كبيرة من الملح من بلدة تغازي والقناطير المقنطرة من الذهب كما ذكر ابن بطوطة[١٢]، وتمثل هذا الإشعاع في أن" بلدة تغازى على

صغرها يتعامل فيها بالقناطر المقنطرة من التبر[١٣]، وأصبحت ثرواتها الذهبية محط أطماع الجيران حيث صاروا يتحينون الفرص المواتية للانقضاض عليها. وتم لهم ذلك، بعد وفاة ملك مالي (منسى سليمان)، حيث ضعفت المملكة بسبب الصراع على الحكم، واستقلت عنها ممالك صغيرة مثل تكدا[١٤] التي تشتهر بإنتاج النحاس، كما هاجمتها دولة سنغي وقبائل الفولاني[١٥] والتكارنة، وتزامن ذلك مع نزول البرتغال بشواطئ السودان الغربي، بحثاً عن ثروات مملكة مالي، وفي أوائل ق ١٠هـ/ق١٦م تعرضت مالي إلى هجوم من سنغي التي سيطرت عليها، وأقامت دولتها على أنقاض مملكة مالي.

### ٣ـ مملكة التكرور[١٦]:

هي من الممالك الصغيرة في السودان الغربي، دخل إليها الإسلام منذ القرن الحادي عشر الميلادي قبل قيام دولة المرابطين وساعدوها في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية الواقعة في حوض نهر السنغال الشرقي. أطلق الجغرافيون العرب اسم هذه المملكة على كل أنحاء السودان الغربي، إذ عرف ملوك مالي بأنهم ملوك التكرور وعرف به كذلك ملوك سنغاي، إذ يذكر السعدي أن آسكيا محمد عند حجه اشترى جنانا في المدينة المنورة وحبسه على أهل التكرور.[١٧] وقد اهتمت مملكة التكرور في التجارة الخارجية عبر الصحراء حيث كانت تصدر الذهب والرقيق إلى بلاد المغرب، واهتمت كذلك بالتجارة المحلية حيث كانت تستورد الملح من منطقة أوليل عند مصب نهر السنغال لتوزعه على منطقة السودان الغربي.

### ٤ـ مملكة سنغاي:

تأسست هذه المملكة في القرن السابع الميلادي من قبل قبائل سنغاي المقيمة على وادي النيجر، دخلها الإسلام في القرن الحادي عشر الميلادي على يد المرابطين، ولقب أمراؤها بـِ "زا" حتى سنة٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م ثم بـِ "سني". وكانت عاصمتهم كوكيا على نهر النيجر الأدنى ثم انتقلت إلى كاغ، وقد حكمت مملكة سنغاي عائلة ضياء التي يظن أنها من منطقة طرابلس حتى سنة٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م حيث أعقبتها أسرة سني. وقد ضمت سنغاي إلى أملاك مالي منذ سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م التي كان من عادة ملوكها كلما فتحوا منطقة ما أن يتركوا إدارتها لملوكها القدامى، ويأخذوا أبناءهم رهائن يقيمون في قصورهم، لتجنب ثوراتهم، وقد أخذ ملك مالي عند احتلاله سنغاي، رهائن من بينهم علي بير

(أو علي كولون) الذي هرب من عاصمة مالي إلى كاغ، وأعلن نفسه ملكاً على سنغاي واتخذ لقب "سني" سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م، وامتنع عن دفع الجزية لمملكة مالي.

وتمكنت هذه الدولة الفتية من صد غارات قبائل الموسى، من الجنوب والطوارق من الشمال، وبدأت تتقوى مع صعود سني علي الكبير (٨٦٨-٨٩٧هـ/ ١٤٦٤-١٤٩٢م) سنة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م الذي استولى على تنبكت سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م وعلى جني سنة ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م، ويمكن القول إنه المؤسس الحقيقي لدولة سنغاي بعد أن اتسعت رقعتها، إذ نظم الدولة واستفاد من التجارة، لكن أسرته لم تدم في الحكم، فبعد وفاته سنة٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م خلفه ابنه (باكاري) باري دع. ولكنه لم يبق في الحكم إلا بضعة أشهر إذ ثار عليه أحد كبار قادة أبيه وهو محمد بن أبي بكر التوري سنة ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م، وتولى الحكم.[١٨] وبدأ بذلك حكم أسرة جديدة في مملكة سنغاي، هي أسرة محمد بن أبي بكر التوري التي ستعرف باسم أسرة الآسكيين منذ سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٣م، التي مدت رقعة المملكة حتى سيكو في الغرب والصحراء في الشمال الغربي، كما قام الأسكيا محمد بن أبي بكر، بتنظيم المملكة إدارياً بتقسيمها إلى عدة أقاليم جعل عليها ولاة تابعين له، كما عين جباة للضرائب، وقضاة للنظر في المظالم. ووصف القاضي محمود كعت الأسكيا محمد بالقول: "إن الأسكيا محمد يصلح لحكم دولة بني العباس وكل دولة أخرى غيرها".[١٩]

وقد ساعد هذا التنظيم الإداري من انتعاش التجارة الخارجية التي استفادت منها مدن تنبكت والعاصمة كاغ، مما خول أسكيا محمد أن تجني بلاده أرباحا ضمها إلى الثروة التي استولى عليها من خزائن سني علي، وظهر هذا الثراء حين اعتزم أسكيا محمد الذهاب لأداء فريضة الحج وبرفقته حاشية وأموال تفوق ما حمله منسا موسى سلطان مالي قبله، إذ إنه في "سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م ذهب إلى الحج ومعه ألف وخمسمائة رجل وخمسمائة فرس وألفا راجلة، أما المال فثلاثمائة ألف ذهباً، فتصدق في الحرمين من ذلك المال بمائة ألف ذهباً، واشترى جناناً في المدينة المشرفة وحبسه على أهل التكرور.... واشترى السلع وما يحتاج بمائة ألف[٢٠]، وفي رحلة الحج هذه التقى أسكيا محمد بالخليفة العباسي، وأراد أن يكون له اعتبار شرعي

فطلب من الخليفة أن يجعله خليفته في أرض سنغي، فرضي بذلك وألبسه قلنسوة وعمامة من عنده[٢١].

وعمل محمد أسكيا، بعد رجوعه من الحج على شن الحرب ضد الوثنيين، فوجه حملات قوية على بلاد الموسى[٢٢] بين سنتي (٩٠٣-٩٠٤هـ/ ١٤٩٧-١٤٩٨م) كما أرسل حملات عسكرية نجحت في ضم ما تبقى من أملاك مالي وذلك فيما بين سنتي ٩١٢هـ/ ١٥٠٦ و٩١٨هـ/ ١٥١٢م. كما وجه حملاته ضد بلاد الحوسا(الهوسا)[٢٣].

وبلغت مملكة سنغاي في عهد آسكيا الحاج محمد بن أبي بكر، في بداية القرن ١٠هـ/ ١٦م، من القوة والاتساع والتنظيم ما لم تبلغه الممالك التي سبقتها في حكم السودان الغربي، وكان من الطبيعي أن تزدهر التجارة والثقافة، في مدن كاغ[٢٤] وتنبكتو وجني[٢٥]، خاصة وأن أسكيا محمد اعتنى بهذه المدن فبنى بها المساجد التي تعتبر مراكز لتدريس العلوم الدينية واللغة العربية. لكن آسكيا محمد الذي امتاز عهده بالازدهار، تعرض إلى أطماع أبنائه في الحكم، فثاروا عليه بقيادة ابنه الأكبر موسى الذي أجبره على التنازل عن الحكم سنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م[٢٦]، لتدخل سنغاي في عصر من الصراعات على الحكم بين أفراد الأسرة الحاكمة، إذ لقي أسكيا موسى نفسه حتفه قتيلاً من قبل أخ له طمع هو الآخر في الحكم. وكان النزاع حول العرش من أسباب ضعف هذه المملكة، فلم تستطع صد هجمات الطامعين في الاستيلاء عليها، وتمثل ذلك في دولة الأشراف السعديين بالمغرب في عهد السلطان أحمد المنصور السعدي الذهبي في أواخر١٠هـ/ ق١٦م، التي دخلت في صراع مع سنغاي للاستيلاء على ممالح تغازى، ومناجم الذهب والتجارة السودانية عامة. حيث نجح في السيطرة على مملكة سنغاي وضمها لبلاده.

لقد كانت مدينة تُنبكتو تمثل مركزاً تجارياً وثقافياً هامّا في منطقة السّاحل بداية ق ٨هـ-ق١١هـ/ ق١٤م-١٧م، وبلغت أوج ازدهارها في القرنين ٩-١٠هـ/ ق١٥-١٦م، ولهذا كانت مستهدفة من الغزاة، بيد أنّ أكبر الهجمات الّتي تعرّضت لها في هذه المرحلة حملة سُنّي علي سلطان مالي في بداية القرن ٩هـ/ ١٥م، وحملة أحمد المنصور الذّهبي سلطان السّعديّين بالمغرب الأقصى في نهاية ق١٠هـ/ وبداية ق ١١هـ/ ق١٦-١٧م.

**أ- النكبة الأولى (حملة سُني علي):**

وهي حملة سُنّي علي (٨٦٨-

٨٩٧هـ/ ١٤٦٤-١٤٩٢م) سلطان مالي على تُنْبُكْتو لضمّها لمملكته ومحاربة المناوئين له، ويسمّيه عبدالرحمن السّعدي التّنبكتي (ت) بالظّالم الأكبر والفاجر الأشهر، ويسمّيه بالخارجي[٢٧]، ويسمّيه صاحب "فتح الشّكور" بالظالم الفاجر[٢٨]، كان متسلّطاً جبّاراً سفّاكاً للدّماء، تسلّط على العلماء بالقتل والإهانة والإذلال، واشتهر في الآفاق بذلك، وقد استشهد السّعدي على شهرته بما نقله الحافظ محمد بن عبدالرّحمن العلقمي المصري (ت ٩٦٩هـ/ ١٣٦٧م) تلميذ السّيوطي من شرحه على "الجامع الصّغير" للسيوطي قوله: "سمعنا أنّ رجلا ظهر بالتّكرور يقال له سنّي علي أهلك العباد والبلاد ودخل في السّلطنة سنة ٨٦٩هـ/ ١٣٦٧م، وتُوُفّي في ٩٢٥هـ/ ١٥١٩"[٢٩]. "ومكث في الحكم نحواً من ثمان وعشرين سنة فاشتغل في الغزوات وفتح البلدان ووسّع مملكة مالي، وحارب صنهاجة في إقليم التكرور كله، وفي الرّابع من شهر رجب سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م دخل مدينة تُنْبُكْتُو وأحدث فيها فسادا كبيرا، فحرّق دورها وخرّبها وقتل منها خلقاً كثيرا، ولما علِم أميرها بقدومه أحضر ألف جمل ورحّل فقهاء جامع سنكُري، ومشى بهم إلى وُلاتة، وقال إنّ شأنهم أهمّ عنده"[٣٠]. وهذا يدلّ على ثلاثة أمور:

١- استهداف فقهاء سنكري في هذه الحملة بسبب صلابتهم وشدّة إنكارهم على سلاطين زمانهم.

٢- ازدهار الحركة العلمية في تنبكتو ويتبين ذلك من زيادة أعداد الفقهاء فيها، وامتلاكهم ثروة كبيرة، لذلك احتاجوا إلى ألف جمل ليفرّوا مع ممتلكاتهم وكتبهم.

٣- علو مكانة العلماء عند حكام تنبكتو؛ فهم الثّروة الحقيقية الّتي كانت تملكها تنبكتو؛ فالحفاظ على حياتهم أهمّ من الحفاظ على مدينة تنبكتو ذاتها.

وكان منهم الفقيه عمر بن محمد آقيت المسوفي الصّنهاجي وأولاده الثلاثة ؛ أحمد وهو أكبرهم سنّا، وعبدالله، ومحمود وهو أصغرهم (خمس سنوات)، ومشى معهم خالهم الفقيه النّحوي المختار بن أندغ محمد، وأدركوا الإمام الزّمّوري بولاته، فاستفادوا منه وأجازه كتاب "الشّفا"[٣١].

ويبدو أن سنّي علي كان شديد الكراهية للعلماء والفقهاء، لذلك أقدم على قتل من بقي من الفقهاء بتنبكتو، أو من لم يتمكن منهم من الهرب، وعمد إلى إهانتهم واتهمهم أنهم من أنصار الطّوارق وخاصّتهم، وكان من بين قتلاه الفقيه

محمود بن أندغ محمد وأخوه أحمد، واتّخذ بناتهم جواري ثم قتلهنّ جميعا، كما سجن والدة الفقيه محمود السيدة سِتَّ بنت أندغ محمد، أحد أهمّ وجهاء تنبكتو[٣٢]. واستمر سني علي في إهانة فقهاء سنكُري وينكّل بهم إلى سنة ٨٧٥ هـ/ ١٤٧٠م حيث خرج من بقي منهم إلى ولاته أيضا...، ومات في ذلك خيارهم، وتتبّع من لم تسعفه النجاة قتلاً وتشريداً، حتى تفرّق الفقهاء في أنحاء السّودان، وكان شديد العداوة لكل من الطوارق والفلانيين بل كانوا هم المستهدفين من حملته على بلاد التكرور[٣٣]. وبعد استقرار الأوضاع بتنبكتو لسلطان مالي رجع بعض الفقهاء من ولاتة[٣٤] إلى تنبكتو، سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م ومنهم: الفقيه محمود، وخاله المختار النحوي، وأمّا والده عمر بن محمد آقيت فقد توفّي في ولاتة وكذلك ابنه عبدالله[٣٥]. فخلفه ابنه أبو بكر؛ ووقع الخلاف بينه وبين محمد بن أبي بكر التوري أحد قيادات سُنّي علي، وبعد معارك كثيرة بينهما تغلّب التّوري على سني أبي بكر، وتملّك ما تركه سنّي علي، وتلقّب بالأسكيا محمد، وفرّج الله به عن المسلمين الكروب[٣٦].

**ب- النكبة الثانية (حملة المنصور السّعدي):**

بلاد السّودان كانت مرتبطة في أذهان أهل العصر الوسيط بتجارة الذّهب والرّقيق، وكانت المعلومات وأخبار السّودان تنتقل عن طريق التّجّار[٣٧]، وكانت أخبارها تُغْري السّلاطين طمعا في خيراتها وثرواتها، وخاصّة بعد رحلة الأسكيا الحاج محمد إلى الحجّ سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م، الّذي وزّع ذهبا كثيرا في رحلته تلك، ولما آنس السّلطان المنصور السّعدي في نفسه القوّة واستتبّ له أمر المغرب الأقصى، وخصوصا بعد انتصار دولتهم على البرتغاليين والمناوئين لهم في معركة الملوك الثّلاثة سنة ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م، أخذ يطمح بتوسيع مملكته جنوبا، لكثرة ثرواتها من الذهب والمعادن والعبيد والجواري، فاخذ المنصور يتحيّن الفرصة المناسبة، إلى أن تم سنة ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م فجهّز جيشا من المرتزقة بقيادة الأندلسي جودار باشا.

والسّبب المباشر لهذه الحملة هو أنّ السلطان السّعدي أرسل إلى الأسكيا إسحاق ليسلّمه خراج الذّهب بمنطقة تغاز، فلم يوافق الأسكيا على ذلك بل ردعليه ردا قاسيا، فلمّا وصله الجواب قرر غزو

السّودان بعدما كان متردّدا، سنة ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م أرسل إليهم جيشاً كبيراً مسلّحاً بأسلحة نارية، ومعهم الأطباء والصنّاع والكثير من المرتزقة الأندلسيّين والبرتغاليّين والأتراك، ولما دخلوا تنبكتو وجدوها أكثر عمارة وأمناً وعافية ورخاء[٣٨] وأثناء هذا الغزو اضطربت الأوضاع وشاعت الفوضى، وصار النّاس يأكل بعضهم بعضا، بالإغارة والاعتداء على الأموال والأرواح والرّقاب، فانتشر وعم ذلك الفساد في أنحاء البلاد طولا وعرضا.[٣٩]

وقد توجّه الباشا جودار إلى العاصمة غاو، لمحاربة جيش الأسكيا إسحاق سلطان السُّنْغَاي على ضفاف نهر النّيجر، وكانت بينهما معركة تونديبي سنة ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م شمال مدينة غاو، وقد كان جيش السّعديّين مكوّنا من حوالي ثلاثة آلاف مقاتل يحملون أسلحة نارية والبارود، بينما كان جيش الأسكيا كبيراً، لكنّه يقاتل بأسلحة تقليدية من الحِراب والسّهام والسّيوف، فكان النّصر حليف السّعديّين ودخلوا مدينة غاو، وفرّ الأسكيا جنوباً إلى الغابات، وكان يناوشهم من هناك. ولما بلغ السلّطان السّعدي خبر النّصر فرح فرحاً عظيماً، فأخرج الصّدقات وأعتق الرّقاب وأقام مهرجاناً عظيماً، ونظم الشّعراء قصائدهم مدحاً له، وأجازهم بما تحدّث النّاس عنه زمانا طويلا، وأرسل الغُزاة إلى المنصور بهديّة فيها عشرة آلاف مثقال ذهبا ومائتان من خيار الرّقيق وغير ذلك، ثمّ أردفوا له بهدايا أخرى فيها أحمال من الذّخائر، فيها أربعون حملا من التّبر، وأربعة سروج ذهبا خالصا، وألف ومائتان من متخيّر الرّقيق وغيرها، ولما وصلته هذه الهدايا سُرّ سروراً عظيماً، ولأجل ذلك لُقّب بالذّهبي، لأنّهم لم يشهدوا الذّهب الّذي شهدوه أيّام ولايته[٤٠].

ولم يكن أهل تنبكتو ينظرون إلى الغزاة بعين الرّضا والقبول، فثاروا عليهم عدّة مرّات، وكان بسبب ذلك خراب تنبكتو، ففي سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م جرى قتال بين أهل تنبكتو والقائد مصطفى التركي عامل السّعديين، فأدّى إلى هلاك النّاس واحتراق الدّور، وتكرّر ذلك في عدّة مناسبات كما حدث سنة ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م، ولم يستتبّ الأمر للسّعديّين في التكرور لكثرة الثّورات عليهم من الطوارق وقبائل صنهاجة والسّودانيّين، ثمّ توالى ولاة السّعديين على بلاد السّودان وأكرهوا النّاس على بيعتهم، فهدّدوهم وفتّشوا دورهم، وحشدوا النّاس في جامع سنكري للمبايعة، ووزّعوهم بحسب قبائلهم في جامع سنكري

لـذلك فـي أيّـام معـلومات، فبـايعـته في ٢٢/ محرم/ سنة ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م قبائل توات وفزان ووجله، وفي اليوم الثاني٢٣ / محرم/ سنة ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م، بايعته قبائل ولاته والوادان ومن والاهم، وأمّا الفريق الثّالث فهم العلماء والفقهاء، فأحضروهم في اليـوم الثّالـث ٢٤/ محرم/ ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م وأسروهم جميعا؛ فريق أُسر في تنبكتو وكان بينهم العلامة محمد بَغْيع، وفريق آخر أُخرج من البلد وأُخذ إلى مرّاكش بطلب من السّلطان أحمد المنصور السّعدي، وقد قُتل منهم الكثير كالفقيه أحمد مُعْيا، ومحمد الأمين بن محمد بن محمود، ومحمد المختار بن مُعْيا وغيرهم[٤١].

ثمّ دخل الباشا محمود تمبكتو واستولى على جميع ما فيها من الأموال والمتاع والأثاث، ونهب جيشه المدينة، وانتشر الفساد وانعدم الامن، ثمّ جمعوا كبار فقهاء تُنْبُكْتو وأخذوهم مصفّدين بالأغلال إلى مُرّاكش، منهم أحمد بابا والفقيه والقاضي أبو حفص عمر بن محمود، وعندما رأى القاضي عمر بن محمود مدينة مُرّاكش دعا عليهم، وقال: "اللهمّ كما شوّشونا وأخرجونا من بلادنا فشوّشْهم وأخرجْهم من بلادهم"[٤٢].

وفي مراكش أودعهم المنصور السّجـن ولم يطلق سراحهم إلا في الحادي والعشرين من رمضان سنة ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م بشرط بقائهم في مُرّاكش، وجرت بين أحمد بابا والمنصور الذّهبي معاتبة ومناظرة، قال النّاصري: "... ولما دخل الفقيه أبو العبّاس على المنصور بعد تسريحه من السّجن وجده يكلّم النّاس من وراء حجاب على طريقة خلفاء بني العبّاس ومن تشبّه بهم، فقال الشّيخ: إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾[الشورى:٥١]، وأنت قد تشبّهت بربّ الأرباب، فإن كانت لك حاجة في الكلام فانزل إلينا وارفع عنّا الحجاب، فنزل المنصور ورُفعت الأستار. فقال له الشّيخ: أيّ حاجة لك في نهب متاعي وتضييع كتبي وتصفيدي من تنبكتو إلى هنا، حتّى سقطت عن ظهر الجمل واندقّت ساقي؟ فقال له المنصور: أردنا أن تجتمع الكلمة، وأنتم في بلادكم من أعيانها، فإن أذعنتم أذعن غيركم. فقال الشّيخ أبو العبّاس: فهلا جمعت الكلمة بتُرْك تلمسان فإنّهم أقرب إليك منّا؟ فقال المنصور: قال النّبيّ ﷺ: "اتركوا التّرك ما تركوكم"، فامتثلنا الحديث. فقال أبو العبّاس: ذاك زمانٌ وبعُد، قال ابن عبّاس: "لا تتركوا التُّرْك وإن

تركوكم" فسكت المنصور وانفضّ المجلس"[٤٣].

ولما سُرّح أبو العباس تصدّر لنشر العلم وهرع إليه النّاس للأخذ عنه، وقد كان أبو العبّاس يتشوّق إلى بلده ويسكب العبرات عند ذكرها، ولما مات المنصور سنة ١٠١٢هـ / ١٦٠٣م وخلفه ابنه زيدان سمح لأهل تُنبكتو بالرّجوع إلى وطنهم، ولما خرج أحمد بابا من مراكش قاصداً بلده قال: لا ردّني الله إلى هذا المعاد، ولا رجعني إلى هذه البلاد، ثمّ لحق بتنبكتو فاستقرّ بها إلى أن تُوُفّي سنة ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦م[٤٤].

## المبحث الثاني: التعريف بشخصية أحمد بابا التنبكتي

### اسمه ومولده:

عرف أحمد بابا التنبكتي بشخصيته في كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج: فقد قال فيه: "يقول الفقير لرحمة ربه القدير أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر[٤٥] بن محمد أقيت عرف ببابا التكروري ثم التنبكتي المالكي..."[٤٦]. وفي الترجمة التي وضعها لنفسه في الصفحات الأخيرة من مصنفه **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**" قال أحمد بابا: " لما كانت النفوس تتشوق لمعرفة مؤلفي الكتب رأيت أن أذكر نفسي هنا لئلا يجهلني من وقف على هذا الجزء، لا لأني معدود في زمرة الناس، فإني والله أقل من ذلك وأقل". وعرف بابا اسمه ونسبه بأنه: أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى بن كدالة بن مكي بن نيق بن لف بن يحيى بن تشت بن تنفر بن حيراي بن النجر بن أبي بكر بن عمر الصنهاجي الماسني ويعرف ببابا[٤٧] وقال البعض: هو أبو العباس أحمد بابا التكروري التنبكتي السوداني[٤٨] من أهل تمبكتو[٤٩] Tomboctou أما المراكشي فيتعجب من تلقيبه بالسوادني رغم أنه ليس من السودان، فأصله صنهاجي[٥٠].

ولد ونشأ أحمد بابا في تنبكتو في الحادي والعشرين من ذي الحجة عام ٦٩٣هـ/ ١٥٥٦م كما وجده بخط والده،[٥١] ولكن القادري يذكر أن ولادته كانت سابقة لهذا التاريخ في عام ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م[٥٢]، وذكرت دائرة المعارف البريطانية ولادته ٩٦٤هـ/ ١٥٥٦م[٥٣]. وينحدر أحمد بابا من أسرة **ال آقيت** المسوفية الصنهاجية أصلا والتنبكتية موطنا، التي كان أبناؤها العلماء يتوارثون العلم والقضاء والمناصب الرفيعة في السودان الغربي أكثر من ٥٠٠ سنة.[٥٤]

اهتم أحمد بابا بالدرس والتحصيل منذ الصغر، فقد عاش أحمد بابا وسط أسرة شغوفة بالعلم فتنقل في مختلف مراحل الدراسة، فبدأ دراسته الأولية بالالتحاق بمعهد والده، ويقول إنه درس عليه أشياء عدة،

وأجازه وسمع عنه قراءة الصحيحين، والموطأ، والشفا. وبعد أن أنهى المرحلة الأولية ومناهجها انتقل إلى المرحلة التالية، وهي أشبه بالمرحلة العليا التي تميزت فيها الدراسة بالعمق في القضايا التفصيلية والشروح الدقيقة، ولها أساتذتها المختصون، وتمتد فيها الدراسة مدة عشر سنوات، يقضى بعض الطلبة نصف عمره في هذه المرحلة وبعد إكمالها يمنح الطالب إجازة من شيخه بعد اجتيازه امتحانات صعبة، يشارك فيها عدد من الشيوخ الكبار[٥٥] درس أحمد بابا القرآن، وحفظ أمهات الكتب في الفقه والحديث، ودرس الرسالة المنطق، وقد أخذ النحو عن عمه أبي بكر بن أقيت (ت ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م) وقرأ على القاضي العاقب بن الشيخ أبي الثناء محمود بن عمر وأجازه، كما أجازه من مكة الشيخ يحيى بن محمد الحطاب وأجازه الشيخ محمد بن محمد المعروف بمحمد خادم الغلاني، لازم أحمد بابا الشيخ بغيع عشر سنين، فختم عليه مختصر خليل بقراءته وقراءة غيره وختم عليه الموطأ، وتسهيل ابن مالك قراءة،بحثاً، وتحقيقاً بثلاث سنين، وأصول السبكي بشرح المحلى ثلاث مرات قراءة وتحقيقاً، وألفية العراقي بشرح مؤلفها، وتلخيص المفتاح بمختصر السعد مرتين وأكثر، ونظم أبي مقرعة، وصغرى السنوسي، وشرح زروق، والهاشمية في التنجيم مع شرحهما، ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المغيلي في المنطق، والخزرجية في العروض، وشرح الشريف السبتي، وتحفة الحكام لابن عاصم مع شرحهما، وقرأ عليه فرعى ابن الحاجب قراءة بحث، جميعه حضره في التوضيح من الوديعة إلى الأقضية والمنتقى للباجي والمدونة بشرح أبى الحسن الزرويلي، وشفاء عياض، وقرأ عليه المنتقى للباجي "والمدونة بشرح أبي الحسن الزرويلي، وصحيح البخاري حتى النصف، وسمعه بقراءته وصحيح مسلم كله، وقسم من مدخل ابن الحاج، ودروساً من الرسالة والألفية، وسمع بلفظه جامع المعيار للونشريسي إملاء وباحثه في كثير من المشكلات، وراجعه في المهمات، ويقول أحمد بابا بالجملة فهو شيخى وأستاذي ما نفعني أحد كنفعه وبركته، وأجازه بخطه، وأطلعه على بعض مؤلفاته؛ فسر بها وكتب عليها بخطه، وأخذ الشيخ عنه وختمها أبحاثه ونقل عنها في دروسه مما يدل على إنصافه[٥٦].

ويقول عن نفسه: إنه اشتهر بين الطلبة بالمهارة على كلل وملل في الطلب، ونقل في كتابه كفايه المحتاج ترجمة المراكشي له في الفهرسة الذي قال عن أحمد بابا "كان أخونا أحمد بابا من أهل العلم والفهم والإدراك التام الحسن، حسن التصنيف، كامل الخط، كامل

الحظ من العلوم."[٥٧]، وساعده على ذلك الاستقرار السياسي لدولة سنغاي القوية التي تحقق في عصرها ازدهار اقتصادي، فاصحبت مدينة تنبكت يؤمها التجار والعلماء والطلاب من الحجاز ومصر وشمال أفريقيا وشرقها، ومن كل مدن السودان، فتوفرت الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتحقيق نهضة حضارية كبرى في السودان الغربي وخاصة سنغاي[٥٨].

ويبدو أن أسرته العلمية من آل أقيت وبيئته الثقافية في تنبكت ساهمت في تكوينه ونضجه العلمي إذ كان جده لأمه الفقيه أندغم حمد أحد أقطاب العلم في مدينة تنبكت، وخاله الفقيه مختار النحوي الذي حج عام ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م، والتقى جلال الدين السيوطي، والشيخ خالد الوقاد الأزهري إمام النحو، الذي دخل مدينة كنو في أحداث فتنة سني علي، ودرس العلم في بلاد السودان[٥٩]. أما جده أندغ محمد فقد اشتهر بالعلم والدين، كان حافظاً للسنة، ملازماً لقراءة قصائد مدح الرسول ﷺ وهو فقيه ولغوي ونحوي، وعروضي، ترك ٧٠٠ مجلد وأخذ أحمد بابا عن جده لأمه الفقيه أندغمحمد[٦٠] وكذلك شقيق جده عبدالله بن عمر بن محمد أقيت ت ٩٢٩هـ/ ١٥٢٢م، الذي كان فقيهاً حافظًا، درس في لواته[٦١]، وشقيق جده محمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر التنبكتي، قاضي تنبكت، عالم التكرور ومدرسها، وأبنائه القضاة الثلاثة محمد والعاقب وعمر، ووالد الفقيه أحمد بابا (أحمد بن أحمد بن عمر)[٦٢].

شهد عصر أحمد بابا التنبكتي سواء في بلاده السودان الغربي أو في البيئة المغربية التي أُجبر على الرحيل إليها، اهتماماً كبيراً بالعلوم الدينية وعناية خاصة بجمع الكتب، ففي مدينة تنبكتو يشتهر علماؤها باقتناء الكتب وجمع المخطوطات كما يقول في كتابه كفاية المحتاج:" أنا أقل عشيرتي كتباً، نهب لي ألف وستمائة مجلد"، مما يعطي دلالة على رواج بيع وشراء الكتب والمخطوطات مما يدر على أصحابها أرباحا طائلة. ويقول السلاوي عن مكانة أسرة آل أقيت العلمية إنهم "توارثوا رئاسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة وكانوا من أهل اليسار والسؤدد والدين " وفي المغرب ازدهرت البيئة العلمية إذ استفاد أحمد بابا من فترة وجوده في مراكش ما يقارب خمسة عشر عاما، وساعد على ازهار العلوم فيها تشجيع السلطان المنصور الذهبي للحركة العلمية وتنافس العلماء في التأليف حتى قيل إنه ألفت برسم خزانته مئات الكتب وألفت

في حياته كتب منها: "المنتقى المقصور" لابن القاضي و"الممدود والمقصور: لابن عيسى و"مناهل الصفا" للفشتالي. وقد استفاد أحمد بابا من هذه البيئة فأسهم في التأليف والتعليم والفتيا، وكان أستاذا لجماعة من علمائها المشاهير من أمثال ابن القاضي صاحب جذوة الاقتباس"[٦٣]، ومحمد بن يعقوب صاحب فهرس الفهارس،[٦٤] الذي اشاد بالتنبكتي وحسن تصنيفه، وكذلك أحمد المقري صاحب روضة الآس[٦٥]، والقاضي أبو النعيم الغساني[٦٦] والمفتي الشيج الرجراجي وغيرهم.[٦٧]

**شيوخه:**

**- والده أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت (٩٢٩-٩٩١هـ/ ١٥٢٢-١٥٨٣م):**

يذكر أحمد عن والده أنه كان ذكيًا، مدركًا، متفننًا، محدثًا، أصولياً، منطقيًا، مشاركاً، صلبًا في الحق، أمام الملوك، لايهابهم حتى إنهم ينقادون إليه، يزورونه في بيته في منطقة (كاغ)، ومنهم السلطان الأعظم أسكيا داوود الذي يزوره ليلا ويسمر عنده تعظيمًا لقدره، ويقول إن والده وافر الجاه، محباً لأهل الخير، متواضعاً لا يحقد، منصفاً بين الناس، جامعاً للكتب، سامحاً لإعارتها. رحل للشرق سنة ٩٥٦هـ حج وزار[٦٨] واجتمع أثناء رحلته للشرق بعدة علماء منهم: أمين الدين الميموني، والملائي، وابن حجر العسقلاني، وعبدالعزيز اللمطي، وفي مصر التقى بعلماء مثل الناصر اللقاني، والشريف يوسف تلميذ السيوطى والأجهوري، والتاجوري، ولازم أبا المكارم البكري شيخ المالكية في مصر، وأخذ عنه. ثم عاد لبلاده، فدرس لفترة قليلة وشرح مخمسات العشرينيات الفازارية في مدائح النبي ﷺ ومنظومة المغيلي في المنطق، وكان يضع تعليقاته على موضع من خليل وعلى شرحه، وصغرى السنوسي، والقرطبية، وجمال الخونجي في الأصول، وأسمع الصحيحين أكثر من عشرين سنة.[٦٩]

**- عمه أبو بكر بن أحمد بن أحمد بن عمر بن أقيت (عم) أحمد بابا (٩٣٢-٩٩١هـ/ ١٥٢٥-١٥٨٣م):**

تنبكتي المولد، نزيل المدينة المنورة كان خيرًا زاهدًا تقيًا، أوابا، متين الدين، حج وجاور، ثم عاد لبلده، لأجل أولاده، ثم رجع، فحج، وسكن المدينة ومات فيها[٧٠] قرأ عليه التنبكتي علم النحو.[٧١]

**- محمد بن محمود ابن أبي بكر الونكري التنبكتي:**

عرف ب(بغيع) كان خيراً حسن النية،

يعامل الناس بالمساواة، يصلح بين الناس ويقضى حاجاتهم، وينصحهم إلى محبة العلم، وملازمته وصرف أوقاتهم فيه، ومصاحبة أهله، وتوفير الكتب الغريبة النفيسة لهم، ولا يسأل عنها في حالة فقدانها، حتى إنه فقد الكثير من هذه الكتب ولا يعرف من استعارها، وكان بغيع حريصًا على جمع الكتب واقتنائها شراءً ونسخًا[٧٢] وبغيع هو شيخ أحمد بابا كان يستعير من مكتبة شيخه كتب النحو، ويقول إن شيخه له صبر عظيم على التعليم أثناء النهار، وإيصال الفائدة للطالب البليد دون ملل أو ضجر.

كان بغيع تلميذ والد أحمد بابا، أخذ عنه الأصول والبيان والمنطق، وقرأ عليه أصول السبكي، وتلخيص المفتاح، وجمل الخونجي، وكان شيخ وقته في الفنون ولا نظير له[٧٣].

**- تلاميذه:**

من أشهر تلاميذ أحمد بابا أبو العباس أحمد بن محمد المقرى التلمساني ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م صاحب مصنفات "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب" ونقل المقري عنه في كتابه "أزهار الرياض في أخبار عياض"[٧٤].

ومن تلاميذه الفقيه العدل التهامي بن محمد بن أحمد بن رحمون العلمي، ذكره في كتابه "شذر الذهب في خير نسب"[٧٥] وأحمد فهدي بن أبي فهدي المراكشي الذى أثنى على شيخه أحمد بابا وقال أحمد بابا جلس إليه الكثير من العلماء والأعيان والطلاب في مراكش والذين تتلمذوا على يديه فقال: "وازدحم عليَّ الخلق وأعيان طلبتها ولازموني، بل قرأ على قضاتها كقاضي الجماعة بفاس العلامة أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني، وهو كبير ينيف على ستين، وكذلك قاضى مكناسه أبو العباس ابن القاضي المكناسي[٧٦] ومفتي مراكش الرجراجي" وأخذ عنه ابنه الفقيه سيدي محمد الذي كان في بلده أروان، ووصل توات ١٠٤١هـ/ ١٦٧١م[٧٧].

**الوظائف التي تولاها:**

تولى الشيخ أحمد بابا وظيفة التدريس في معاهد تنبكت العليا؛ فجلس للتدريس والتأليف، اشتهر بسعة صدره وغزارة علمه، وبرز كأحد علماء تنبكت الكبار، رغم صغر سنه، فكان لا يناظره في العلم إلا أساتذته، واستمر في البحث والتدريس في مساجد تنبكت حتى ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م عندما غزا المغاربة السودان الغربي، دخلوا مدينة تنبكت، وقبضوا على علمائها وعددهم ١٦٠ عالماً، واخرجوهم إلى مراكش، ومن بينهم

أحمد بابا التنبكتي، وكان عمره لا يتجاوز السادسة والثلاثين[٧٨].

أما الفترة التي أمضاها أحمد بابا في المغرب بعد إطلاق سراحه من قبل المنصور ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م، حتى مغادرته المغرب ١٠١٤-١٠١٥هـ/ ١٦٠٥-١٦٠٦م، فكانت مثمرة، حيث جلس أحمد بابا للتدريس فيها[٧٩] ودرس في مسجد الشرفاء بمراكش فقرأ فيه مختصر خليل، قراءة بحث وتدقيق، ونقل وتوجيه، وتسهيل ابن مالك وألفية الحديث للعراقي، فختمها عشر مرات، وتحفة الحكام لابن عاصم، وجمع الجوامع للسبكي، وحكم ابن عطا الله، والجامع الصغير للسيوطي، قراءة تفهم مراراً، والصحيحين سماعاً، وشمائل الترمذي، والاكتفاء لابن الربيع الكلاعي.[٨٠]

واشتغل أحمد بابا بالفتوى بالمغرب لفظًا وكتابة بحيث لا توجه الفتوى في مراكش إلا إليه، وعين إليها مراراً وكان يرفضها، ومن أبرز فتاويه في المغرب: فتواه في قضية الدخان والحشيش، إذ يقول صاحب الأعلام إن بعض المؤرخين المغاربة أدعى بأن عادة التدخين أدخلها السودانيون إلى مراكش عام ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م، وإلى قادس ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م، فظهر احتجاج الناس ضد التدخين الذي أخذ في الانتشار، فطلب المنصور رأي العلماء المغاربة فيه، فأفتى جلهم بكراهيته، وتحريمه[٨١]، وكان للشيخ أحمد بابا رأيه الخاص، فأصدر فيه كتابًا سماه (اللمع في الإشارة إلى حكم التبغ) أجاز فيه تدخين الطابة (الدخان) ما دامت غير منومة، وغير مفسدة للوضوء، فهي ليست كالخمر، ولكنه لم يجز تدخين الحشيشة، لأن الإكثار منها يسكر ويذهب العقل على طهارته[٨٢]. وبعد عودته إلى تنبكت **جلس للتدريس والتأليف** في مساجدها الكبرى، ويأتيه العلماء من سنغاي وبرنو وبلاد الهوسا ووزعت مؤلفاته على مدارس السودان الغربي.

كان أحمد بابا جريئاً قي قول الحق لا يهاب حكام عصره، فعندما خضعت سنغاي للحكم المغربي على يد المنصور الذهبي الذي أرسل حملة عسكرية بقيادة قائده جودر البرتغالي الأصل، فاحتل سنغاي وأسقط حكم الأسيقيين فيها عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م، وعاث جيشه فساداً في بلاد سنغاي، عندها رفض علماء سنغاي الاعتراف باحتلال جيش المنصور الذهبي لمدينة تنبكتو، الذي أحرق مكتبات المدينة، وقتل عدداً من علمائها، وقبض القائد محمود زرقون على أحمد بابا -الذي تصدى هو وعلماء أسرته للاحتلال المغربي- وعلى أفراد أسرته، وعدد كبير من علماء سنغاي، واقتيدوا إلى

مراكش، واستقروا فيها مع أفراد أسرهم في حكم الثقات سنة ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٤م، إلى أن انتهت محنتهم في محرم ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٦م، وقيل سنة ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٧م(٨٣).

ويذكر أن السلطان المنصور الذهبي قد طلب مقابلة الشيخ أحمد بابا، فلما ذهب للقائه وجده يكلم الناس من وراء حجاب، فقال مخاطبًا المنصور: إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾[الشورى:٥١]، وقد تشبهت برب الأرباب، فإن كانت لك حاجة في الكلام، فأنزل إلينا وارفع عنا الحجاب، فنزل المنصور، ورفعت الأستار"، وكان يقول له "أي حاجة لك في نهب متاعي، وتضييع كتبي، وتصفيدي من تنبكت إلى هنا. حتى سقطت من ظهر الجمل، واندقت ساقي. فرّد عليه المنصور بأنه أراد جمع الكلمة، وإذعانكم من أجل أن يخضع الكل"(٨٤).

وهكذا كان يظهر أحمد بابا في بلاط المنصور الذهبي قوي الحجة شديد المراس، لا يهاب السلاطين، رغم أنه كان يشتكي من الغربة ولا يرغب في العودة ثانية لمراكش(٨٥) ويتبين ذلك بقوله أثناء مغادرته مراكش بالعودة إلى مسقط رأسه تنبكتو قال: "لا ردني الله إلى هذا المعاد ولا رجعني إلى هذه البلاد"(٨٦).

**تخصصه ومذهبه:**

اشتمل تخصصه على العلوم الدينية واللغوية التي كانت تدرس في شمال غرب أفريقيه، وكان أكثرها اهتماماً بالعلوم الدينية، خاصة الفقه المالكي، الذي نال علماؤه الاحترام من أهل السودان المتعطشين للعلم والمعرفة، ويرفعون العلماء إلى مرتبة السلاطين، ويقدمون لهم الطاعة والولاء وقد تحدث أحمد بابا عن منهجه الذي درسه مع شيخه محمد بغيع السالف الذكر، حيث يكشف لنا مدى قوة المنهج الذي درسه وتنوعه وكثافته، وكذلك بين أن قراءاته متنوعة شملت ألفاظاً من مثل بحث وتحقيق، وقراءة بحث، وتحقيق وتدقيق، وقراءة تحقيق، وألفاظاً أخرى مثل: فسرت عليه، وباحثته، وراجعته، ولكل لفظ مدلوله العملي والزمني، لذلك فإن الشيخ أحمد بابا قضي عشر سنوات، لإكمال هذا المنهج مع شيخه حتى اجتاز امتحان الإجازة، ثم أجازه شيخه بخطه.(٨٧)

**آثاره العلمية:**

ساهم الشيخ أحمد بابا التنبكتي في مجال التأليف حيث مهر فيه كما مهر في مجالي

التدريس والفتوى، وكتب في شتى العلوم الشرعية واللغوية، والاجتماعية، وقد بدأت تظهر جهوده في التأليف منذ أن كان طالبًا مع شيخه محمد بغيع، إذ كان يكتب ويشرح ويعلق، ويعرض ما يكتبه على شيخه بغيع، فيقوم الأخير بتصحيحه وتشجيعه على الاستمرار، بل ينقل عنه أحيانا، وفى ذلك يقول أحمد بابا في حديثه عن شيخه "ووافقته على بعض تواليفى فمر به وقرظ عليه بخطه، بل كتب على أشياء من أبحاثي، وسمعته ينقل بعضها في دروسه لقبوله الحق، ولإنصافه وتواضعه"[٨٨].

ووصلت جهوده في التأليف ذروتها في المغرب، حيث البيئة العلمية المناسبة، والتفرغ التام لشؤون العلم، وقد تجاوزت مؤلفاته الستين مؤلفا[٨٩] وقيل الأربعين مؤلفا[٩٠] معظمها في اللغة والفقه، وأقلها في المنطق والسير، والتصوف، والتاريخ، وهي في جملتها بسيطة، لا يتجاوز بعضها عدد صفحاته عدد أصابع اليد، وبعضها الآخر يتكرر فيه العنوان والموضوع الواحد لأنها شروح ومختصرات وتعليقات كتب معظمها في مراكش، وأكثرها في الفقه المالكي، وقد قال عنه أبو عبدالله بن يعقوب المراكشي في فهرسته "كان أخونا أحمد بابا من أهل العلم والإدراك التام، حسن التصنيف مثابرًا على التغيير والمطالعة، مطبوعاً على التأليف ألف تآليف مفيدة جامعة، فيها أبحاث عقليات ونقليات"، وهي كثيرة تم ذكرها، وختم حديثه عنها بقوله: "وكان من أوعيه العلم، صان الله مهجته"[٩١].

أما أهم المجالات التي برز فيها أحمد بابا في التأليف: فهي التراجم وهو الرائد في هذا المجال في غرب أفريقيا، وجنوب الصحراء الكبرى، وأفرد لهذا العنوان كتبا مستقلة، جعلته في مصاف العلماء على مستوى العالم الإسلامى كله[٩٢]، كما كان حريصاً على جمع واقتناء الكتب، كباقي أفراد أسرته: حتى إنه قال: أنا أقل عشيرتى كتبا، ونهب لي ألف وستمائه كتاب[٩٣]، أما مؤلفاته في التراجم فهي: "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" و"كفاية المحتاج لمعرفة من ليس بالديباج "في تراجم المالكية، **ومؤلفاته في الفقة**[٩٤]: كثيرة خاصة في شرح مختصر خليل بن اسحق المصري وهي بمثابة جمل وأحكام منه وهذه المؤلفات هي: "شرح مختصر خليل" و"إفهام السامع بمعنى قول خليل في النكاح بالمنافع"، و"أنفس الأعلاق في فتح الاستغلاق من فهم كلام خليل في درك الصداق"، و" تنبيه الواقف على تحقيق وخصصت نية الحالف"، و" فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق"، و"الزند الوري في مسألة الشك في الطلاق"، و"منن

الرب الجليل، ببيان مهمات تحرير خليل"، و" ترتيب جامع المعيار" لأحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني (ت٩١٤هـ/ ١٥٠٩م) "والمقصد الكفيل بحل مقفل خليل"، أما **مؤلفاته في اللغة**[٩٥] هي"البداء والإعادة في مساواة الفاعل للمبتدأ في شروط الإفادة"و"النكت المستجادة في مساواتهما في شرط الإفادة". و"غاية الإجادة في مساواة الفاعل في شروط الإفادة" و"النكت الوفية في شرح الألفية –شرح ألفية ابن مالك في النحو" و "شرح رجز المكودي في التصديق"، و"المسك الأثم في معرفة هلم"، و"النكت الزكية بشرح الألفية". **ومؤلفاته في التاريخ**[٩٦] هي: دور السلوك بذكر الخلفاء وأفاضل الملوك"، و"القول المنيف في ترجمة الإمام أبي عبدالله الشريف"، وقد لخص فيه جزءاً لبعض علماء التلمسانيين عرف فيه بمحمد بن أحمد الشريف التلمساني وولديه. و"اللالئ السندسية في الفضائل السنوسية"[٩٧] وهو مختصر لكتاب "المواهب القدوسية في المناقب السنوسية" تأليف محمد بن إبراهيم الملالي، و"منظومة في المبعوثين على رأس كل مئة سنة".[٩٨] **ومن مؤلفاته المتفرقة**[٩٩] "إمتاع الأسماع بما قيل في إجراء ألفاظ الحديث مجرى السماع" و"تنوير القلوب بتكفير الأعمال الصالحة للذنوب"، و"جلب النعمة، ودفع النقمة، بمجانبة الظلمة"[١٠٠] "وخمائل الزهر فيما ورد من كيفية الصلاة على سيد البشر"، و"رسالة في التصوف"، و"شرح الصدور وتنوير القلب"، و"اللمع في الإشارة إلى حكم طبغ"، و"**تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء**"[١٠١]، و"**معراج الصعود إلى نيل حكم مجلب السود**"، و"الدر النضير في كيفية الصلاة على النبي البشير" و"نشر العبير بمعاني آية الصلاة على البشير النذير"، و"تنبيه الواقف على تحرير(وخصصت) نية الحالف"، و"التحديث والتأنيس في الاحتجاج بابن إدريس (ورقات) و"شرح الصغرى للسنوسي"(أربعة كراريس) و"مختصر وترجمة السنوسي" (ثلاثة كراريس) و"المطلب والمأرب في أعظم أسماء الرب تعالى: (كراسة واحدة) و"أسئلة في المشكلات"و"نيل الأمل في تفضيل النية على العمل". "ونيل الابتهاج بالذيل على الديباج."[١٠٢] "وعدد كثير من الرسائل في مواضيع مختلفة.

**ومن مؤلفات أحمد بابا المطبوعة والمنشورة**:

- كتاب **تحفة الفضلاء ببعض العلماء**؛ تحقيق سعيد سامي. جامعة محمد الخامس، الرباط: معهد الدراسات الأفريقية، ١٩٩٢م.
- وكتاب **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في**

**الديباج**؛ دراسة و تحقيق محمد مطيع، المحمدية: مطبعة فضالة، ٢٠٠٠م.

- وكتاب **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**؛ عناية وتقديم عبدالحميد عبدالله الهرامة، طرابلس، ليبيا، دار الكاتب، ٢٠٠٠م.
- وكتاب **معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السود**، تحقيق وترجمة: فاطمة الحراق وجون هانويك، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، ط١، ٢٠٠٠م، جامعة محمد الخامس، منشورات معهد الدراسات الأفريقية-الرباط.

**وفاته**:

قال البرتلي الولاتي إن وفاته يوم الخميس السادس من شعبان عام ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦م[١٠٣] وعمره ٧٣ عاماً، وقال آخرون أنه توفي سنه ١٠٣٢هـ/١٦٢٢[١٠٤].

**أراء العلماء والباحثين في المؤلف**:

أشاد مجموعة من المؤلفين والكتاب بأحمد بابا ومؤلفاته، فأثنوا عليه ووصفوه بأنه ثقة فيما يرويه عن معاصروه، فقد قال فيه عبدالجليل التميمي في مقال عن كتاب أحمد بابا نيل الابتهاج: إن المعلومات الببلوغرافية المتعلقة بالقرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الهجري تكاد تكون سليمة وصحيحة وموثوق بها، بخلاف ما أورده حول أعلام القرون الأولى من الرصيد المكتبي وقال: "إن الكتاب يعتبر أساسا سجلا للأعلام الأندلسيين والتونسيين والمغاربة والجزائريين والطرابلسيين" أما المؤرخ بروفنسال فجعل كتاب نيل الابتهاج من أهم المصادر المغربية المتعلقة بالتراجم وقال: "إن أحمد بابا التنبكتي جدير بأن يحل اسمه ضمن المؤرخين غير المباشرين للمغرب أواخر القرن السادس عشر الميلادي" وجاء في دائرة المعارف الإسلامية القول: "إن كتاب نيل الابتهاج من المصادر العمدة في استعراضه المراجع التي تحدثت عن المغرب وأعلامه حتى القرن السادس عشر ومن أنصفه من الباحثين حسن تاوشيخت الذي قال إن استقرار أحمد بابا في مراكش ساهم في توثيق الصلات بين المغرب والسودان الغربي: (لقد كان لمجيء العلامة أحمد بابا التنبكتي إلى بلاد المغرب الأقصى خلال عهد السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي سنة ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٤م واستقراره بمدينة مراكش إلى حين عودته إلى بلده تنبكت عام ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م، إيذانا بفتح صفحة جديدة من العلاقات المتينة بين المغرب وبلاد السودان الغربي وخاصة في المجالات العلمية والفكرية والدينية). ولم تكن إقامة هذا العلامة ببلاد المغرب فقط

من أجل طلب المزيد من العلم، وإنما تعتبر بمثابة قيمة مضافة أغنت التراث المغربي الأفريقي المشترك. لقد ترك أحمد بابا مؤلفات عديدة تهم مختلف العلوم الدينية، وهي مؤلفات تتوزع على عدة خزانات ومكتبات سواء بالغرب الإسلامي أو ببلاد السودان أو بلاد المشرق. إن فهارس هذه الخزانات والمكتبات، تقدم الدليل على العلم الغزير والفكر الموسوعي لهذا العلامة الذي كان منارة عصره، اعتباراً لمكانته العلمية، ولما حظي به من حظوة وعطف من طرف المنصور السعدي. فقد ترك هذا العالم للخزانة العربية الإسلامية ما بين ستين وثمانين مخطوطاً، تهم مختلف العلوم من فقه وحديث وسيرة وعقائد وتراجم وتاريخ ولغة عربية وتصوف، فضلا عن الفتاوى التي تناولت قضايا متنوعة.[١٠٥]

**نقد العلماء والباحثين أحمد بابا:**

رغم المكانة العلمية التى حظي بها الشيخ أحمد بابا التنبكتي الذي ألف في مجالات الفقه واللغة والتاريخ ومصنفات متفرقة أخرى، إلا أن هناك مآخذ علمية عليه وعلى مؤلفاته، فقد جاء في إحدى الدراسات الحديثة قولها: إن الشيخ أحمد بابا لم يكن كاتباً بارعاً، ولا شاعرا مطبوعاً، والأبيات التي ذكرها مترجموه في الشوق إلى كاغو، والحنين إلى سنكرى وقصائد أخرى ذات مستوى منخفض لفظاً ومعنىً ووزناً وقافية[١٠٦].

وأخذ عليه أنه لم يكن سوى حافظ من جملة الفقهاء والحفاظ، الذين ظهروا في الجناح الغربي من العالم الإسلامي في القرنين الهجريين العاشر والحادى عشر، ولا يتميز عنهم باجتهاد، ولا يوجد له رأي مخالف لما عرف لهم من آراء، سوى قوله بحلية التبغ (طابا-الدخان) وقولهم بتحريمه، استنادًا منه إلى القاعدة الأصولية التي تقول إن الأصل في الأشياء الحلية،إلا ما ورد نص صريح بتحريمه، رغم أن علماء وقته ومن جاء بعدهم من العلماء والمؤرخين بالغوا في الثناء عليه، وأطنبوا في ذكر مواهبه، وتنافسوا في الحصول على إجازته، فإن النظر في آرائه الفقهية لا تدل على مواهب خارقة، وقد تكون شهرته وتعاطف الناس معه جاءت من معاناته ومحنته، ومما كتبه عن فقهاء المذهب المالكي من كتب أصبحت مرجعًا لا يستغنى عنه.[١٠٧]

ويؤخذ عليه أنه كان خرافياً وبدعي الفكر، فعندما كان في مراكش زار قبر أبي العباس السبتي ت: ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م أكثر من ٥٠٠ مرة، وكان يأتي في كل زيارة ببطاقة مختوم، ويضعها على قبره قائلاً: "أني أسألك ما في

هذه البراءة"، وهذا يدل على غفلته، وعدم استفادته مما كان يحفظ من أحاديث ويدرس الناس من عقائد لأن هذا العمل يتنافي مع التوحيد.[١٠٨]

ترك أحمد بابا عددًا وفيراً من المصنفات معظمها في اللغة والفقه، وأقلها في المنطق والسير، والتصوف، والتاريخ، وهي في جملتها بسيطة المبنى صفحاتها قليلة، وبعضها الآخر ليس إلا فتاوى أو اختصارًا لمؤلفات أكبر حجمًا له أو لغيره، وبعضها يتكرر فيه العنوان لموضوع واحد، وأحسن كتبه **نيل الابتهاج بتطريز الديباج** "والثاني **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**"[١٠٩]

ويبدو من سياق الحديث السالف أن بعض الدراسات الحديثة تحاملت عليه في إصدار مثل هذه الأحكام على عالم وفقيه مسلم ساهم في التأليف في ظل ظروف قاسية ألمت به شخصيا، إضافة إلى الأوضاع التي كانت عليها بلد مسلم كسنغاي في بعدها عن مراكز العلم في البلاد العربية الإسلامية وعندما توفرت له البيئة العلمية المناسبة أبدع في التصنيف والتأليف حتى وصلت مؤلفاته إلى تسعة وعشرين كتابًا ألفها جميعها في بلد المحنة (مراكش)[١١٠]، وكان أحمد بابا يقول: إن بُعد مدينة تمبكتو عن مراكز الحضارة والعلم يحول دون المساهمة من قبل علمائها في التأليف، لعدم توافر الكتب على الأقل فيها.

وأخذ على أحمد بابا ما كتبه في كتابه **(معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السود)**[١١١] الذي أجاب فيه عن سؤال وجهه بعض الأعيان من نظرات حول العبيد المجلوبين من بعض جهات السودان التي تقرر إسلام أهلها. وقد انتقده كثير من العلماء إباحته استرقاق بعض أصناف السودانيين، لإنهم لا يزالون على الكفر، ومن الذين انتقدوه السلاوي الذى قال عنه: إن تفضيل أبي العباس، أي تفريق أحمد بابا بين سكان السودان من حيث عقائدهم إنما ينفع البلاد المجاورة لهم والمطلعين على المجلوب منهم من غيرهم فأما أهل المغرب الذين بيننا وبينهم (قفار) فما الذي يحقق لهم ذلك[١١٢].

ويقول محمد الهيلة في تعريفه بالإمام البرزلي (ت٨٤١هـ/ ١٤٣٨م[١١٣]) إن التنبكتي اكتفى بنقل ما كتبه ابن مريم التالي، قلت: ذكر بعض أصحابنا وفاته سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م وكذا رأيته مقيدا في بعض المواضع" وبين قول أحمد بابا قلت: ورأيت في بعض التقاييد أن وفاته سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م، ولا تثبت المقارنة كما نرى تهمة النقل الحرفي غير الموثق. وأشار مؤلف آخر إلى أن التنبكتي قام بالنقل من

كتاب الفهرس لابن منجور ما يتعلق بعمر الوزان، وقد نبه أحمد بابا نفسه أنه أفاد من فهارس الشيوخ ولم ينكر الأخذ عنه.

## المبحث الثالث: منهج أحمد بابا في كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج:

بدأ أحمد بابا كتابه في البسملة والحمد والصلاة والسلام على سيدنا محمد المرسل بالحنيفية الغراء. (وبعد)، ثم ينهي بعد ذلك الحديث.[١١٤] ويعرف أحمد بنفسه حيث يقول: "يقول الفقير لرحمة ربه القدير أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت عرف ببابا التكروري ثم التنبكتي المالكي وفقه الله لرضاه وأناله حلاوة تقواه"[١١٥].

ويتحدث عن علم التاريخ ومكانة العلماء ودورهم في علم التاريخ عندما يقول "لما كان علم التاريخ ومعرفة الأئمة من علماء الملة من الأمور العلية، يعتني به كل ذي همة زكية، إذ هم نقلة الدين، وحملة الشريعة المحمدية، وبه يتميز الصالح من الطالح والمسخوط من المقبول، ويعرف ذو العدل منهم، ومن هو مجهول فيعطي كل ذي حق حقه..."[١١٦] يتحدث عن علم الجرح والتعديل، واعتناء العلماء والفقهاء به، فيقول: "اعتنى الأئمة قديماً وحديثًا بالوضع فيها على أنحاء متفاوته، وبعضهم عرف أهل الفقه، ومن لهم فيه مقالة، أو انتسب إلى حمله وانتحى له"[١١٧] وقد ذكر الفقهاء الذين تصدوا للكتابة في المذهب المالكي، وجمع ما تفرق عند غيره قديماً وحديثاً، ومنهم: أبو الفضل القاضي عياض (صاحب أزهار الرياض في أخبار عياض)، (ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك)، وتابعه جماعة اختصروا كتاب ترتيب المدارك.[١١٨]

بعد ذلك ينتقل إلى القول إن أبا إسحق إبراهيم بن فرحون المدني[١١٩] قطف من كلام القاضي عياض[١٢٠]، واستدرك عليه الجماعة المتأخرة، حيث رتب كتابه حسب حروف المعجم، وبين فيه الأمور المهمة والمخفية، ولكن رغم ذلك لم يوف المذهب المالكي حقه[١٢١].

ويذكر **أحمد بابا أن سبب تأليفه كتاب نيل الابتهاج في تطريز الديباج،** هو عدم إيفاء ابن فرحون هذا العلم حقه وهذا دفعه إلى استدراك بعض ما فات عند ابن فرحون، ومن جاء بعده من الأئمة والعلماء، حيث كانت نفسه تتوق منذ قديم الزمان إلى التأليف في هذا المجال واستكمال جهود ابن فرحون[١٢٢]، ويشير أحمد بابا إلى الأسباب

التي كانت تعيق قيامه بالكتابة في الاستدراك على ابن فرحون، حيث يذكر منها، وجوده في بلد بعيد عن مدن العالم، وعدم توفر الكتب التي تبحث في هذا المجال، إضافة إلى حوادث الزمان وما ابتلي به من فتن، وإذا كان هناك من كتب بعد ابن فرحون، فتكاد الكتابة تكون مقصرة، خاصة من كتب في ذكر ٣٠٠ ترجمة من البيض، وليس من السودان، إلا أن كتابته لم تعط الموضوع حقه رغم أنه من رجال السياسة والعلم ومن أهل مصر والقاهرة، ولكن لم يشر إلى اسم هذا المصنف، فكيف الحال بأحمد بابا الذي هو في منطقة بعيدة عن مقومات العلم. أمانيه كبيرة وجهوده قليلة بسبب ذلك. ورغم ذلك جمع في هذه الكراريس ما تيسر مما ليس في ديباج ابن فرحون مذكورا، وزادت تراجم أخرى ذكرها فجاءه فوق ما أراد وسماه (نيل الابتهاج بتطريز الديباج)[١٢٣] وقد وضع أحمد بابا عنواناً صغيراً جاء بين أسطر مكتوبة "مقدمة" تناول من خلالها الحديث عن أيام العرب، وأشهر من عرف بتعلمها من العرب وهو الإمام الشافعي، وأعطى أدلة على أهميتها آيات قرآنية وأحاديث نبوية.

ويشير إلى أهمية التاريخ بالنسبة للمؤرخ وغيره، لأن التاريخ "يفيد حزمًا وعزماً وموعظة، وعلما، وهمة، تذهب هماً، وبياناً يزيل وهنا، ووهما، واستند في ذلك على قول الصفدي،[١٢٤] وأشار إلى الشروط الواجب توفرها في المؤرخ ومصدره التاج السبكي في كتابه "معيد النعم ومبيد النقم" الذي قال فيه: يجب على المؤرخ أن يتقي الله. ويتجنب النقل من غير الثقات والابتعاد عن الجهل، والتعصب، والتسلط على أعراض الناس، وقال أن السبكي اشترط في المؤرخ: الصدق، واعتماد اللفظ لا المعنى، والمعرفة بحال من يترجم لهم علماً وديناً، دون زيادة أو نقصان، أو المبالغة في المدح أو الذم.[١٢٥] ذكر أحمد بابا قول الصفدي[١٢٦] إنه يتم البدء بالتراجم على النحو التالي –اللقب ثم الكنية ثم الاسم والنسبة للبلاد، ثم الأصل والمذهب في الفروع والاعتقاد والعلم والصناعة والخلافة، والسلطنة والوزارة والقضاء والإمرة والمشيخة ويقول: اعتمد على الأخذ باللقب أولا من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران:٤٥]، أما رأي أحمد بابا فقد استمده من رأى النحاة وهو: تأخير اللقب عن الاسم والكنية

عند الاجتماع.[١٢٧]

**منهجه في بناء الترجمة:**

اتبع أحمد بابا منهجية واضحة ومحددة في كتابه نيل الابتهاج أعرب عنها بقوله: وبعد تحصيل هذه المقدمة نرجع إلى المقصود مبتدئاً بصاحب الأصل الذي ذيلنا عليه وهو ابن فرحون، كما اقتضاه حسب الاتفاق، ثم ترتب الأسامي بعده، على ترتيبهم في الزمن والوفاة غالبًا،إذ ترتيبهم على مقدارهم في العلم والجلاله غير ممكن. وجاء في آخر صفحة من كتابه قوله "ولكن هذا آخر ما أردنا وضعه واخترنا جمعه بعون الله تعالى[١٢٨] وفي طبعة أخرى كان قوله مختلفًا عما سبق في خاتمة كتابه إذ يقول "وافق الفراغ منه وقت الضحى يوم الجمعة سابع جمادى الأولى. سنة خمسة وألف...أرانا الله تعالى ختامه في عافية... بدرب عبيدالله من مدينة مراكش من المغرب المصونة.

ومن خلال دراسة هذا الكتاب تبين لنا أنه يحتوي تراجم علماء المذهب المالكي تم إحصاؤها بما لا يزيد عن (٨٠٢) ترجمة لفقهاء المالكية مشارقه ومغاربة وأندلسية، ومن بلاد السودان الغربي. وهو ما افتقر إليه كتاب الديباج المذهب في تراجم لعلماء من السودان الغربي تقريباً.

وجاءت تراجم الكتاب مرتبة ترتيباً أبجديًا شرقياً وترتيباً زمنياً تقريبياً حسب الوفيات داخل كل حرف[١٢٩]، يبدأ أحمد بابا تراجمه بحرف الهمزة فيذكر إبراهيم بن علي بن محمد بن أبي القاسم بن فرحون حيث صار في منهجه علم منهج مخالف للصفدي -الذي يبدأ باللقب والكنية والاسم- حيث اعتمد أحمد بابا منهج النحاة في تأخير اللقب، فهو يذكر الاسم مرتبًا حسب الأحرف الأبجدية ثم الكنية واللقب إذا وجدت هذه في الترجمة، وغالباً ما يذكر جميع الكنى والألقاب التي عرف بها المترجم له واسمه كاملاً ومن الأمثلة على ذلك:أحمد بن محمد بن إبراهيم القرشي المعروف بابن فرحون[١٣٠]، وأحمد ابن محمد بن عثمان الأزدي عرف بابن البنا[١٣١]، وأحمد بن محمد بن على التحيبي مشهور بابن القراف، وأحمد بن عيسى البطوي أبو العباس التلمساني، وأحمد بن محمد بن يعقوب العجيبي مشهر بالعبادي ويكنى أبا العباس. وفي بعض التراجم لا يلتزم بالكنية واللقب، إذ يذكر الكنية قبل اللقب كما هو في المثال الأخير، ويذكر أيضاً النسبة إلى البلد أو القبيلة، مثل: أحمد ابن محمد بن فاقال الجزائري وأحمد بن عبدالله الجزائري الزواوي[١٣٢].

ويتحدث عن نسب المؤلف، البلاد

والقبيلة وجذورها في بعض التراجم "يذكر مسقط الرأس... تاريخ الولادة في الكثير من التراجم وتاريخ الوفاة حيث يكتبها من مصادرها الأصلية، ويورد في بعض التراجم عدداً من تاريخ الوفيات حسب مصادرها، وفى حالة عدم العثور على تاريخها يقول "لم أقف على تاريخ وفاته" أو لا يذكرها مثلا عبدالله بن عيسى ابن الإمام (لم يقف على وفاته هكذا قال أو يقول كان حياً سنة، أو توفي بعد سنة كذا أو قبل سنة كذا، ويذكر في بعض التراجم تاريخ الوفاة بدقه حيث اليوم والشهر والسنة ونادراً ما يقول توفي مع عدم ذكر السنة أو يقول توفي في هذه السنة أو في التي قبلها كما يذكر سبب الوفاة في بعض التراجم إذا كان غريقاً أو مقتولاً أو بسبب الوباء بالطاعون ونحوه أو مسموماً، ويشير إلى مكان السكن كنزيل فاس، نزيل بجاية نزيل سلا وغيرها، ويستخدم لفظ مات في بعض التراجم، وأخرى توفي، ويذكر كذلك في التراجم الدراسة الأولى والاستنتاج والمشارب العلمية وما ينسب لصاحب الترجمة من أعمال ووظائف ونوازل وقضايا فكرية والخلافات التي تقع بين الفقهاء حول بعض المسائل الفقهية وعلاقة العلماء والفقهاء بالحكام، ورحلاتهم وتلاميذهم ومؤلفاتهم... والمصادر التي اعتمدها في التأليف في الكثير من الروايات كما يشير إلى الصفات الشخصية التي يتمتع بها المترجم له وهيئته وقلبه وخلقه وخُلقه ويشير إلى طبقة من يترجم لهم مثل ابن القطانية من المائة التاسعة [١٣٣].

كانت التراجم تتراوح بين الطول والقصر حسب مكانة من يترجم له فإذا كان من أهل العلم والفضل والكرامة تكون ترجمته واسعة ومن الأمثلة على ذلك، ترجمة خليل بن إسحق بن موسى بن شعيب وترجمة العلوي وغيره، وهناك تراجم قصيرة اقتصرت على الاسم وتاريخ الوفاة ومعلومات قليلة جداً ومن الأمثلة: ترجمة أحمد بن محمد الزناتي (الحصار) وأحمد بن محمد الفهري (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) وأحمد بن يعقوب العجيسي، وكان أحياناً يشير إلى عدم وقوفه على تراجم لبعضهم فيكتفي بذكر الاسم والوفاة إذا وجدت مثل أحمد بن العباس واهتم بالتراجم لأسر ذات مكانة علمية، ومنهم أسرة آل اقيت حيث ذكر جميع مصنفي هذه الأسرة، وأحمد البلوي وابنه، والحباك العقباني، وأحفاده وأحفاد أحفاده، ويذكر صله القرابة التي تربط أفراد الأسرة ببعضها البعض مثل الحباك "وإخوته لأبيه، وأخيه الشيخ الفقيه

الصالح الرباني أبي عبدالله، محمد بن سعيد، وأحمد بن الحسن المديوني جد الحفيد الإمام ابن مرزوق لأمه قال: هو جدي أبو عبدالله القلشاني والد الأعمر وأوحد القلشانيين أحمد بن محمد بن سعيد، كان أخوه مشهوراً بالعلاج وغيرها ويهتم كثيرا بكرامات العلماء، حيث يتوسع في الحديث عنها حتى يجعلها مرتبطة بشخصية المترجم له: مثل شعيب الأندلسي، وعبدالله بن محمد ذي النور، وعبدالرحمن الهزميري. كانت ألفاظه قوية ومتينة وجزلة، مما يدل على تمكنه من اللغة، فألفاظه بقدر معانيه، وعباراته شديدة الدلالة على ما يقصد، فكان يذكر الكثير من الكلمات وتشكيلها مثل لفظ المزجلدي (قلت: والجيم في ذلك معقود قريب من الكاف، وكذلك ينقط تحته ثلاث نقاط تنبيهًا على ذلك)، كان دقيقاً في النقل، ووردت له الكثير من الأمثلة في التراجم قبل: نظاراً، ثبتاً، بحاثاً مدققاً، جدلياً. كما استخدم كلمات وألفاظاً قريبةً من الألفاظ الحديثة مثل مدرس، دروس نخبه،تحقيق، جدلي، أرخه، وكان يبتعد عن الألفاظ العامية، ويستدل بالآيات القرانية، ويذكر شيئاً من شعر مَن يترجم لهم، أو يعطي عِبر من الشعر[١٣٤].

## مصادر أحمد بابا في كتابه نيل الابتهاج:

يمتاز أحمد بابا بدقه النقل، حيث اعتمد على المصادر المكتوبة ونادراً جداً ما يقول أخبرني إلا إذا كان أحد أفراد أسرته كوالده مثلاً وحدثنى القاضي أبو محمد اللوربي، اخبرني من لقيت من أصحابه تعليقًا على مختصر خليل وبذلك يثبت اعتماده على المصادر المكتوبة أكثر من الشفويه، وكان يذكر بدقه اسم المصدر المعتمد لديه مثل (ذكر ابن فرحون في الأصل) وقفت عليه بخطه في سفره، ووقفت عليه كله إلا سفر منه وفي حالة اطلاعه على المصدر مباشرة يقول: هكذا رأيته في شرحه وقفت (على حاشية مختصر خليل) في جزء لطيف، أخذ عنه الشرف الطخيخي[١٣٥]، رأيت في وفيات الونشريسي ما نصه رأيت اسميهما مقيدًا على نسخة عتيق من المعنى بخط عتيق والله أعلم[١٣٦].

ويمكن أن يلاحظ على التراجم التي أوردها أحمد بابا استخدامه المنهجيه التالية:

١- اعتماده المباشر على المصادر الأصلية: وهي كثيرة جدًا حيث ينقل المعلومات إما حرفيًا أو ملخصاً ويعترف بقوله مثلا: قال القلصادي في فهرسته لكلام ملخصاً عن ابن صعد وهكذا ذكره البدر القرافي وفى حالة نقله: يقول: قال تلميذه، وفى حالة تصحيحه للمعلومات الواردة يشير إلى

القول (صح من السخاوي)، (صح من السيوطي)، (صح من عنوان الدراسة) (صح من الدرر الكامنة) لابن حجر، صحح من كناشة سيدي أحمد زروق، وابن غازي في فهرسته[١٣٧].

٢- كان أحمد بابا يميز بين أقواله وآرائه وبين أقوال من نقل عنهم، بعبارة (قلت) حيث توضع بين قوسين، ويبدى رأيه بها بإضافة معلومات جديدة من مصادر أخرى، أو يضع من خلالها تعليقاً ويقول مثلاً" لم يعطه ابن الخطيب حقه في الإحاطة"[١٣٨].

٣- يورد في كتابه (فائدة) أو لطيفة وهذه العبارة تتضمن أقوال العلماء وإضافاتهم ويميزها، عن قوله، وأحيانًا تكون من ضمن الموضوع أو خارجة عنه.

٤- استخدامه لفظ قال غيره، قال تلميذه، قال الغبريني، قال الغبريني في عنوان الدراية، ويشير كثيراً إلى من ينقل عنهم، وفي الترجمة الواحدة ينقل عن عدة مصادر، خاصة إذا كانت الترجمة هامة وطويلة، مثلاً يقول: رفع النقل عنه في المعيار، ويشير كثيراً في التراجم إلى من نقل عن صاحب الترجمة في المصادر الأخرى فيقول مثلا: نقل عنه جملة في المازونية والمعيار ذكر القلصادي في رحلته، نقل عنه ابن ناجي في شرح المدونة والشك في العبارات التي ينقلها ويبدي رأيه بالقول: غالب ظني حتى إنه الذي عرفه بالديباج وسماه حيدرة وينبه القارئ إلى التحقيق من المعلومات والأسماء المتشابهة، (وكان أحمد بابا يجري مقارنة بين الشبه والاختلاف في حالة الأسماء المتشابهة يميز القارئ بينهما مثل ترجمة سعد بن أحمد التجيبي وعبارة فتأمله[١٣٩]، وأشار أحمد بابا إلى ترجمة لإمرأة واحدة هي: أم هانيء العبدوسية، أما التراجم الأخرى فجميعها لرجال مشارقة ومغاربة.[١٤٠]

ويتبين من خلال التراجم الواردة أن المؤلف قلما اعتمد الروايات الشفوية، فأشار إلى والده وبعض شيوخه وأصحابه بذلك من خلال إيراده عادة حدثني، أخبرني بعض أصحابه. وكان جل اعتماد المؤلف على المصادر المكتوبة "التي تيسرت له في مراكش وهذه المصادر كثيرة جداً، كان يفصح بالنقل عنها في جميع ألفاظها ودلالاتها، مما يشير إلى صدق المؤلف، ودقته وأمانته في النقل حتى إنه كان يميز بعبارة (قلت) ليفرق بين قوله وقول غيره ولا يخلط بينهما، وهذه المصادر التي اعتمدها كان يستخدمها في تغطية التراجم، وتصحيحها ومقابلتها مع بعضها البعض، وفي حالة الشك في الخبر ينقله من عدة وجوه؛ أي مصادر مختلفة. وقد تنوعت

المصادر المعتمدة في الكتاب من كتب فقهية ولغوية وتراجم وتاريخيه ونوازل ومسائل أشار إليها جميعها دون غمض أو التباس.

كان يعتمد في الترجمه على الأقرب للمترجم من أفراد أسرته أو تلاميذه، ويشير إلى ذلك بالقول قال تلميذه ونحوها، أما أثناء النقل، فكان يذكر اسم الكتاب، أو اسم الكتاب والمصنف أو اسم المصنف دون الكتاب أو جميعها يذكرها، مثلا قال أبو شامة، ابن الحاجب والشيخ خليل في التوضيح، قال السخاوي في الضوء اللامع، قال ابن الأبار (دون ذكر مصادر) الونشريسي، الونشريسي في المعيار، ابن قاضي شهبة شرح البخاري، صحيح مسلم، شرح ابن الحاجب[١٤١].

**طباعة الكتاب:**

طبع كتاب نيل الابتهاج عدة طبعات غير محققة أكثرها على حاشية الديباج المذهب، ومنها طبعة فاس سنة١٣١٧هـ، والقاهرة سنة١٣٢٩هـ، وطبعة المعاهد سنة ١٣٣٥هـ.

أما اختصارات وذيول كتاب نيل الابتهاج، فقد بدأها المؤلف باختصار كتابه المسمى كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، وقال في مقدمة الكتاب إنه الجزء الذي اختصره من الذيل الذي ذيل به كتاب (الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب) واقتصره على مشاهير الأمة، وأولى التصانيف دون غيرهم وسار فيه على نفس النهج في كتابه نيل الابتهاج حيث بدأ بترجمة من اسمه أحمد ثم أتبعه بالترجمة حسب الحروف الهجائية، ثم ذكر ترجمتين لم يذكرهما في كتابه الأصل، ثم وضع ترجمة لنفسه، وذكر مصادر كتابه. ويبدو أن أحمد بابا أثر فيمن جاء بعده، حيث وضعوا مختصرات على هامش كتابه (نيل الابتهاج وفي تطريز الديباج)، وكتابه المختصر (كفاية المحتاج لمعرفة ما ليس في الديباج)، فقد وضع في عصر المؤلف مختصر لكتابه لا يزال محفوظا في الخزانة العامة في الرباط، كما يوجد نسختان لمؤلف مجهول تحفظان في الخزانة الملكية في المغرب، وقد ألف محمد بن الطيب القادري كتاباً بعنوان الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ويقع في مائة ورقة تم الانتهاء من كتابتها سنة ١٢١٧هـ /١٨٠٢م كما وضع محمد بن بشير بن ظافر المدني (ت ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م مختصراً سماه" اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة "وهذا لكتاب يعد ذيلاً على نيل الابتهاج.

**النتائج:**

١- أحمد بابا التنبكتي من أهم علماء السودان الغربي وفقهائه فهو من أسرة آل أقيت العلمية العريقة التي ساهمت فى نشر العلم والمعرفة في أرض السودان.

٢- ساعدت البيئة العلمية المناسبة في مراكش في إذكاء روح البحث والتأليف لأحمد بابا، حيث ألف فيها ما يزيد على (٢٩) كتابًا منها: كتاب (نيل الابتهاج في تطريز الديباج)، و(كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج) وهو ملخص لكتابه الأول، وهما من أهم مؤلفاته على الإطلاق خاصة وأن نيل الابتهاج جاء مكملاً لكتاب (الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب) لابن فرحون، حيث أضاف تراجم ما بعد عصر ابن فرحون (ت ٧٩٩هـ). وزاد عليه بعض التراجم الأخرى، وكان أحمد بابا ينتقد ابن فرحون في أن كتابه لم يحتوِ على تراجم شاملة لعلماء المالكية، ولم يشتمل على علماء السودان، كما أنه كان يتمنى التأليف في هذا المجال، وتكملة الدور الذي قام به ابن فرحون ومن جاء بعده. فتحقق حلمه بتأليفه كتاب (نيل الابتهاج بتطريز الديباج).

٣- يبحث الكتاب في تراجم علماء المذهب المالكي من كافة أقطار المشرق الإسلامي، والمغرب، والأندلس، والسودان الغربي، وبلغت تراجمه ما بين (٨٠٠-٨٠٢) فجاء كتابًا شاملاً، واعتبر من أهم كتب التراجم في المشرق والمغرب.

٤- اعتمد أحمد بابا منهجية واضحة ومحددة في الكتاب إذ أشار إليها في بداية كتابه (نيل الابتهاج) وهي التأليف حسب حروف المعجم مع اعتماد الترتيب الزمني داخل كل حرف، أي ترتيب التراجم حسب تسلسل تاريخ الوفاة مبتدئاً بحرف الهمزة يذكر في التراجم:الاسم والنسب وتاريخ الولادة والوفاة وعلمه وشيوخه، وتلاميذه، ومؤلفاته -إن وجدت- ورحلاته وحجه ومن التقى بهم من العلماء، وصفاته، وعلاقته بالحكام والعلماء، والمسائل الفقهية والنوازل التي بحث بها، والخلافات بين العلماء حولها، وصلة القرابة بين العلماء، حيث يترجم بعدد من العلماء في الأسرة الواحدة ويذكر كراماتهم اذا وجدت.

٥- امتازت ألفاظ أحمد بابا بالقوة والمتانة والجزالة، فكان يذكر تشكيل الكلمات الغريبة نحويًا، دقيقا في ألفاظه وعباراته، ثقة ثبتاً في النقل من المصادر، فهو لم يغفل أي مصدر اعتمده حتى جاءت كثيرة العدد وهي ذات أهمية بالغة، لأن بعضهم لا يزال مفقوداً، وتثبيتها في هذا الكتاب،

وجاءت إشارته إليها إثباتاً، لوجودها وصحة نسبتها إلى مصنفيها، وأكثر الكتب التي كانت أساسية لأحمد بابا في التأليف هي كتب السخاوي والقرافي، وابن الأبار، وابن زروق، وابن الأحمر، والونشريسي في المعيار المعرب، وكتب ابن الخطيب كالإحاطة في أخبار غرناطة، ونفاضة الجراب، وابن الحاجب، والقلصادي، والغبريني في عنوان الدراسة، وكان يضيف إلى أقواله عبارة (قلت)، وكان يذكر فوائد على الترجمة تشتمل معلومات هامة حولها، ويستدل بآيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة. وفي حالة شكه في الترجمة وما ورد فيها، ينبه القارئ إلى التحقق والتأمل.

**الهوامش:**

(١) عبدالقادر زبادية، **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين**، الجزائر،١٩٧١م، ص١٥، وسيشار إليه تاليا: زبادية، **مملكة سنغاي**. دائرة المعارف الإسلامية، **السودان**، ترجمة محمد ثابت الفندي، جزء ١٣، ص٣٢٧.

(٢) زبادية، **مملكة سنغاي** ص١٥.

(٣) حسن الصادقي، **أضواء على مماليك غرب أفريقيا وعلاقاتها ببلاد المغرب**، معهد الدراسات الأفريقية الرباط، ص٢.

(٤) السعدي، تاريخ السودان، ص٩؛ الإدريسي، محمد بن عبدالعزيز،**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (صفة المغرب وأرض السودان)**، روما،١٩٥٢م، ص٦-٧؛ خضر، زيد محمد، والعمري، صالح، عمر، **انتشار الإسلام في أفريقيا**، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، دار النشر الدولي، الرياض، ص١٤٨.

(٥) شلبي، أحمد، **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،١٩٧٢م، ج٦، ص ٢٤١.

(٦) بازل دافدسن، **أفريقيا تحت أضواء جديدة**، ترجمة جمال محمد أحمد، الطبعة الأولى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان. ١٩٥٨م، ص١٤٧.

(٧) زبادية،**مملكة سنغاي**، ص٢١.

(٨) السعدي، **تاريخ السودان**، ص٧.

(٩) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م)، **تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ واخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، القاهرة، ١٢٨٤هـ، ج٦، ص٢٠١.

(١٠) السعدي، عبدالرحمن بن عبدالله بن عمران بن عامر **(ت: ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م)**، **تاريخ السودان**، وقف على طبعه من غير تغيير نصه السيد هوداس وتلميذه بنوه، باريس، ١٩٦٤ ص٧.

(١١) السعدي، **تاريخ السودان**، ص٧.

(١٢) ابن بطوطة، محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي الطنجي(ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م): **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**. بيروت **١٩٩٢م**، ص١٩١.

(١٣) ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص١٩٤.

(١٤) **تكدا**: تشتهر بمناجم النحاس وتقع شرقي النيجر

(١٥) **الفولاني**: يُعرف الفولانيون بمسميات مختلفة، منها: الفولاني (Fulani)، وفولا (Fula(h)، وبيول (Peul)، وفلاتة (Fallata/Fellata). يستقرون في مناطق متعددة في أفريقيا وجاء عند المؤرخ موليان Mollien (مات بعد عام ١٨١٨م) أن أصل الفولانيين حامي Mollien , Voyage dans l'intérieur de l'Afrique. aux sources du Sénégal et de la Gambie , fait en 1818. أما الرحالة الألماني بارث Barth **الذي قام برحلته الشهيرة إلى أفريقيا ما بين (١٨٥٠-١٨٥٥م)**، فقد ذكر بأنهم أتوا من شرق أفريقيا، وأقاموا في شمالها قبل الهجرة العربية الأولى، ثم انحدروا عبر المغرب الأقصى عام ١٥٠ ق.م، ووصلوا إلى حوض السنغال ونزلوا إلى منطقة فوته تورو( فولتا العليا سابقا)، كما أرجع المؤرخ ميك Mick أصل قبائل الفولانيين إلى قدماء الليبيين. وذكر آخرون أنهم من صعيد مصر هاجروا إلى المغرب في ق٤م ثم انتقل بعضهم إلى ساحل المحيط الأطلسي، واستقر هناك، وتوجه بعضهم الآخر إلى بلاد الزنج. وينقسم الفولانيون إلى البدو الرحل، اما الفلان المستقرون فهم الذين ارتبط تاريخهم بالجهاد ونشر الإسلام والعلم وتأسيس الممالك والإمبراطوريات الإسلامية في غرب أفريقيا. خضر والعمري، **انتشار الإسلام في أفريقيا**، ص٢٦٢.

(١٦) هي البلاد الواقعة في أقصى جنوب المغرب، وسكانها اشبه بالزنوج، الحموي، عبدالله بن ياقوت، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ج٢، ص٣٨.

(١٧) السعدي، **تاريخ السودان**، ص٧.

(١٨) السعدي، **تاريخ السودان**، ص٧١.

(١٩) كعت، محمود التنبكتي( ت: بعد ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م)، **تاريخ الفتاش في ذكر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس**، باريس، ١٩١٣م، ص ٧٨.

(٢٠) السعدي، **تاريخ السودان**، ص٧١.

(٢١) السعدي، **تاريخ السودان**، ص ٧٣،٧٢،٧١.

(٢٢) **بلاد الموسى الوثنية**: كانت قسماً من مملكة (مالي) الإسلامية ثم خضعت لمملكة (سنغي) الإسلامية، وكانت جزيرة وثنية محاطة بالدول الإسلامية، تسربت إليها جماعات إسلامية من الطوارق والهوسة والماندنجو والفولاني ساهمت في نشر الإسلام، وبلغت نسبة المسلمين في بلاد الموسى حاليا ٦٠٪ و١٠٪ مسيحيين وبقية السكان لا يزالون وثنيين تعرف بلادهم حاليا ب(بوركينا فاسو) و كانت تسمى سابقا فولتا العليا وتشكل قبائل الموسى نصف السكان تقريباً إضافة إلى الماندجو، السنوفو والهوسة والفولاني والطوارق. **فهد العظامي، بوركينا، ٢٠١٢م**، انظر الرابط:
http://www.gdssa.gov.sa/home/index.php?option=com_k2&view=item&id

(٢٣) **الحوسا(الهوسا)**: ما يعرف الآن بنيجيريا الشمالية، وجزءاً من جمهورية «النيجر»، وكانت تقع فى العصور الوسطى فى المنطقة المحصورة بين سلطنتي «مالي» و«صنغي» غربًا، وسلطنة

«البرنو» شرقًا، تحدُّها من الشمال بلاد «أهير» والصحراء الكبرى، ومن الجنوب ما يعرف الآن بنيجيريا الجنوبية. والهوسا او الحوسا ليست قبيلة بعينها إنما هم شعب تكون نتيجة امتزاج مجموعات وقبائل انصهرت في بعضها، جمعتهم لغة وأهداف مشتركة في شكل أقرب ما يكون للدولة، وهناك روايات تقول إن الهوسا/ الحوسا هم من البربر جاءوا من الشمال واختلطوا في الزنوج عند واحة الصحراء عند واحة اير وعندما ازدادت أعداهم انسابوا نحو الجنوب، حيث شمال نيجيريا، انتشر الإسلام في الحوسا من ق١٤م وقد شارك الفولانيون والماندنجو(مالي) وسنغي ومصر في نشر الإسلام ببلاد الحوسا، وفي عهد الملك آسكيا محمد انتشر الإسلام وأصبحت مدن كانو وكاتسيا مراكز إسلامية هاجر إليها علماء تنبكتو، وجني عندما تعرضوا للنكبة.وفي سنة ١٨٠٢م أسقط عثمان بن فوديو الفولاني مملكة جوبير الوثنية في بلاد الحوسا ونشر الإسلام في معظم أنحاء البلاد بين الوثنيين وإلى إلهوسا وكون دولة إسلامية سنة ١٨١٦م، ويعود لهم الفضل في المحافظة على الإسلام في منطقة النيجر العليا. انظر: ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ج٢ ص٢٣٨؛ شلبي، **موسوعة التاريخ**، ج٦، ص١٢٩؛ ١٣٢؛ مؤنس حسين، **الإسلام الفاتح**، دار الزهراء للاعلام العربي، القاهرة، ١٩٧٨م ، ص١٤٦-١٤٩، خضر والعمري، **انتشار الإسلام في أفريقيا**، ص١٠٩-١١٣

(٢٤) **كاغ:** عاصمة سنغي منذ عهد ال ضياء ووصلت درجة من الازدهار في عهدالأسقيين، فهي عاصمة البلاد ومقر الملك ومؤسسات الدولة فضلا عن أهميتها العلمية والاقتصادية حيث تصل إليها القوافل التجارية. زبادية، **مملكة سنغاي**

(٢٥) **جني**: هي مدينة تأسست سنة٤٣٥هـ ويسميها التجار الأفارقة جنة وتقع على بعد ٦٠كم من الجنوب الغربي لتمبكتو' وهي مركز للتجارالمغاربة و العلماء العرب. ليون الأفريقي، الحسن بن محمد الوزان الفاسي الوزان (ت٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م) **وصف أفريقيا**، تحقيق محمد حجي، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،١٤٠٣هـ، ج٢، ص١٦٢.

(٢٦) كعت، **الفتاش**، ص٧٨.

(٢٧) السعدي، **تاريخ السّودان**، ص ٦٥.

(٢٨) البرتلي، أبو عبدالله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي من أهل ق١٠هـ/ ١٦م، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد الكتاني ومحمد حجي،الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي،١٩٨١م**، ص ١٧٧.

(٢٩) السعدي، **تاريخ السّودان**، ص٦٥.

(٣٠) السعدي، **تاريخ السودان**، ص٦٦.

(٣١) السعدي، **تاريخ السودان**، ص ٦٦.

(٣٢) السعدي، **تاريخ السودان**، ص ٦٦.

(٣٣) السعدي، **تاريخ السودان**، ص ٦٧.

(٣٤) ولاته: من مدن السودان الهامة، تقع على مسافة ٤٥كم غرب تمبكتو،الوزان، **وصف أفريقيا**، ج٢، ص١٦١؛ السعدي، **تاريخ السودان**، ص٢٢، ويسميها ابن بطوطة ايوالاتن، **تحفة النظار**،

ج٤، ص٢٤٥؛ المقري، أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له د.مريم قاسم طويل وآخرون، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م، ج٥، ص٢٠٥؛ ويسميها ابن خلدون ولاتن، **العبر**، ج٧، ص١١٧؛ ويسميها السعدي ولات، **تاريخ السودان**، ص٢١.

(٣٥) البرتلي، **فتح الشّكور**، ص ١٧٧؛ السعدي، **تاريخ السّودان**، ص٦٩.

(٣٦) السعدي، **تاريخ السّودان**، ص ٧٠ وما بعدها.

(٣٧) **ليون الأفريقي، وصف أفريقيا** ج ١ ص٣٣-٣٤.

(٣٨) السعدي، **تاريخ السّودان**، ص١٤٢.

(٣٩) **المصدر نفسه**، ص١٤٣.

(٤٠) السلاوي، **الاستقصا**، ج ٥، ص١٢١-١٢٢.

(٤١) السعدي، **تاريخ السّودان**، ص ١٦٩

(٤٢) **المصدر نفسه**، ص١٧٣.

(٤٣) السلاوي، **الاستقصا**، ج ٥ ص ١٣٠.

(٤٤) السلاوي، **الاستقصا**، ج ٥ ص ١٢٩، ١٣٠.

(٤٥) برهان الدين إبراهيم بن فرحون (ت٧٩٩هـ/ ١٣٩٧م) **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب بهامشه**: كتاب **نُيل الابتهاج بتطريز الديباج** لأبي العباس سندي أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت عرف ببابا التنبكتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص٤. نيل؛ شوقي عطاالله الجمل، **أحمد بابا التنبكتي السوداني في ضوء بعض مخطوطاته بدار الوثائق بالرباط**، مجلة المناهل دار الوثائق، الرباط، عدد (٥) السنة ٣، ١٩٧٦م، ص ١٤٥.

(٤٦) أحمد بابا، **نيل الابتهاج**، ص٤.

(٤٧) أحمد بابا التنبكتي(ت١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦م)، **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج (في تراجم المالكيه)**، ضبط النص وعلقت عليه أبو يحيى عبدالله الكندري، الطبعة الأولى، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٥١٣.

(٤٨) أبو عبدالله محمد، المحبي (ت١١١١هـ/ ١٦٩٩م) **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، دار الصياد، بيروت، ١٢٨٤هـ، ج١، ص ١٧٠؛ عبدالحي بن عبدالكبير الكتاني (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢ م) ، **فهرس الفهارس والأثبات، ومعجم المعاجم والمشيخات، والمسلسلات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٣٢٦م**، ج١، ص ٧٦؛ يوسف سركيس، **معجم المطبوعات العربية والمصرية**، ١٩٢٨، ج١، ص ٣٧٩ – ٣٨١.

(٤٩) سركيس، **معجم**، ج١، ص ٣٧٩ –٣٨٠.

(٥٠) عباس بن إبراهيم السملالي المراكشي(ت ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م)، **الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام**، المطبعة الملكية، الرباط؛ الكتاني، **فهرس الفهارس**، ج١، ص١١٣، وكذلك جاء في رواية للكتاني أن ابا العباس البوسعيدي يذكر أنه ليس سودانياً إنما صنهاجي، انظر الكتاني، **فهرس الفهارس**، ج١ ص١١٤.

(٥١) أحمد بابا، **كفاية المحتاج**، ص٥١٦؛ محمد الصغير المراكشي الإفراني (ت: ١١٥٦هـ/١٧٤٤م )،

**نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، ص ٨١-٨٢؛ المحبي، **خلاصة الاثر**،ج١، ص ١٧.

(٥٢) القادري، أبو عبدالله محمد بن الطيب بن عبدالسلام (ت ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م)، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، فاس، ١٣١٠هـ، ج١، ص١٥١ .

(53) New Encyciopaedia Britannica, Ahmad Baba, v.1, p 163

(٥٤) انظر ما كتبه الكتاني عن إجازة مجموعة من علماء التكرور ومن أسرة آل الشيخ أحمد التنبكتي السوداني كما أسماها، ج٣، ص٩٤٦، **فهرس الفهارس والأثبات**، وعن أسرته العلمية، ج١، ص١١٤.

(٥٥) السعدي، **تاريخ السودان**، ص٤١-٤٣.

(٥٦) أحمد بابا، **كفاية المحتاج**، ص٤٧٨-٤٧٩؛ السعدي، **تاريخ السودان**، ص٤٥ -٤٦؛ البرتلي، **فتح الشكور**، ص١١٣-١١٤.

(٥٧) أحمد بابا، **كفاية المحتاج**، ص٥١٤.

(٥٨) عبدالباقي، **الدور الثقافي**، ص١٤٤.

(٥٩) السعدي، **تاريخ السودان**، ص٣٧.

(٦٠) أحمد بابا، **نيل الابتهاج**، ص٨٨، **كفاية المحتاج**، ص١١٣،٧٥. السعدي، **تاريخ السودان**، ص٣٧.

(٦١) أحمد بابا، **نيل الابتهاج**، ص١٦١، **كفاية المحتاج**، ص٥١٣.

(٦٢) السعدي، **تاريخ السودان**، ص٣١-٣٣، أحمد بابا، **كفاية المحتاج**، ص٥١٣.

(٦٣) المحبي، **خلاصة الاثر**، ج١، ص١٧٢، ابن القاضي، هو أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي (ت ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م)، له عدة مؤلفات في التاريخ والتراجم: "المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور"، و"درة الحجال في أسماء الرجال"، و "جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس"، وقد تم نشر "جذوة الاقتباس" بدار المنصور للطباعة والوراقة (١٩٧٣م) في جزئين و"درة السلوك، فيمن حوى الملك من الملوك"، وهو ذيل لكتاب "رقم الحلل، في نظم الدول للسان الدين بن الخطيب، وله أيضا "لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد": جعله ابن القاضي ذيلا لوفيات ابن قنفذ، وله فهرسة أجاز بها الأمير زيدان بن أحمد المنصور الذهبي، وألف ابن القاضي في الفقه كتاب "نيل الأمل فيما به بين المالكية جرى العمل"، و"الرائض لطالبي فهم الناهض، بأعباء علم الفرائض" انظر: جمال بامي، **ترجمة ابن القاضي** على الرابط: http://www.startimes.com/f.aspx?

(٦٤) قال عنه الكتاني هو المؤرخ أبو عبدالله محمد بن محمد بن يعقوب الايسي المراكشي من أدباء الدولة السعدية وضع له أحمد بابا ترجمة في كفاية المحتاج وأثنى عليه، له كتاب الفهرسة. **فهرس الفهارس**، ص١١٦٤-١١٦٥.

(٦٥) شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني المغربي المقري نزيل مصر (ت١٠٤١هـ/ ١٦٣١م) ، **روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس**، عني بنشره المؤرخ: عبدالوهاب بن منصور، طبع في المطبعة الملكية الرباط، الطبعة الثانية، سنة١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ويقع في (٣٥٤ ص).

(٦٦) قاضي الجماعة بفاس وخطيبها الفقيه العالم أبو القاسم بن محمد بن أبي النعيم الغساني المتوفى مقتولا سنة ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م" وكان متضلعا في الفنون، ماهرا في المعقول والبيان والتفسير والكلام ... وله معرفة بالبيان والمنطق والعروض والأصلين ..." الكتاني، محمد بن جعفر بن ادريس(ت: ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م)، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، طبعة حجرية بفاس، ١٣١٨هـ، ج ٢، ص ١٠٤-١٠٥؛ ويوجد طبعة جديدة تحقيق عبدالله الكتاني وآخرين، دار الثقافة، مؤسسة النشر والتوزيع، الدار البيضاء ج٢ ص١١٦-١١٧.

(٦٧) أحمد بابا التبنكت، ت (١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦م) **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تحقيق عبدالحميد الهرامة، الطبعة الثانية، منشورات دار الكاتب، طرابلس،٢٠٠م، ص١٨(مقدمة المحقق).

(٦٨) أحمد بابا، **نيل الابتهاج**، ص٧٩؛ البرتلي، **فتح الشكور**، ص٤٢.

(٦٩) أحمد بابا، **نيل الابتهاج** ص٧٩، السعدي، **تاريخ السودان**، ص٤٢-٤٣.

(٧٠) أحمد بابا، **كفاية المحتاج**، ص ١١٢، السعدي، **تاريخ السودان**، ص ٤٢-٤٣.

(٧١) السعدي، **تاريخ السودان**، ص٤٢.

(٧٢) أحمد بابا، **كفاية المحتاج**، ص٤٧٦.

(٧٣) **المصدر نفسه.**

(٧٤) أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت ١٠٤٠هـ/ م١٦٣٠م)، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، ضبطه وحققه مصطفى السقا، وابراهيم الابياري، وعبدالحفيظ شلبي،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩م، عبدالباقى **الدور الثقافي**، ص ١٤٩، شوقي الجمل، **أحمد بابا**، ص١٦٢.

(٧٥) شوقي الجمل، **أحمد بابا**، ص١٦٢؛ عبدالباقي **الدور الثقافي**، ص ١٤٩.

(٧٦) أبو العباس أحمد ابن خالد الناصري السلاوي (ت ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م)، **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى** تحقيق وتعليق جعفر محمد الناصري، دار الكتب، الدار البيضاء، ج٥، ص١٣.

(٧٧) عمر بن محمد الرجراجي وعرف بالفاسي أبي علي (ت ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م) أحمد بابا، **كفاية المحتاج**، ص٢٢٧-٣٢٩، عبدالباقي، **الدور الثقافي**، ص١٤٩.

(٧٨) عبدالباقي، **الدور الثقافي**، ص١٤٦، شوقى الجمل، **أحمد بابا**، ص١٥٠؛ الشيخ الأمين محمد عوض الله، **العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان العربي في عهد السلطتين الإسلاميتين مالي وسنغي**، المجمع العلمي، جده، ١٩٧٩م، ص ١٩٦-١٩٧.

(٧٩) البرتلي، **فتح الشكور**، ص ٣٤-٣٥.

(٨٠) أحمد بابا، **كفاية المحتاج**، ص٥١٥، المراكشي، **الأعلام**، ج٢، ص٣٠٥، عبدالباقي، **الدور الثقافي**، ص١٤٧.

(٨١) محمد حجي، **الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين في الرباط**، ج ٧٩٣، ص ٣٨٣.

(٨٢) عبدالباقي، **الدور الثقافي**، ص ١٤٩.

(٨٣) أحمد بابا، **كفاية المحتاج**، ص٥١٥.

(٨٤) السلاوي، **الاستقصا**، ج٥، ص١٣٠، المراكشي، **الأعلام**، ج٢، ص ٣٠٥.

(٨٥) عبدالباقي، **الدور الثقافي**، ص١٤٧.

(٨٦) السلاوي، **الاستقصا**، ج٥، ص١٣١

(٨٧) السعدي، **تاريخ السودان**، ص٤٦، البرتلي، **فتح الشكور**، ص٣١ – ٣٧.

(٨٨) المراكشي **الأعلام**، ج٣، ص ١٠٢.

(٨٩) عبدالوهاب، **أعلام المغرب العربي**، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٠م/ ١٤١٠هـ، ج٥، ص ٣٤٠؛ شوقي الجمل، **أحمد بابا**، ص١٦٨-١٦٩.

(٩٠) أحمد بابا، **كفاية المحتاج**، ص٢٩٠، عبدالوهاب، **أعلام**، ج٥، ص ٣٠٤؛ شب، **أحمد بابا**، ص٤٥٤

(٩١) محمد المغربي، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، ص ٥٣٩؛ عبدالباقي، **الدور الثقافي**، ص ١٥١.

(٩٢) عبدالباقي، **الدور الثقافي**، ص ١٥١-١٥٢.

(٩٣) محمد بن محمد بن عمر بن علي بن سالم مخلوف (ت١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م )، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، دار الفكر، ص ٢٩٨ – ٢٩٩، ترجمة ١١٥٧.

(٩٤) أحمد بابا، **كفاية المحتاج**، ص٥١٤-٥١٥، المحبي، **خلاصة الأثر**، ج١، ص١٧١؛ المراكشي، **الأعلام**،ج٢، ص٣٠٤-٣٠٥؛ شوقي الجمل، **أحمد بابا**، ص ١٦٨- ١٦٩؛ عبدالوهاب، **أعلام**، ج٥، ص٣٤٠؛ كمال السيد أبو مصطفى، **جانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في الغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار للونشريسي**، مركز الإسكندرية للكتاب، ١٩٩٦م، ص ٧ .

(٩٥) المحبي، **خلاصة الأثر**،ج١، ص١٧١-١٧٢، المراكشي، **الأعلام**، ج٢، ص٣٠٤-٣٠٥، عبدالوهاب، **أعلام**، ج٥، ص٣٤١، شوقي الجمل، **أحمد بابا**، ص١٧٤، شب، **أحمد بابا**، ص٤٥٨- ٤٥٩.

(٩٦) عبدالوهاب، **أعلام**،ج٥، ص ٣٤١ .

(٩٧) **المرجع نفسه**، ج٥، ص ـ٣٤١؛ شب، **أحمد بابا**، ص ـ٤٥٨؛ شوقى الجمل، **أحمد بابا**، ص ١٦٩.

(٩٨) عبدالوهاب، **أعلام**، ج٥، ص ٣٤١؛ شوقي الجمل، **أحمد بابا**، ص ١٦٩-١٧٠.

(٩٩) أحمد بابا، **كفاية المحتاج**، ص٥١٤-٥١٥؛ المراكشي، **الاعلام**، ج٢، ص٤، ٣٠؛ مخلوف، **شجرة النور**، ص٢٩٨-٢٩٩؛ المحبي، **خلاصة الأثر**، ج١، ص١٧١-١٧٢، عبدالوهاب، **أعلام**، ج٥، ص٣٤٢، شوقي الجمل، **أحمد بابا**، ص ١٧٤، عبدالباقي، **الدور الثقافي**، ص ١٥٠.

(١٠٠) أحمد بابا، **جلب النعمة ودفع النقمة بمجانبة الولاة الظلمة**، تحقيق وتعليق محمد بن عزوز، الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي؛ بيروت: دار ابن حزم، ٢٠١١م.

(١٠١) أحمد بابا، **تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء** تحقيق: سعيد سامي١٠١، منشورات معهد الدراسات الأفريقية، الرباط، ١٩٩٢م.

(١٠٢) عبدالباقي، **الدور الثقافي**، ص١٥٢.

(١٠٣) أحمد بابا، **كفاية المحتاج**، ص١٥، (مقدمة المحقق)؛ المحبي، **خلاصة الأثر**، ج١، ص١٧٠، محمد ابن شب، **أحمد بابا** دائرة المعارف الإسلامية، يصدرها أحمد الشناوي وآخرون، مج١، ص٤٥٧ – ٤٥٩.

(١٠٤) ابن مخلوف، **شجرة النور الزكية**، ص١٩٩، المحبي، **خلاصة الأثر**، ج١ ص١٧٢؛ الكتاني، **فهرس الفهارس**، ج١، ص١١٤.

(١٠٥) الحسن، تاشيخت، **علماء من السودان الغربي في المغرب الأقصى**،انظر الرابط: http://www.maghress.com/almithaq/6231 ١٨/ ١١/ ٢٠١١م.

(١٠٦) الإفراني، **نزهة الحادي**، ص ٩٨، عبدالوهاب، **أعلام**، ج٥، ص٣٣٩.

(١٠٧) عبدالوهاب، **أعلام**، ج٥، ص ٣٣٩.

(١٠٨) **كفاية المحتاج**، ص٣٠- ٣٣، عبدالوهاب، **أعلام**، ج٥، ص٣٤٠.

(١٠٩) عبدالوهاب، **أعلام**، ج٥، ص٣٤٠.

(١١٠) **المصدر نفسه**، ص٣٣٩.

(١١١) أحمد بابا، **معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السود**، تحقيق وترجمة: فاطمة الحراق وجون هانويك. -الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، ط١: ٢٠٠٠م، (جامعة محمد الخامس-السويسي، منشورات معهد الدراسات الأفريقية-الرباط، سلسلة نصوص ووثائق٧). والكتاب في أصله جواب عن استفتاء مطول، بعثه سعيد بن إبراهيم الجراري إلى فقهاء السودان، وخصوصا أحمد بابا، وتدور أسئلته حول: استرقاق العبيد بعد إسلامهم؟ وهل فتحت أرض السودان عنوة أم صلحا؟ وهل يُسترق من لم تعرف بلاده وجُهل حاله؟ وماهدي الصحابة في ذلك؟ وما وجه تخصيص السودان بالاسترقاق؟ ومامعنى قول الفقهاء «الرق أثر الكفر».وقد شرع المؤلف في تقييد جوابه هذا في أواخر سنة ١٠٢٣هـ، وأرخه بيوم الاثنين عاشر المحرم عام ١٠٢٤هـ، واستهله ببيتين لدعبل بن علي بن رزين الخزاعي، وبيت للقاسم بن علي بن محمد الحريري صاحب المقامات، لكنه أورد هذه الأبيات غير منسوبة، ثم أجاب على أسئلة المستفتي مفردة مميزا بينها بعبارة «وقولكم»، بأسلوب سلس لا تكلف فيه، ولا إسهاب في النقل، مستعينا في جوابه بما تقرر من قواعد فقهية وضوابط شرعية، ومستشهدا بحدث من أحداث السيرة النبوية، ومفندا العادات الخارجة عن الشرع، كعادة استرقاق الأحرار، معتنيا بذكر سبب الخلاف في المسألة، وبيان الرأي الراجح فيها. وإذا كان كتاب معراج الصعود موضوعا في مسألة فقهية وهي الاسترقاق، فإن فائدته التاريخية تكمن في ذكره أسماء بعض القبائل وبيان عقائدها، مما حدا بالمؤرخ أحمد بن خالد الناصري أن يكون هذا الكتاب أحد موارد كتابه الاستقصا (ج ٥، ص١٠٣، ١٣٣).

(١١٢) السلاوى، **الاستقصا**، ج٥، ص ١٣٣.

(١١٣) هو: **أبو القاسم بن أحمد بن محمد المعتل البلوي القيرواني الشهير بالبرزلي، ولد بالقيروان سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م، وتوفي بتونس سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٨م**) عاصر النصف الثاني من الدولة الحفصية التي استمرت ما يزيدُ عن قرنين من الزَّمان، وتقلَّد الإمامةَ والخَطابةَ، وتصدَّى للإفتاءِ، وألف كتابه: ( **جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمُفتين والحكام**) الشهير بفتاوى البرزلي. تولَّى الإفتاء في القيروان، ثم رحل إلي تونس بين سنتي: ٧٦٦هـ/ ١٣٦٥م-٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م، وحظي فيها بمكانة مرموقة لدى الحكام،

وعاصرَ السُّلطانَ أبا العباس ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م–٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م، السلطان أبا فارس عبدالعزيز (٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م–٨٣هـ/ ١٤٣٤م)، تولَّى الإمامةَ في جامع الزيتونة.انظر: الدباغ، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد الأنصاري (ت٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م) **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، تحقيق: محمد المجدوب، عبدالعزيز المجدوب، المكتبة العتيقة، تونس، ج٤، ص١١٩؛ الزركشي، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم ت: نهاية القرن التاسع الهجري **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس ١٩٦٦م، ص١١–١٢٥.

(١١٤) أحمد بابا، **نيل الابتهاج**، ص ٣.

(١١٥) **المصدر نفسه**، ص٣–٤.

(١١٦) **المصدر نفسه**، ص٤–٦.

(١١٧) **المصدر نفسه**، ص٦–٧.

(١١٨) **المصدر نفسه**، ص٩–١٠.

(١١٩) ابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد، برهان الدين اليعمري (ت٧٩٩ هـ/ ١٣٩٧م) ولد ونشأ ومات في المدينة. وهو مغربي الأصل، نسبته إلى يعمر بن مالك، من عدنان. رحل إلى مصر والقدس والشام سنة ٧٩٢هـ .وتولى القضاء بالمدينة سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م. وهو من شيوخ المالكية، له (الديباج المذهب في تراجم أعيان المذهب المالكي(مطبوع)، و(تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، مطبوع) و(درة الغواص في محاضرة الخواص، مخطوط) و(طبقات علماء الغرب– مخطوط) و(تسهيل المهمات، مخطوط) في شرح جامع الأمهات لابن الحاجب، في مجال الفقه. قال عنه أحمد التنبكتي: "عاش ولم يملك دارا ولا نخلا، إنما يسكن بالكراء ويأكل بالسلف والدين مع كثرة عياله **أحمد** بابا، **نيل الابتهاج**، ص٣٤.

(١٢٠) هو الإمام العلامة شيخ الإسلام عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي، ثم السبتي المالكي المشهور بالقاضي عياض. قال خلف بن بشكوال: هو من أهل العلم والتفنن والذكاء والفهم، استقضي بسبتة مدة طويلة حُمِدت سيرته فيها، ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة، فلم يطول بها، وقدم علينا قرطبة، فأخذنا عنه. وقال ابن خلّكان: إمام الحديث في وقته، وأعرف الناس بعلومه، وبالنحو، واللغة، وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. مصنفاته: الشفا في شرف المصطفى.**ترتيب المدارك وتقريب المسالك في ذكر فقهاء مذهب مالك**. وكتاب "شرح حديث أم زرع". وكتاب "جامع التاريخ" الذي جمع فيه أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ذكر فيه أخبار مدينة سبتة وعلماءها. وكتاب "مشارق الأنوار في اقتفاء صحيح الآثار": "الموطأ" و "الصحيحين. قال: ومن تصانيفه كتاب "إكمال المعلم بفوائد مسلم " .وكتاب "التنبيهات". توفي القاضي عياض مقتولا سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م في مراكش. انظر: الذهبي، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الارناؤوط

وآخرون، الطبعة١١، ١٩٩٦م، ج٢٠، ص٢١٣.

(١٢١) أحمد بابا، **نيل الابتهاج**، ص١٠-١٢.

(١٢٢) **المصدر نفسه**، ص١٢-١٣.

(١٢٣)**المصدر نفسه**، ص١٣-٢٠.

(١٢٤) **المصدر نفسه**، ص ٢٨.

(١٢٥) **المصدر نفسه**، ص ٢٨.

(١٢٦) الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠م.

(١٢٧) أحمد بابا، **نيل الابتهاج**، ص ٢٩-٣٠.

(١٢٨) المصدر نفسه، ص٣٠.

(١٢٩) محمد حجي، **الحركة الفكرية**، ج١، ص٢٠.

(١٣٠) أحمد بابا، **نيل الابتهاج**، ص٦٥.

(١٣١) **أبو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي** المعروف **بابن البناء المراكشي** (٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، عالم مغربي برز بصفة خاصة في الرياضيات والفلك والطب، لقب بالعددي، قضى أغلب فترات حياته بمراكش، وهو معاصر للدولة المرينية. ذكر ابن حجر العسقلاني مصنفاته: (التلخيص في الحساب)، و(اللوازم العقلية في مدارك العلوم)، و(الروض المريع في صناعة البديع)، وكتاب في الأوقات، وكتاب في الأنواء، وغيرها، قال عنه ابن خلدون فيقول عنه إنه: "شيخ المعقول والمنقول، والمبرز في التصوف علمًا وحالاً... كان إمامًا في علم النجامة وأحكامها وما يتعلق بها". أسس ابن البنا المراكشي مدرسة علمية مهمة في المغرب، اهتمت بتدريس مؤلفاته وشرحها وتداولها في مختلف جامعات العالم.انظر الموسوعة الحرة، راغب السرجاني، **ابن البنا المراكشي امام الرياضيات**، ٩٢/ ٣/ ٢٠١٢م انظر الرابط: http://islamstory.com/ar/

(١٣٢) أحمد بابا، **نيل الابتهاج**، ص٣٩-٤٠،٦٥،٦٨،٧٨-٨٣، ٩٠، ١٥٠.

(١٣٣) **المصدر نفسه**، ص٣٩-٤٠، ٦٥،٦٨،٧٨،٨٠-٨٣،٩٠،٩١-١٤٩،١٥٠،١٥٨-١٧٨،١٦٠، ١٨٥، ١٨٩، ١٩٥، ١٩٧.

(١٣٤) **المصدر نفسه**، ص٥٠ -٥١-٥٩ - ٦١ ٧٣-٧٦،٧٧-٧٩،٨١-٨٣،٩٣-٩٤-١٢٦،١٠٢، ١٣٦ ،١٦٤-١٦٥، ١٨٥،١٩٦، ٢٣٢،٢٣٤

(١٣٥) شرف الدين موسى الطُخيخي المالكي **صاحب حاشية على مختصر خليل**.

(١٣٦) **المصدر نفسه**، ص ٦٤،٦٧، ٧١،٨، ١٤٦،٨٥.

(١٣٧) **المصدر نفسه**، ص٦٤،٦٨،٧٥،٧٣،٧١-٧٤،٧٦،٧٧،٧٩،٨٠.

(١٣٨) **المصدر نفسه**، ص٤٣، ٤٩، ٧١.

(١٣٩) **المصدر نفسه**، ص ٢٣،٥١،٥٥،٥٧،٦٣،٦٤، ٧١، ٧٣، ٧٥، ٧٤،٧٦،٧٧،٧٩،٨٠.

(١٤٠) **المصدر نفسه**، ص٢٣.

(١٤١) **المصدر نفسه**، ص٥٩، ٥٨، ٥١، ٥١،٢٣،٣٨،٤٣، ٧٥، ١٠٠، ٧٦،٧٧،٧٨،٨٠.

# التنوع الدّلالي السِّياقِيّ وَظِلالُهُ الأسْلُوبِيَّة دراسة تحليلية لنماذج من المفردات القرآنية

د. فايز مدّالله سلمان الذنيبات*

تاريخ وصول البحث: ٦ / ٣/ ٢٠١٤م تاريخ قبول البحث: ٢١/ ١٢/ ٢٠١٥م


## ملخص

تتناول هذه الدراسة ظاهرةً تتعلق بالمفردة القرآنية، وتخص هذه الظاهرة بعض الألفاظ ذات الدلالة المتسعة التي تنسجم جميع دلالاتها مع السياق، حيث يكون لاجتماع الدلالات معاً صورة كلية مقصودة تعطي رؤيةً واضحةً للمعنى الإخباري في القرآن. ومن هنا التزمت الدراسة بالمنهج الدلالي الأسلوبي في استجلاء جمالية هذا الاستعمال ودقته المتناهية. وقد جاءت الدراسة في مبحثين، حيث يناقش المبحث الأول العلاقة بين الدلالة السياقية والأسلوبية والبلاغة. كما يناقش مصطلح الدراسة (التنوع الدلالي السياقي) من حيث المفهوم والتأطير. أما المبحث الثاني فهو الدراسة التطبيقية ويتناول عدداً من المفردات القرآنية بالتحليل الدلالي والأسلوبي، مسترشداً بأقوال المفسرين، وبالمعاجم العربية.


كلمات مفتاحية: التنوع الدلالي، المفردة القرآنية، السياق المتسع، تعدد صور المعنى.


## Abstract

This study addresses the issue of the Qur'ānic word specifically some terms of various connotations that are in harmony with the context as they offer a vivid image of the informative Qur'ānic meaning. As a result, the study adopts asemantic and stylistic approach in understanding the beauty of this usage and precise accuracy. The study is conducted in two chapters, in which the first examines the relationship between the significance of contextual, stylistic, and rhetoric implications; while the second chapter is an applied study, which deals with a number of Qur'ānic vocabulary in light of asemantic and stylistic analysis, resorting to the explanations of commentators and Arabic dictionaries.


* أستاذ مشارك ، كلية الآداب، جامعة جازان.

**المقدمة:**

فثمة ألفاظ في القرآن الكريم ذات دلالة متسعة مثل ألفاظ المشترك اللغوي والتضاد يحتمل السياق كل أوجهها الدلالية من جهة إعجازية تدل على قدرة خارقة في الاستعمال. وهي ألفاظ وردت في بعض السياقات القصصية وليست في آيات الأحكام، ومثل هذه الألفاظ جيء بها قصداً لتحمل كل أوجهها الدلالية؛ لأن اجتماع كل الأوجه الدلالية سيرسم صوراً تفصيليةً للحدث، فالقرآن يسوق المعاني والقصص على سبيل الإيجاز والإجمال، وتظل بعض الألفاظ تشعّ بإيحاءات جانبية هي من قبيل إضافة تفاصيل. ومن هنا تنطلق هذه الدراسة البلاغية لتبحث في الظاهرة الدلالية المتعلقة بالسياق. إذ قامت على اختيار نماذج من مفردات القرآن على سبيل المثال لا الحصر، أما آلية الاختيار فهي السياق القصصي والسياق الإخباري؛ ذلك أن كثيراً من المفردات ذات الاتساع اللغوي تكثر فيهما.

وتنحصر صعوبات الدراسة في عدم وجود مصطلح يستوعب فكرتها، لذا اقترح الباحث مصطلح (التنوع الدلالي السياقي). كما أن من الصعوبات تنوّع مصادرها من لغة وبلاغة وتفسير ونقد وغيرها، الأمر الذي جعل الإلمام بها تجشماً للعناء.

أما عن الدراسات السابقة التي تنحو هذا المنحى من التحليل فقليلة جداً في حدود استقراء الباحث، على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت المفردة القرآنية وقضايا الدلالة في القرآن. وقد وقف الباحث على أكثرها وأفاد منها. وكانت بعض كتب علوم القرآن مثل كتاب نظم الدرر للبقاعي، وبعض التفاسير مثل تفسير ابن عاشور قد قاربت في تناولها لبعض المفردات من منهج الصور الشمولية لأوجه دلالة المفردة. وكذلك دراسة بنت الشاطئ لقصار السور في كتابها (التفسير البياني للقرآن).

أما منهج الدراسة فهو دلالي وأسلوبي، يقوم على تقصّي معاني المفردات في السياقات القرآنية، ثم تقصّي مدلولاتها المعجمية والاحتكام إلى السياق في إظهار علاقة جميع المدلولات بالمعنى الذي تطرحه المفردة أو احتمالاتها الدلالية.

**وقد قسّم الباحث هذه الدراسة إلى مبحثين:** أما المبحث الأول فينقسم إلى مطلبين نظريين: الأول منهما: في التعريف بمعنى الدلالة والسياق وعلاقتهما بالبلاغة، والثاني: يطرح مصطلح الدلالة السياقية المتنوعة ويعرّف به. وأما المبحث الثاني: فهو

الجزء التطبيقي من الدراسة وفيه أربعة مطالب؛ يتناول كل مطلب مفردةً قرآنيةً محللاً دلالتها، ومستعرضاً آراء اللغويين والمفسرين فيها، ومناقشاً احتمالاتها الدلالية، ومستخلصاً القيمة البلاغية لتعدد الدلالة. وعدد المفردات المدروسة أربع مفردات. وفي النهاية هذه دعوة لإعادة النظر في المشترك واستثمار معانيه المتعددة في استخلاص دلالات أسلوبية من وراء اختيار المفردة.

**المبحث الأول: التمهيد النظري:**

يتناول هذا المبحث الجانب النظري لعلاقة علم الدلالة بالسياق من جهة وعلاقته بالأسلوبية والبلاغة من جهة، أخرى. وينقسم إلى مطلبين: الأول منهما هو: علم الدلالة وعلاقته بالسياق والبلاغة. أما المطلب الثاني فيتناول الدلالة السياقية المتنوعة، وهي المصطلح الذي يُعد جوهر الدراسة.

**المطلب الأول: علم الدلالة وعلاقته بالسياق والبلاغة والأسلوبية:**

يناقش هذه المطلب تلك الصلة بين العلاقات الدلالية والبلاغة. فثمة طائفة من القضايا المتصلة بالمعنى المعجمي ترتبط بعلاقة أو أكثر بالدراسات البلاغية[١]. إذا أخذنا بعين الاعتبار الاستعمال المجازي للغة، ودور السياق في توجيه الدلالة. لذا يمكن أن تكون البلاغة من حواضن علم الدلالة. كما أن المعنى هو عامل مشترك بين الدلالة والبلاغة. ومن هذا الجانب سنقف في هذا المهاد السريع على التعريف بكل من الدلالة والسياق وعلاقتهما بالبلاغة والأسلوبية. فالدلالة كما عرّفها علماء المنطق- تعني: "كون اللفظ متى أطلق فهم منه المعنى[٢]". وهي المقصود بها عند الأصوليين الدلالة الوضعية اللفظية، وتقسم إلى ثلاثة أقسام: المطابقة والتضمّن والالتزام[٣]. وقد قسم بعضهم الدلالة باعتبار الشمول والحصر إلى أقسام، أو الوضوح والخفاء أخرى[٤]. أما عن المفهوم اللغوي الحديث فإن علم الدلالة يُعنى بتحليل المعنى الحرفي للألفاظ اللغوية ووصفه. ولا تقتصر اهتماماته على الجوانب المعجمية من المعنى فقط، بل تشمل أيضاً الجوانب القاعدية، كما تشمل أيضاً معاني الجمل. فمن الموضوعات التي يتناولها هذا العلم: البنية الدلالية للمفردات اللغوية، والعلاقة الدلالية بين المفردات كالترادف والتضاد.

وعلاقة الألفاظ اللغوية بالحقائق الخارجية التي تشير إليها، وهو ما يدرس في علم الدلالة الإشاري[٥]. ولا شك أن البلاغة ملازمة للدلالة، من حيث طبيعتها الحقيقية أو المجازية، كما أن الأسلوبية تظل

ملازمةً لها ومفسرةً سبب الاختيار ودواعي الاستعمال وغيرها. ومن هنا فإن المفهوم العام لمصطلح (علم الدلالة) لم يعد يتقيّد في تطوره، بالمعنى كمعنى فحسب، بل بات يختـزل المقـاربات الدلاليـة، والبـلاغية، واللسانية، والشعرية، ولعل في هذا الأمر استكمالاً لنظرية علم المعاني عند العرب. فقد تطور علم الدلالة لينتقل من المعنى الأصلي ليؤدي معنى جديداً يُفهم من السياق بمعونة القرائن. لذا فإنّ هذا العلم لم يستطع أن يتحرر من انتسابه إلى علوم البلاغة[٦].

ولا غنى للدلالة عن السياق في توجيه المعنى؛ فالسياق قد يقلّص حركة المدلول عبر قيود أو قرائن، وقد يفتح باب المدلولات على مصاريعها، إذا لم يتقيّد بقرينة. ومن هنا فقد قسّم بعضهم المعنى إلى نوعين: "المعنى الوَضْعيّ، والمعنى السياقي. فكلّ كلمةٍ مفردةٍ حين تُؤخذ معزولةً يكون لها معناها الوضعيُّ الخاصّ، أو محتواها المفهوميّ، وينشأ هذا عن أنّه في هذا السّياق ترتبط الكلمةُ ارتباطاً وثيقاً بالعناصر اللغوية وغير اللغوية"[٧]. وقريباً من هذا تحدث عبدالقاهر الجرجاني عن المعنى الوضعي والمعنى التركيبي أو النحوي[٨]. وقد ذهب بعض العلماء إلى التأكيد على أن معنى الكلمة هو مجموع استعمالاتها المختلفة في السياقات المتعددة. وعلى العموم فإن دلالات الكلمات هي نتائج لا يتوصل إليها إلا من خلال تفاعل الإمكانيات التفسيرية لكامل الكلام[٩]. لذلك قسّم بعض علماء الدلالة المعنى إلى أقسام عديدة هي: المعنى الأساسي، المعنى الإضافي، المعنى الأسلوبي، المعنى الإيحائي[١٠].

وقد كانت فكرة السياق هي المركز الذي يدور حوله علم الدلالة الوصفي، وهي الأساس الذي ينبني عليه الوجه الاجتماعي من وجوه المعنى، وهو الوجه الذي تتمثل فيه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال[١١]. والسياق الخارجي للنص هو معجم يفسّر ما في النص من إشارات، أو هو إطار يحصر حركة المدلول من المطلق إلى المقيد. "فبعض الجمل لو نزعت من سياقها يمكن أن تحمل غموضاً لا حصر له"[١٢]. وللسياق عند (فيرث) صاحب النظرية السياقية أنواع منها: السياق اللغوي، وسياق الموقف، والسياق الثقافي، والسياق العاطفي، فيما ينقله عنه أحمد مختار عمر[١٣]. وإذا انتقلنا إلى السياق القرآني فإن ثمة خصوصيةً تجعله في حالة تفرّد عن باقي النصوص، فكل ما يتعلق بمبدع النص الأدبي أو السياق العاطفي، سنحيّدها جانباً؛ لأن فلسفة هذه الفروع تخص الحالة البشرية التي

يمكن تقديرها. أما إذا ما تعلّق الأمر بكتاب الله فإن الباحث يعتقد أنه من المستحيل منطقياً معاملته معاملة باقي النصوص.

لذلك فالسياق القرآني اختص بتعريفات تميّز حالته الخاصة. وقد عرّفه بعض الباحثين بقوله: "هو كل ما يحيط بالنص من عوامل داخلية أو خارجية، لها أثر في فهمه، من سابق أو لاحق، والغرض الذي سيق له، والجو الذي نزل فيه"(١٤). وهذا التعريف هو الذي يميل إليه الباحث. على أن ثمة من ذكر أنواعاً متعددةً للسياق القرآني، منها: السياق المصحفي، وسياق التنزيل، وسياق الموضوع، وهو: دراسة الآيات ذات الموضوع المتشابه. والسياق التاريخي حسب التسلسل الزمني. والسياق اللغوي(١٥).

ومن هنا فإن السياق والدلالة يصبان في بوتقة واحدة، إلا أن السياق يظلّ خادماً وموجهاً لحركة الدلالة. وكل ما يمنحنا السياق من طاقة دلالية تصب من جهة أخرى في خانة الأسلوبية التي تقوم على مبدأ تعليل الاختيار، والنواتج الدلالية للتركيب اللغوي. وهذه المعارف تشكّل حلقاتٍ في سلسة متصلة قائمة على المعنى. وربما بدا الربط بين هذه المعارف أمراً بدهياً؛ لأن علم الدلالة وعلم الأسلوب يبحثان -أساساً- في المعنى. فثمة مستويان من المعنى: المعنى المعرفي، والمعنى التعبيري. والمعنى ليس محدداً بالكلمات، ولكنه موجود فوق مستوى الكلمة وتحتها في آنٍ واحد.

يقول (ابرامز) -فيما ينقله عنه الخفاجي- في توضيح العلاقة بين علم الدلالة وبين البلاغة والأسلوب: إن أفكار علم اللغة الحديث تُستخدم للكشف عن السمات الأسلوبية أو الخصائص الشكلية التي يقال إنها تميز عملاً معيناً أو كاتباً معيناً، أو موروثاً أدبياً، أو عصراً معيناً، وهذه السمات الأسلوبية قد تكون: صوتيةً، أو جليةً: (أنواع التركيب الجملي)، أو معجميةً، أو بلاغيةً: تتناول الاستعمال المجازي، والصور وما إليها(١٦).

ومما يقوّي الروابط بين الدلالة والأسلوبية أن أهم مبدأ من مبادئ الأسلوبية يُعرف بـِ (الاختيار) وهو متعلق -أساساً- بالمفردة، ويقصد به العملية التي يقوم بها المبدع عندما يستخدم لفظةً من بين العديد من البدائل الموجودة في معجمه، فاستخدام هذه اللفظة من بين سائر الألفاظ هو ما يسمى (اختيار)، أو(استبدال)، أي أنه استبدل بالكلمة القريبة منه غيرها لمناسبتها للمقام والموقف(١٧)، ويتصل بهذا المبدأ شيء آخر يسمى (محور التوزيع)، ويقصد بها تنظيم الألفاظ المختارة وتوزيعها،

وفق قوانين اللغة، وما تسمح به من تصرف، وهذه العملية هي التي يسميها (جاكبسون): إسقاط محور الاختيار على محور التوزيع[١٨]. فإذا كان علم الدلالة يبحث في كل جوانب المفـردة المعجمـية والصـوتية والـتركيبية والسياقية، فإن الأسلوبية تفسّر سبب اختيار المفردة، والفوائد البلاغية من اختيارها، ومن موقعها في الجملة. وهنا تتلاقى المعارف التي قد تبدو للوهلة الأولى حقولاً متباعدةً. ومن هنا كانت هذه الدراسة تنظر بعدة عدسات تحليلية قائمة على الدلالة والسياق من جهة، وعلى الأسلوبية من جهة أخرى.

ومما لا شك فيه أن الظواهر اللغوية المتعددة تتماس مع البلاغة العربية بسبب أو بآخر؛ فالمشترك اللفظي يدخل البلاغة من باب الجناس والمجاز. والأضداد تدخل البلاغة من باب التورية. لذا يرى بعض الباحثين: "أن هناك طائفةً من القضايا المتصلة بالمعنى المعجمي مما له علاقة أو ينبغي أن تكون له علاقة بالدراسات البلاغية، فمن ذلك: الترادف، التضاد، المشترك اللفظي"[١٩]. وقد درس بعض الباحثين وجوه التقارب بين المشترك اللفظي والمجاز من حيث القرينة، إذ يحتاج النوعان للقرينة؛[٢٠] لدفع الالتباس الذي قد ينشأ من استعمال المفردة، والسياق يتكفل بها وإلا لاستغلق المعنى وخرج عن مقتضيات البلاغة.

**المطلب الثاني: ماهية التنوع الدلالي السياقي:**

هذا المصطلح من استعمال الباحث مع أن ثمة من اقترب من هذه الفكرة مثل ابن عاشور والبقاعي. ويقصد به: أن يتهيأ السياق لمفردة ذات اتساع دلالي، وترد فيه دون قرينة حصرية، حيث يستوعب السياق جميع أوجه الدلالات، أو تكون جميع الدلالات الخاصة بتلك المفردة ضمن الاحتمالات الدلالية للمعنى الوارد في السياق، وتعطي جميع الدلالات في نهاية الأمر صورةً شموليةً لمعنى طوى النصُّ بعضه. وتظهر صورة المعنى فيها على أتم ما يكون من البيان. ولا يعني هذا الفهم أن المراد منه يناقض أصول البيان العربي الذي يُعرّفه البلاغيون بقولهم: "هو علم يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه"[٢١]. وإذا عدنا إلى علم الأصول فسنجد خلافاً حول دلالة اللفظ على معنيين في سياق واحد، قال ابن جُزَيّ الكلبي: "أجازَ مالكٌ والشَّافعي استعمال اللفظ الواحد في معنيين فأكثر في حالة واحدة، ومنعه قوم، وذلك كالمشترك يطلق

على معنيين، وكالحقيقة والمجاز يجمع بينهما في اللفظ"[٢٢]. والسياق هو الذي يتعين فيه معنى المشترك اللفظي، إذ يرى غالب الأصوليين أنه ليس له في السياق إلا معنى واحد، كما أن السياق أساسي في ترتيب النصوص الشرعية من حيث الوضوح والخفاء. ويتجاوز الأصوليون معاني العبارات الظاهرة إلى معانيها المفهومة، وذلك فيما يُسمّى فحوى الخطاب، أو مفهوم الموافقة. وإعمال هذا المفهوم منوط عند فريق من الأصوليين بالسياق[٢٣].

ولا علاقة لهذا النوع الدلالي بفن التورية الذي يحتمل فيه السياق معنيين لكلمة ذات معنيين. فإن التورية تكون مبنيةً على إرادة المعنى البعيد كنوع من التعريض، مع احتمال السياق للمعنى القريب. أما الدلالة المتعددة فهي تحتمل كل الوجوه الدلالية للكلمة معاً من باب التكثيف؛ لإعطاء صورة شاملة للمعنى.

وقد يكون المفهوم قريباً -بعض الشيء- من مصطلح (الاستخدام) الذي ورد في كتاب البديع لأسامة بن منقذ، إذ قال في تعريفه: "أن يكون للكلمة معنيان فتحتاج إليهما، فتُذكرها وحدها لتخدم المعنيين، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣]. والصلاة ههنا تحتمل أن يكون فعل الصلاة، أو موضع الصلاة، بلفظ واحد، لأنه قال سبحانه: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾[النساء:٤٣]، فدلّ على أنه أراد موضع الصلاة، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]، فدلّ على أنه فعل الصلاة[٢٤].

وقد يتسرّب إلى ذهن القارئ أن هذه الدراسة تنحو منحى (الأشباه والنظائر) أو (الوجوه والنظائر) في بحثها، ولكنها تختلف عنه في حقيقتها؛ فالأشباه تُعنى برصد الألفاظ القرآنية التي تتعدد معانيها بتعدد سياقاتها الواردة فيها (المشترك اللفظي). أو كما يقول ابن الجوزي: "معنى الوجوه والنظائر: أن تكون الكلمة الواحدة ذكرت في مواضع من القرآن، على لفظ واحد وحركة واحدة، وأريد بكل مكان معنى غير الآخر؛ فلفظ كل كلمة ذكرت في موضع، نظير للفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر. وتفسير كل كلمة بمعنى غير المعنى الآخر هو الوجوه؛ فإذن: النظائر: اسم للألفاظ، والوجوه: اسم للمعاني"[٢٥] وهذه الدراسة تُعنى بالمتعدد الدلالي؛ فهي لا تبحث عن الكلمات المتكررة؛ لتقرر معناها في كل موطن

تكررت فيه، ولكنّها تدرس الكلمات متعددة الدلالة، في السياقات التي تحتمل كل وجوه دلالتها دون ضوابط سياقية أو قرائن مانعة.

والسياق قد يأتي مطلقاً -وفق ما يرى مثنى عبدالفتاح، فثمة حالات يتجرّد فيها السياق القرآني من المرجّحات؛ لعلة مقصودة وهي: عدم تحديد الدلالة بشكل حرفي، وإنما المقصود جميع احتمالات المعاني. إذ يقول: "إذا خلا السياق القرآني من القرائن الترجيحية التي ترجح معنى على آخر، وإذا لم ترد رواية صحيحة تقصر الترجيح على معنى دون المعاني الأخرى، وإذا احتملت اللغة جميع المعاني للألفاظ؛ فإن هذا يُعد من قبيل ترجيح التنوّع الدلالي، فجميع المعاني المحتملة مرادة حينئذ لعينها، ولا يصح ترجيح معنى على بقية المعاني؛ لخلو المقام من المرجحات، ولأن السياق يقتضي أن تتنوع المعاني وتتعدد، بل أقول: إن مخالفة السياق في هذه الحالة يُعدّ خروجاً على قانون التأويل والتفسير الذي اقتضته طبيعة الفهم للقرآن الكريم، وحينئذ فإنه من الخطأ بمكان مخالفة حاكمية السياق وسلطته على المتلقي بحيث يخرج عن هذه الدلالة ويخالف هذه الوجهة"[٢٦].

## المبحث الثاني: الدلالة السياقية المتنوعة للمفردة القرآنية:

يتناول هذا المبحث عـدداً من الألفاظ القرآنية ذات الاتساع الدلالي التي وردت في سياقات إخبارية مفتوحة. وينقسم هذا المبحث إلى أربعة مطالب.

### المطلب الأول: الأبعاد الدلالية للفظة (الرهو):

قال تعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾[الدخان:٢٤]. تفيد المعاجم العربية أن كلمة (رهو) من المشترك اللفظي، وهي من الأضداد[٢٧]. والسياق مرن بما فيه الكفاية، ليحتمل أي معنى من معانيها. ومن هنا برزت لنا مشكلة في التعامل معها، فأي وجه من وجوه المعنى قصده القرآن؟ وهل القرآن يعمد إلى استعمال ألفاظ واسعة الدلالة، ويريد منها وجهاً واحداً دون قرينة سياقية؟

#### أولاً: معنى الرهو في المعاجم:

قال الخليل: "الرَّهْوُ: مشيٌ في سُكون، والرَّهْوُ: مُسْتَنقع الماء. والرَّهْوةُ: شبه التلّ الصغير في متون الأرض على رؤوس الجبال"[٢٨]. وزاد الزمخشري: ورهواً أي: ساكناً كما هو. وعيش راهٍ: ساكن. وقيل: جوبة بين ماءين قائمين. والرهو: ما اطمأن من الأرض وارتفع ما حوله. وجاءت الخيل رهواً: متتابعة"[٢٩]. وقال الجوهري: "رها بين رجليه يرهو رهواً، أي فتح. والرهو: السير

السهل. والرهوة: المكان المرتفع والمنخفض أيضا يجتمع فيه الماء، وهو من الأضداد"[٣٠].

ويرى ابن فارس أن:" الراء والهاء والحرف المعتل أصلان، يدلُّ أحدُهما على دَعَةٍ وخَفْضٍ وسكون، والآخرُ على مكانٍ قد ينخفض ويرتفع"[٣١].

أما ابن منظور في لسان العرب فقد أطال الوقوف عند هذه الكلمة مورداً الكثير من أوجهها الدلالية. يقول:" رَها الشيءُ رَهْواً سَكَن. وكلُّ ساكِنٍ لا يتحَرَّكُ. وأَرْهى على نفسه رفقَ بها. ورَهْواً أي دَمِثاً وهو السَّهْل. والرَّهْوُ: الكثير الحركة وهي ضدٌّ. والرَّهْوُ الحركة نفسها. والرَّهْوُ أَيضاً: السريع. ويقال الناس: رَهْوٌ واحدٌ، أي متقاطرون. وبئرٌ رَهْوٌ: واسِعَة الفَمِ. والرَّهْوُ مُسْتَنْقَع الماء. والرَّهْوُ: حَفِيرٌ يُجْمَع فيه الماءُ. ورَهاءُ كلِّ شيء: مُسْتَواهُ. والرَّهْوُ من الأَضداد يكون للسَّيْرِ السَّهْلِ ويكون للسَّريعِ. والرَّهْوُ والرَّهْوَةُ: المَكانُ المُرْتَفِعُ والمُنْخَفِضُ يَجتَمِع فيه الماءُ وهو من الأَضداد"[٣٢]. "ورها الطائر: إذا نشر جناحيه ولم يخفق بهما. وراهيت الاحتلام قاربت"[٣٣]. "والرهو: المتفرق. وأن معناه فرقة. والرهو من الكتائب: المشايعة. والرهو: الكثير"[٣٤].

أما عن الحقل الدلالي والمتقاربات اللفظية، ويقصد بهذا المفهوم الكلمات التي تتكون من الحروف نفسها دون ترتيب، أو ما عُرف ب (الاشتقاق الأكبر) عند ابن جني. يقول تمام حسان: "ولا شك أن اشتراك الكلمات في أكثر حروف المادة يجعل إحداها عند سماعها تذكر بالأخرى"[٣٥]. ومجرد التذكير بالكلمة الأخرى يكون له قيمة من وجهة نظر دلالية، قد تصل إلى درجة القصدية أحياناً. أي أن تكون الكلمة مقصودةً من أجل التذكير بالأخرى، وقد يكون التقارب في الحروف دليلاً على التقارب في المعنى. ومن هنا توقفنا عند بعض المفردات منها: الهور: "هو البُحَيْرَةُ تَغِيضُ بها، فَتَتَّسِع ويكثر ماؤُها"[٣٦]. والهور:" مصدر هار الجرف يهور إذا انصدع من خلفه"[٣٧]. وهذا المعنى قريب جداً من معنى (الرهو) إذا دلَّ على الصدع أو الجرف أو المستنقع. والرَّوْهُ، بالفتْحِ، والرُّواهُ، بالضَّمِّ: هو: "اضْطِرابُ الماءِ على وجْهِ الأرضِ، وقد رَاهَ يَرُوهُ رَوْهاً، والاسمُ: الرُّواهُ"[٣٨]. وهذا المعنى قريب من معنى الرهو حين يدل على حالة الماء. الوهر: "توهّج وَقْع الشمس على الأرض حتى ترى لها اضطراباً كَالبخار"[٣٩]. ومنه: "التَّيْهُور: وهو ما اطْمَأَنَّ من الأَرض.. والتَّيْهُورُ: مَوْجُ البَحْرِ المُرْتَفِعُ"[٤٠]. وهذا المعنى قريب جداً من معنى الرهو إذ دل

على موج البحر، أو ما اطمأن من الأرض أو الاضطراب.

**ثانياً: أقوال المفسرين في الآية:**

يُجمل السيوطي الروايات التفسيرية وآراء المفسرين في لفظة (رهو) حيث يقول: عن ابن عباس (رهواً) قال: سمتاً. وعن ابن عباس ﷺ قال: كهيئته وامضِ. وعن ابن عباس سأل كعباً قال: طريقاً. وعن الحسن قال: طريقاً يبساً. وأخرج ابن الأنباري قال: ساكناً. وأخرج ابن جرير قال: سهلاً. وعن ابن عباس قال: الرهو أن يترك كما كان فإنهم لن يخلصوا من ورائه. وعن ابن عباس قال: دمثاً. وعن عكرمة قال: جدداً. وأخرج عبدالرزاق قال: طريقاً يابساً كهيئته. وأخرج القرظي قال: طريقاً مفتوحاً. وأخرج عبد بن حميد قال: طريقاً منفرجاً[٤١]. أما الزمخشري فيرى: أنّ الرهو فيه وجهان، أحدهما: أنه الساكن، والثاني: أن الرهو الفجوة الواسعة[٤٢]، قال البقاعي في معنى الآية: أي إذا أسريت بهم وتبعك العدو ووصلت إليه وأمرناك بضربه لينفتح لتدخلوا فيه فدخلتم ونجوتم، رهواً، بعد خروجكم منه بأجمعكم أي منفرجاً واسعاً ساكناً بحيث يكون المرتفع من مائه مرتفعاً والمنخفض منخفضاً كالجدار، وطريقه الذي سرتم به يابساً ذا سير سهل على الحالة التي دخلتم فيها ليدخل في عدوكم[٤٣].

**ثالثاً: سياق الموضوع:**

مما يعيننا على فهم تفاصيل الحادثة أنها قد تكررت في غير ما موضع من القرآن، نحو قوله تعالى:﴿ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ [طه:٧٧]. وقوله تعالى:﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣][٤٤]. والفَرق بين الفَلْق (الفِلْق) -بفتح الفاء وكسرها- والفِرْق هو أن: الفِرْق يفيد معنى الانفصال أو ابتعاد الأجزاء بعضها عن بعضها أكثر من الفَلْق.

**رابعاً: الاحتمالات الدلالية للمفردة:**

١- الارتفاع أو الانخفاض، أو الاثنان معاً، وهذه المعاني تنسجم مع السياق انسجاماً تاماً؛ فإن أُريد بها الارتفاع فقط صحّ المعنى واحتمل السياق ذلك (اترك البحر مرتفعاً) وإن أُريد بها الانخفاض فقط، صحّ المعنى واحتمله السياق؛ لأن البحر ارتفع من جهة وانخفض من الأخرى. وإن أُريد بها الضدان معاً، صح المعنى واحتمله السياق. وإن أُريد به كل المعاني التي تدل على

الحفرة أو المستنقع أو الصدع، أو ما اطمأن من الأرض أو الفجوة أو المكان الذي يتجمع فيه الماء. صح ذلك فكلها هيئات تبيّن الشكل الجديد الذي اتخذه البحر بعد انفلاقه. ولو جُمعت كلها لأعطت صورةً لجغرافية البحر لحظة انفلاقه. وهذا أحد أسرار استعمال هذه المفردة.

٢- الحركة: إذا اعتبرنا أن الرهو يشير إلى معنى الحركة سواء السهلة أو السريعة. أو هيئة المشي وهو التقاطر، أو السير السهل، أو السير السريع أو السكون. أو مستوى الحركة. أو الحركة نفسها. صحّ ذلك كله من جهة المعنى واحتمله السياق. وإذا اعتبرنا أن الرهو يعني: الحركة السريعة أو البطيئة، صح المعنى واحتمله السياق؛ لأن الحادثة قائمة على الحركة كلها؛ حركة بني إسرائيل وعبورهم وحركة البحر، وحركة فرعون وجنوده. وقد يتفاوت وصف هذه الحركة بين السرعة من أجل النجاة، وبين البطء خوفاً من خوض البحر؛ لأن الحادثة مفزعة. أو التقلّب بين السرعة والبطء. وكل هذه المعاني صحيحة ويحتملها السياق. ولكن سياق الآية لا يدعم هذا بشكل مباشر؛ إذ التقدير سيكون (واترك البحر بعد -أن تحركت فيه بسهولة- سهلاً على فرعون). إلا إنه يحتمله السياق بالدلالة الإيحائية. ومن هذا الجانب نتبع المعنى بهيئة التقاطر أو المشي المتتابع الذي تفيده كلمة الرهو أيضاً؛ لأن الطريق المضروب في البحر بين جبلين يستدعي أن يكون القوم متتابعين متقاطرين فيه على هيئة أرتال.

٣- الطريق: وإذا أخذنا بآراء السلف أن الرهو يفيد معنى الطريق السهل، أو الطريق اليبس، صح ذلك واحتمله السياق القرآني، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار قوله تعالى:﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧].

٤- هيئة الانفراج: أو الاتساع وتباعد فرقتي البحر. ولفظة (الرهو) هنا تكون بمعنى الافتراق، وهذا المعنى صحيح ويدعمه السياق. ومن معاني الفعل (رها) نشر الطائر جناحيه دون تحريكهما، وهذا قريب جداً من هيئة البحر الساكنة بعد انفلاقه. كما أن من معانيها، توازن العِدْلين على ظهر الدابة؛ فهيئة الأحمال المتوزعة على ظهر الدابة على شكل طردين تشبه هيئة البحر المنفلق الساكن. وكذلك هيئة المسافة بين الرجلين في قولهم: (رها بين رجليه) تعطي الصورة نفسها.

إن هذه الكلمة في هذا السياق رسمت لنا صورةً تفصيليةً لأحداث وتفاصيل ليس

من المهم التركيز عليها في ظاهر النص. فهي تعني جميع ما تقدم. فكل هذه الدلالات مجتمعةً تفيدها المفردة القرآنية.

وإذا تمعّنا في حادثة شق البحر، وعبور موسى مع بني إسرائيل، وغرق فرعون وجنوده، فالآيات تحدثنا عن حالة البحر العادية حين بلغه بنو إسرائيل. ثم تلك المعجزة الهائلة حين طلب الله من موسى أن يضرب البحر بعصاه. فترك البحر حالة الاستواء، وتحوّل إلى جبلين عظيمين بينهما طريق منخفض ويقال: اثنا عشر طريقاً[٤٥]، ربما بقي فيه القليل من الماء كالمستنقع، ثم جف تماماً فصار قاعاً يبساً مستويةً. وجميع هذه التحولات نجدها في معنى المفردة (رهو) حيث الارتفاع من جهة، والانخفاض من جهة أخرى، والاستواء. أضف إليها معنى الفجوة الأرضية أو المكان المطمئن بين مرتفعين. كما تفيد كلمة (رهو) ضرباً من السير الهادئ أو السير السريع المتتابع، إذ ترسم لنا صورة القوم وهم يعدون الخطا مسرعين أثناء عبورهم البحر. ومن هنا يقول بعض الباحثين: "لا تقتصر دلالة الكلمة على مدلولها فقط، وإنما تحتوي على كل المعاني التي قد تتخذها ضمن السياق اللغوي. وذلك لأن الكلمات في الواقع لا تتضمن دلالةً مطلقةً، بل تتحقق دلالتها في السياق الذي ترد فيه، وترتبط دلالة الجملة بدلالة مفرداتها[٤٦]. فالارتفاع جزء من الصورة، إذا أخذنا أن الرهو بمعنى الارتفاع، وكذا الحال بالنسبة لمعنى الانخفاض، أو السكون، أو الحركة، أو السرعة، أو التتابع. ومن هنا نقول إن الصورة مقصودة بجملتها لا بجزء منها. وهذه علة استعمال المفردة ذات الدلالة المتسعة في هذا السياق.

**خامساً: الفائدة البلاغية والأسلوبية للتعدد:**

لماذا جاءت لفظة (الرهو) من المشترك المتباعد، إذ تدل على معانٍ متعددة؟ وما هو الجامع بين هذه المعاني؟ ولماذا كانت الكلمة من الأضداد؟ وما هو الجامع بين هذه الثنائيات الضدية في سياق الآيات؟ وما هي الدواعي البلاغية والأسلوبية التي حكمت أن تكون هذه المفردة في هذا الموضع؟ لعل الجواب عن هذه الأسئلة هو أن القرآن كلام الله المعجز؛ فأي وجه من وجوه الدلالة المتقدمة أخذ به الإنسان لم يخطئ الحقيقة. ولكن الأفضل من جهة بلاغية تصويرية أن يأخذ بكل المعاني مجتمعةً؛ لأنها تكثّف لنا دلالاتٍ إيحائيةً وصوراً جانبيةً على أدق ما يكون من الإخبار والتصوير. وقد جاءت هذه الكلمة -التي تتنازعها مدلولات عدة وثنائيات ضدية-

في سياق إعجازي يستوعب كل معانيها الحقيقية والمجازية وظلالها الإيحائية؛ ليكمل القارئ صورةَ الحدث الذي طواه النص ظاهرياً، وترك ما يقود إلى الصورة الكلية وهي: لفظة (الرهو) التي لا تكاد تجد لها نظيراً في اللغة على الإطلاق؛ ذلك أنها تدلّ على سيل من المعاني، وعلى أكثر من ثنائية ضدية. والعجيب في استعمالها أن السياق استوعب كل معانيها وكل تضادها بصورة عجيبة، وهذا هو داعي الاستعمال. أما الذي يمكن أن نقول إن النص طواه ظاهرياً فيتمثل: ببعض التفاصيل كالحركة والسرعة وهيئة الانفلاق وغيرها.

وتأكيداً لما تقدم فقد نظر (فيرث) – فيما ينقله يحيى أحمد– إلى المعنى على أنه "نتيجة علاقات متشابكة متداخلة، فهو ليس فقط وليد لحظة معينة –بما يصاحبها من صوت وصورة– ولكنه أيضا حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع، فالجمل تكسب دلالتها في النهاية من خلال ملابسات الأحداث أي من خلال سياق الحال"(٤٧).

**المطلب الثاني: في الأبعاد الدلالية للفظة (نفشت):**

قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ [الأنبياء:٧٨]، إن لفظ (نفشت) متعدد الدلالة، وله جوانب إيحائية كثيرة.

**أولاً: المعنى اللغوي للفعل نفش:**

أورد الزبيدي معانيَ عدةً للفعل (نفش) وهي كما يلي: "نَفشَت: أَي تَفَرَّقَتْ الغنم فَرَعَتْ باللَّيْلِ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ، وخَصَّ بَعْضُهم به دُخُولَ الغَنَمِ في الزَّرْعِ. وهِيَ إِبلٌ نَفَشٌ. قَالَ ابنُ دُرَيْدٍ: النَّفْشُ: خاصٌّ بالغَنَمِ...وفي الحَدِيثُ: الحَبَّةُ في الجَنَّةِ مِثْلُ كَرِشِ البَعِيرِ يَبِيتُ نَافِشاً. والنَّفَشُ، مُحَرَّكَةً: الصُّوفُ. والنَّفَشُ أَيْضاً: الخِصْبُ، عن ابنِ عَبّادٍ يُقَالُ: نَفَشْنَا نُفُوشاً، أَيْ أَخْصَبْنَا. والنُّفُوشُ، بالضَّمِّ: الإِقْبَالُ عَلَى الشّيْءِ تَأْكُلُه. والنَّفَشُ، مُحَرَّكَةً: المَتَاعُ المُتَفَرّقُ في الوِعَاءِ وكُلُّ شيءٍ تَرَاهُ مُنْتَبِراً رِخْوَ الجَوْفِ. وأَمَةٌ مُنْتَفِشَةُ الشَّعرِ، أَيْ شَعْثَاءُ. ومِنَ المَجَازِ: أَرْنَبَةٌ مُنْتَفِشَةٌ، أي قَصِيرَةُ المارِنِ. وفي حَدِيثِ ابنِ عَبّاسٍ: وإِنْ أَتاكَ مُتَنَفِّشَ المَنْخِرَيْنِ أَيْ وَاسِعَ مَنْخِرَيِ الأَنْفِ. وتَنَفَّشَتِ الهِرَّةُ: ازْبَأَرَّتْ. وتَنَفَّشَ الطّائِرُ، إِذا رَأَيْتَه قَدْ نَفَضَ رِيشَه، كَأَنَّه يَخافُ أَوْ يُرْعَدُ. والنَّفَشُ: كثْرَةُ الكَلامِ والدَّعاوَي، وهو مَجَازٌ. والنَّفْشُ النَّدْفُ. ونَفَشَ الرَّطْبَةَ نَفْشاً: فَرَّقَ ما اجْتَمَعَ فِيهَا"(٤٨).

**ثانياً: أقوال المفسرين في الآية:**

جاء في تفسير ابن كثير: "كان ذلك الحرث كرماً قد تدلّت عناقيده، قال ابن عباس: النفش الرعي. وقال شريح والزهري وقتادة: النفش لا يكون إلا بالليل، زاد قتادة: والهَمَل بالنهار"(٤٩).

**ثالثا: الأبعاد الدلالية للفعل (نفش):**

من خلال ما تقدم ندرك أن للفعل (نفش) المستعمل في سياق الرعي أربعة مُحَددات دلالية مهمة، هي:

١- أنه لا يكون -من حيث النوع-إلا مع الغنم فقط دون باقي الأنعام.

٢- أنه لا يكون -من حيث الزمان- إلا في الليل.

٣- أنه لا يكون -من حيث المكان- إلا في مزارع الآخرين غير المعدة للرعي.

٤- أنه لا يكون -من حيث الكيفية- إلا دون راعٍ.

إن استعمال الفعل (نفش) اختصر كلاماً طويلاً في هذا السياق؛ فلو أردنا أن نعبّر عن المعنى نفسه -دون استعمال الفعل نفش- متوخيين الإيجاز لما جاوزنا هذا التعبير: (إذ يحكمان في الحرث الذي رعته الأغنام ليلاً على حين غرة دون راع مما أدّى إلى إهلاك الحرث). فقد اكتنزت هذه المفردة دلالاتٍ ثانويةً إلى جانب إعطائها للمعنى المخصوص بكل دقة وتناوٍ وإيجاز. أما الدلالات الثانوية فقد نتجت من اتساع دلالة الفعل؛ بسبب نقله من الدلالة الحقيقية (الندف) إلى الدلالة المجازية. حيث تعددت الأوجه الدلالية لهذه الكلمة مع احتمال السياق لها جميعاً. ويمكن إجراء مقاربات دلالية بين معاني هذه المفردة وبين سياق الآية وذلك على النحو التالي:

١- نفش: بمعنى ندف، فأصل النفش متعلق بالصوف والقطن وما سواهما، وذلك بتمزيق تلبّده، وإحداث فراغات فيه؛ بغية نشره وجعله ليناً. وهذا متعلق بالسياق من حيث إن النفش خاص بالصوف، وأن الصوف خاص بالأغنام. والأغنام هي صاحبة الفعل، إذ أتلفت الحرث ومزّقته كما يُمزّق الصوف عند تلبّده، وهذه من دقائق التناسب اللفظي في القرآن. وقد جاء النفش بمعنى الندف في قوله تعالى: ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾[القارعة:٥].

٢- نفش: بمعنى أهلك الحرث، وهذا الوجه المجازي المتطور للفعل، وهو أكثر الوجوه تعلّقاً بالسياق.

٣- نفش: بمعنى انتشر، وهذا الوجه قريب من السياق لأنه يدلنا على حالة دخول الأغنام الحرث وانتشارها فيه، والانتشار فيه يقتضي الرعي والتحطيم (الإتلاف).

٤- نفش: بمعنى امتلأ وهذا الوجه يحتمله السياق فقولنا: انتفش البطن، هو دلالة على امتلائه. ومن البدهي القول: إن الأغنام ما أهلكت الحرث إلا وقد امتلأت بطونها حد الانتفاخ.

٥- نفش: بمعنى أَخْصَبَ، وقد أخصبت الغنم ونالت الخصب بعد أن رعت ذلك الحرث.

٦- النفش: بمعنى الإقبال على الشيء لأكله، وهو بإقبال الغنم على الحرث.

٧- نفش: بمعنى كثرة الكلام والدعاوي، وهذا الوجه يحتمله السياق من جهة فرعية ترتبت على إهلاك الحرث، حيث اختصم أهل الحرث مع أهل الغنم عند سيدنا داود عليه السلام وسيدنا سليمان عليه السلام وكثرت دعاويهما إلى أن فتح الله على سيدنا سليمان عليه السلام ففصل في هذا النزاع[٥٠]. وقد تكون هذه اللفظة من المجاز المرسل بعلاقته المسببية.

٨- نفش بمعنى نشر ريشه أو صوفه، وهو متعلق بالطير أو الحيوان وهو يشير إلى الانتشار.

ومن جهة صوتية فإن أكثر ما يميز هذه الكلمة صوتياً هو بروز صوت الشين الذي يوحي بالتفشي والانتشار.[٥١] وهذا يتسق مع معنى الفعل الذي يفيد الانتشار.

**رابعاً: الفائدة البلاغية والأسلوبية للتعدد:**

إن المتأمل في دلالة الفعل (نفش) يستطيع أن يلم شعث صورة إيحائية توارت وراءه. وقد نتجت هذه الصورة من تعدد أوجه دلالة الفعل مجتمعةً؛ إذ يمكن تمثّلها على النحو الآتي: انتشرت الأغنام -التي هي أصل الصوف- في حرث قوم على حين غرة من أهلها في الليل، فأهلكت الحرث، وأحدثت فيه فراغات وأزالت تلبّده كما يفعل النافش مع الصوف. مع أن صوفها قد انتفش في ذلك الحقل إما خوفاً أو توجساً. أو لأن صوفها قد علق بالزرع واحتك معه فأخذ يتمزق حتى بدا منتفشاً. وقد نالت تلك الغنم الخصب، حتى امتلأت بطونها فبات شكلها منفوشاً. ثم وقعت الدعاوى والخصومة بين أهل الزرع وأهل الغنم.

وعند التحديد الدقيق للمعنى المقصود من وراء استعمال الفعل (نفش) في سياق الآية المتقدمة نقول: إن المعنى هو ما تقدم من رعي الحرث ليلاً، مع القصد في أن يحمل الفعل هذه الدلالات الجانبية لتكتمل الصورة الجانبية للحدث، وفق ما يحتمل السياق، وبما أن السياق يحتمل أوجهاً أخرى -وكانت تلك الأوجه متسقةً مع

الصورة الكلية للمعنى- فإنَّ استبعادها يفقد الحقيقة جانباً مهماً. أضف إلى ذلك الدقة المتناهية للمفردة القرآنية حين ترد في سياق فإنها تمسك بكل تلابيبه. وقد تأتي المفردة القرآنية حاملةً معناها الحقيقي والمجازي معاً؛ حيث يُحتكم إلى معناها المجازي في المعنى مع احتفاظها بشيء من لوازم المعنى الحقيقي. كما هو الحال مع الفعل (نفش). ومن هنا كان التعبير متسقاً مع جو المعنى لحد كبير، فقد تماهت مع السياق وتلوّنت بلونه.

**المطلب الثالث: الأبعاد الدلالية للفظة (بقية):**

قال تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ [هود: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[هود: ١١٦]، هذه اللفظة من الألفاظ ذات الدلالة الواسعة المتطورة دلالياً، أو هي من المشترك اللفظي، وهي من الأضداد. وقد كثرت أقوال أهل اللغة فيها كما كثرت فيها أقوال المفسرين.

**أولاً: المعنى اللغوي لكلمة (بقية):**

أوردت معاجم اللغة معانيَ كثيرةً لهذه المفردة ومشتقاتها وقد جمعها الزبيدي في تاج العروس بقوله: بقي: والاسمُ البَقْوَى والبُقْيا بالضَّمِّ...قال اللَّعِين المنْقَريّ انْشَدَه الجَوْهرِيُّ:

فمـــا بُقْيَـــا علـــيَّ تَرَكْتُمـــاني
ولكـــنْ خِفْتُمـــا صَـــرَدَ النِّبـــالِ

وقد تُوضَعُ الباقِيةُ مَوْضِعَ المَصْدَرِ؛ قالَ تعالى: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ [الحاقة:٨] ، أي بَقَاء، كما في الصِّحاحِ وهو قَوْلُ الفرَّاءِ. ويقالُ: هلْ تَرَى منهم باقِياً. ويقالُ: ما بَقِيَتْ باقِيَةٌ ولا وَقاهُم مِن الله واقِيَةٌ. ومُبْقِياتُ الخَيْل: التي بُقِي جَرْيُها عنْدَ انْقِطاعِ جَرْيِ الخَيْلِ. واسْتَبْقاهُ: اسْتَحْيَاهُ. واسْتَبْقَى من الشَّيءِ تَرَكَ بَعْضَه؛ وأَبْقَيْتُ ما بَيْنَنا: لم أُبالِغْ في إفْسادِهِ، والاسمُ: البَقِيَّةُ، قالَ الشاعِرُ:

إنْ تُـذْنِبُوا ثـم تَـأْتِيني بَقِيَّـتُكم
فمـا علـيَّ بـذَنْبٍ مـنكُمُ فَـوْتُ

وبَقاهُ بَقْياً: رَصَدَهُ أَو نَظَرَ إليه؛ قالَ اللّحْيانيُّ: بَقَيْتُه وبَقَوْتُه: نَظَرْتُ إليه. وتَرَقَّبْتُه؛ ومِمَّا يُسْتدركُ عليه: مِن أَسْماءِ اللَّهِ الحُسْنَى: الباقِي: ويُعَبَّرُ عنه بأَنَّه أَبَدِيُّ الوُجُودِ. ويَقُولونَ للعَدُوِّ إذا غَلَبَ: البَقِيَّةَ، أَي: أَبْقُونا ولا تَسْتَأْصِلُونا. وأَبْقَيْتُ على فلانٍ إذا رَعَيْتَ عليه ورَحِمْتَه. والباقِي: حاصِلُ الخرَاجِ ونحوِهِ؛ عن اللَّيْثِ. واسْتَبْقَيْتُ في مَعْنَى العَفْو

عن زَلِلِه. والبَقِيَّة: المُراقَبَةُ والطاعَةُ، والجَمْعُ البَقايا"(٥٢).

**ثانياً: أقوال المفسرين:**

نقل الطبري أقولاً كثيرةً في هذه اللفظة نجملها في قوله:" قال أبو جعفر: ما أبقاه الله لكم بعد أن توفّوا الناس حقوقهم بالمكيال والميزان بالقسط، فأحلّه لكم، خير لكم من الذي يبقى لكم ببخسكم الناس من حقوقهم بالمكيال والميزان. وقد اختلف أهل التأويل في ذلك. فعن مجاهد قال: طاعة الله خير لكم. وقال آخرون: معنى ذلك: حظكم من ربكم خير لكم. وعن قتادة قوله: حظكم من ربكم خير لكم. وقال آخرون: معناه: رزق الله خير لكم. وعن ابن عباس: قال رزق الله. وقال ابن زيد: الهلاك في العذاب، والبقية في الرحمة. وقال أبو جعفر: وإنما اخترت في تأويل ذلك القولَ الذي اخترته، لأن الله تعالى ذكره إنما تقدم إليهم بالنهي عن بَخس الناس أشياءهم في المكيال والميزان، وإلى ترك التطفيف في الكيل والبخس في الميزان دعاهم شعيب، فتعقيب ذلك بالخبر عما لهم من الحظّ في الوفاء في الدنيا والآخرة، أولى – مع أن قوله:(بقية)، إنما هي مصدر من قول القائل "بقيتْ بقية من كذا"، فلا وجه لتوجيه معنى ذلك إلا إلى: بقية الله التي أبقاها لكم مما لكم بعد وفائكم الناس حقوقهم، خير لكم من بقيتكم من الحرام الذي يبقى لكم من ظلمكم الناس ببخسهم إياهم في الكيل والوزن"(٥٣).

قال السمين الحلبي في تصريف كلمة بقية:" أن (فَعِل) بكسر العين إذا كان لازماً فقياسُ الصفة منه (فَعِل) بكسر العين نحو: سَجِيَت المرأة فهي سَجِيَة فإن قَصَدْت المبالغة قيل: سَجِيَّة لأنَّ فعيلاً من أمثلة المبالغة فكذلك بقيَّة وبَقِية أي بالتشديد والتخفيف"(٥٤).

قال البقاعي مستجمعاً دلالات كلمة (البقية) ومستوحياً من السياق ما يحتمله منها:" لما كان نظرهم بعد الشرك مقصوراً على الأموال، وكان نهيه عما نهى عنه موجباً لمحقها في زعمهم، كانوا كأنهم قالوا: إنّا إذا اتبعناك فيما قلتَ فنيتْ أموالنا، أو تضعضعت أحوالنا، فلا يبقى لنا شيء. فقال: (بقيت الله) أي فضل الملك الأعلى المستجمع لصفات الكمال، وبركته في أموالكم وجميع أحوالكم وإبقائه عليكم نظره إليكم الموجب لعفوه الذي هو ثمرة اتباع أمره –خير لكم مما تظنونه زيادةً بالنقص والظلم، وذلك أن بقية الشيء ما فضل منه، وكأن ذلك الذنب أوجب فناءه... وما أنا بحفيظ: أعلم جميع أعمالكم

وأحوالكم وأقدر على كفكم عما يكون منها فساداً؛ وأصل البقية ترك شيء من شيء قد مضى."(٥٥)

وتبعه ابن عاشور يتقصّى أوجه الدلالة ويوجّهها مع السياق في تفسيره لمعنى (بقية) إذ يقول:"ولفظ (بقية) كلمة جامعة لمعان في كلام العرب، منها: الدوام، ومؤذنة بضده وهو الزوال، فأفادت أن ما يقترفونه متاع زائل، وما يدعوهم إليه حظ باق غير زائل، وبقاؤه دنيوي وأخروي...على أنّ لفظ (البقية) يحتمل معنى آخر وهو: معنى الخير والبركة؛ لأنّه لا يبقى إلاّ ما يحتفظ به أصحابه، وهو النفائس، ولذلك أطلقت (البقية) على الشيء النفيس المبارك كما في قوله تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ﴾[البقرة:٢٤٨]... وقال الشاعر:

إنْ تُـذْنِبُوا ثـم تَـأْتِيني بَقِيَّـتُكم
فمـا علـيَّ بـذَنْبٍ مـنكُمُ فَـوْتُ

قال المرزوقي: المعنى: ثم يأتيني خِياركم وأماثلكم يقيمون المعذرة. وهذا كما يقال: فلان من بقية أهل، أي من أفاضلهم. وفي كلمة (البقية) معنى آخر وهو الإبقاء عليهم، والعرب يقولون عند طلب الكفّ عن القتال: أبقوا علينا، ويَقولون (البقيةَ البقيةَ) بالنصب على الإغراء...والمعنى إبقاء الله عليكم ونجاتكم من عذاب الاستئصال خير لكم من هذه الأعراض العاجلة السيّئة العاقبة. فيكون تعريضاً بوعيد الاستئصال. وكل هذه المعاني صالحة هنا. ولعلّ كلام شعيب عليه السلام قد اشتمل على جميعها فحكاه القرآن بهذه الكلمة الجامعة. وإضافة (بقية) إلى اسم الجلالة على المعاني كلها جمعا وتفريقاً إضافةُ تشريف وتيمّن"(٥٦).

ففي هذه اللفظة استعان ابن عاشور بجميع أوجه الدلالة، واستطاع أن يرسم من خلالها صورةً شموليةً للمعنى يحتملها السياق. فلعل الله أراد من وراء هذه الكلمة كل هذه المعاني مجتمعةً (٥٧).

**ثالثا: سياق سورة هود وعلاقته بلفظ (البقية):**

تطالعنا سورة هود من بداياتها في الآية الثالثة بقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود:٣]، في ثنائية الإبقاء والإمهال وسعة العيش مقابل الإيمان، أو المحق والاستئصال من على وجه الأرض مقابل

التكذيب والعناد. وفي هذا السياق تأتي قصة نوح عليه السلام وعناد قومه ومحق الكافرين، ونجاة البقية الصالحة القليلة. ثم تأتي قصة هود عليه السلام وتتكرر الثنائية نفسها مع قومه. ثم قصة صالح عليه السلام وتتكرر الثنائية نفسها. ثم قصة لوط عليه السلام وتتكرر الثنائية نفسها. وتأتي قصة شعيب عليه السلام، في تشابه كبير بين دعوة هؤلاء الأنبياء وتكذيب قومهم لهم – وأكثرهم من العرب– وإهلاكهم وعدم الإبقاء عليهم. وفي هذا السياق يأتي ذكر موسى عليه السلام في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ [هود:١١٠]، وهذا استثناء من قاعدة عدم الإبقاء على الظالمين، وقد كان هذا الاستثناء خاصا ببني إسرائيل. قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾ وهي: كلمة الإنظار إلى يوم القيامة، ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بإنزال ما يستحقه المبطل من الهلاك، ونجاة المحق[٥٨]. وهنا كانت البقية عليهم حالةً خاصةً مخالفةً لسنن الله في القرى الظالمة. مع ملاحظة أن بني إسرائيل لم تكن لهم قرية أو أرض خاصة بهم، وهذا جزء من عقابهم الدنيوي: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الحشر:٣]. ومن هنا اختصت سورة هود بعقاب القرى المستقرة بمن فيها. فقوم لوط قلبت الأرض بقراهم، وعاد وثمود وقوم نوح، لذلك قال تعالى: ﴿وَمَاكَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾[هود:١١٧]، فإهلاك القرى لحق بالمكان والإنسان. وهذا يدور في محيط كلمة بقية، بمعنى الاستئصال. ولقد أجمل شعيب عليه السلام لقومه هذا المعنى عبر تذكيرهم بمصير الأمم المستأصلة قبلهم الذين عرضت لهم السورة. قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود:٨٩].

**رابعاً: الأبعاد الدلالية للفظة البقية:**

استطاع البقاعي ومن بعده ابن عاشور –رحمهما الله– أن يرسما الصورة التي تنتج عن اجتماع أوجه الدلالة في هذه الكلمة. وجميع الأوجه التي قدّماها صالحة للمعنى ويقتضيها السياق بقرائنه. فقد احتمل السياق قرينتين مهمتين في معنى كلمة (البقية): الأولى: تطفيف الميزان. والثانية: خوف شعيب أن يلحق بقومه عذاب الاستئصال. وهاتان القرينتان يمكن أن تعطيا كثيرا مـــن

الدلالات، على النحو الآتي:

١- البقية بمعنى: أن يبقي الله عليكم بسبب التزامكم شريعته، خير من أن يمحقكم. وكأنها تقول لهم: احفظوا أنفسكم بالكف عن الفساد؛ لأنه سيهلككم.

٢- البقية بمعنى: ما يبقيه الله لكم من الكسب الحلال هو أدوم من الكسب الحرام الذي سرعان ما يزول.

٣- البقية بمعنى: ابقوا شيئاً صالحاً عند الله خير لكم من إسرافكم في حب الدنيا.

٤- البقية بمعنى: إن الله يراقب تجاوزاتكم وإفسادكم ولست حافظاً أو مانعاً لكم من أن يصيبكم عذابه.

٥- والبقية بمعنى حاصل الخراج: وهنا ناحية حسابية لضرائب الثمار. ويحتملها السياق؛ لأن المقام مقام نهي عن مفاسد التجارة الخاصة بالتطفيف والبخس وعموم الفساد في هذا الجانب. وقد يكون خطاب سيدنا شعيب عليه السلام مضمناً لهم النهي عن فساد التجارة، والأمر بدفع الزكاة. التي ستبقي عليهم وتمنعهم من عقاب الله. أو ستبقي على أموالهم، وتباركها لهم وتمنعها من النفاد، على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦]. أو أنهم يدخرون فيها الثواب لأنفسهم يوم الحساب. على نحو قوله تعالى:﴿ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[المزمل:٢٠]. كما يحتمل السياق هذه المعاني الثلاثة. على أن قرائن السياق تدعم هذا المعنى المتعلق بالمال؛ ففي لحاق الآيات ورد قوله تعالى على لسان أهل مدين: ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ [هود:٨٧].

٦- والبقية أفاضل الناس وصفوتهم، أو أكثرهم إيماناً والتزاماً بشرائع الله. كما جاء في قوله تعالى في سورة هود نفسها: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[هود:١١٦]. وإضافة كلمة البقية بمعنى صفوة الناس إلى لفظ الجلالة (بقية الله) يحتمله السياق نحو قولنا: إن من تسخرون منهم هم صفوة الله في هذه البلدة، وهم الناجون في الدنيا والآخرة، واتباعهم خير لكم من اتباع المفسدين الهالكين. فالبقية هنا تحتمل معنى اسم المفعول أي: المبقي عليها.

٧- ومن معاني كلمة البقية: الخلاصة ذات القيمة أو الشيء النفيس، نحو قوله تعالى:﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ

فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾[البقرة:٢٤٨].

**خامساً: الفائدة البلاغية والأسلوبية للتعدد:**

لقد تضافرت الدلالات مجتمعةً لترسم لنا صورةً إيحائيةً لمجل خطاب سيدنا شعيب عليه السلام. وقد طوت لنا المفردة في ثناياها خطاباً مفصلاً عن واقع ساده الفساد من قبل أهل مدين. كما سادته الشفقة والموعظة من نبي الله. وجاءت كلمة (بقية) كأنها خطبة تفصّل وتحذّر من الفساد المالي الواقع في التجارة –وهم أهل مال وثروة– وتحذّر من عموم الفساد. وتدعو إلى تنقية المال من الحرام وتطهيره بالنفقة والزكاة. كما جاءت تحذرهم من عقاب يحيق بهم فلا يبقى منهم باقية. وقد جاءت لفظة (البقية) متسعةَ الدلالة وذات معانٍ متنوعة، وفي سياق إخباري متسع غير مقيّد بقرينة، لا لتعطي الغموض والإبهام بل لتعطي الوضوح والصورة الشمولية للموقف. فلو حصرنا دلالتها في معنى واحد لكان هذا المعنى جزءاً من الموقف، ولو أخذنا بجميع المعاني لتشكّلت لدينا صورة تفصيلية للموقف الذي كثّفته الآية في لفظة واحدة. وقد تنبّه البقاعي وابن عاشور لهذه الآية فأجروا مقارباتٍ دلاليةً محكمةً بناءً على المعنى المعجمي للكلمة وما يقتضيه السياق. ولو حاولنا البحث عن كلمة بديلة تعطي هذا التفصيل لتعذر ذلك وهذا ما يفسر عمق اختيار المفردة من جهة أسلوبية.

**المطلب الرابع: الأبعاد الدلالية لكلمة (الأجداث):**

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١]، وقال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:٧]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[المعارج:٤٣].

تكررت المفردة (أجداث) ثلاث مرات في القرآن، وكان سياقها في المواضع جميعها هو: الخروج من القبور، أو لحظة البعث والنشور. إذ اقترنت بأفعال تدل على الحركة هي: ينسلون، يخرجون، يوفضون. وقد تكررت بعض مرادفاتها في سياقات مختلفة (٥٩).

**أولاً: المعنى اللغوي للجدث:**

قال الزبيدي: "الجَدَثُ مُحَرَّكَةً: القَبْرُ...(والجَدَثَةُ) بزيادة هاءٍ: صَوتُ

الحَافِرِ، والخُفِّ، وصَوت مَضْغِ اللَّحْمِ، كذا نقلَه الصّاغَانيّ. واجْتَدَثَ الرَّجُلُ: اتَّخَذَ جَدَثاً، أي قَبْراً"(٦٠).

**ثانياً: أقوال المفسرين في معنى الجدث:**

يقول أبو حيان: "الجدث: القبر، وسمع فيه جدف بإبدال الثاء فاء، كما قالوا: فم في ثم"(٦١). وقد جاء في تفسير السراج المنير محاولة لجمع صورة من أوجه الدلالة الخاصة بكلمة (الأجداث) حيث يقول: "الأجداث أي: القبور التي صاروا بتغييبهم فيها تحت وقع الحوافر، فهم بحيث لا يدفعون شيئاً يفعل بهم، بل هم كلحم في فم ماضغ، فإنّ الجدث: القبر. والجدثة: صوت الحافر والخف، ومضغ اللحم"(٦٢).

وربما قصد أن القبر صار فماً فمضغ لحومهم، وهذا قد يكون محتملاً لو كان السياق عن الفناء، وليس عن البعث أو إعادة الخلق بعد الفناء. إن إعادة الخلق هنا تستدعي إلى الذهن بدء الخلق أو التخلّق من علقة ثم مضغة، التي تعيد إلى الذهن معنى الجدثة وهو: صوت مضغ اللحم. فمراحل تخلّق الأحياء هي شبيه بمراحل إحيائهم بعد الموت، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[الأعراف:٢٩]، وإن يكن ثمة فارق بينهما فإنه ربما يكون في السرعة، فالتخلّق الأولي للكائن بطيء. أما إعادته إلى الحياة بعد موتها فيُخيل إلينا أنها أسرع زمناً؛ لأنها مرتبطة بنفخة الصور، حيث يهبّ الموتى في لحظة واحدة، ولا شك أن استجابتهم ستكون سريعةً لما يقتضيه السياق، قال تعالى:﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[ق:٤٤]، على أن الحالتين متشابهتان مع فارق في الزمن. ودليلنا على هذا قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٣-١٤]. هذا عن بدء التخلّق. أما عن إحياء الجسد بعد فنائه فتدلنا عليه الآيات التي أوردت لنا قصة عزير عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:٢٥٩]. وأنشز -كما تدلنا المعاجم- بمعنى ارتفع، وهي عملية ارتفاع العظام(٦٣).

**ثالثا: الأبعاد التصورية لدلالة الجدث:**

تفيد معاجم اللغة أن كلمة جدث

تعني القبر، ولم تُستعمل في القرآن إلا في ثلاثة مواطن؛ وقد جاءت ثلاثتها في سياق بعث الموتى وحركتهم. ولم تأتِ بمعنى سكون القبر وهموده، كالذي استُعملت فيه كلمة (القبر) نفسها فاستعمالها في القرآن يدل على اللبث والسكون[٦٤].

وقد دلّت معاجم اللغة أيضاً على أنّ (الجَدَثة) التي هي مؤنث (جدث) تفيد معنيين متعلقين بالسمع وهما: صوت الحافر أو الخف، وصوت مضغ اللحم. وهذان المدركان السمعيان ينتجان عن الحركة والاحتكاك؛ حركة الأقدام، أو حركة الفكّين حين يمضغان اللحم. والجامع بين معنى الجدث والجدثة من حيث الدلالة هو سياق إحياء الموتى وخروجهم من قبورهم مسرعين مهطعين. فإن لإعادة تخلّق العظام صوتا هو شبيه بصوت مضغ اللحم (الجدثة). وإن كان المعنيان متضادين من جهة السلب والإيجاب، فإن الصوت لا شك متشابه. كما أن لخروج الموتى وإسراعهم إلى المحشر وقعاً على الأرض يشبه وقع الحافر أو الخف. فالجلبة والضجة الناجمة عن احتكاك الأقدام مع الأرض تستدعي هذا المعنى. والجامع بين المعاني الثلاثة هو سياق الخروج والبعث. ومن هنا اقتضت دقة المفردة القرآنية أن يُستعمل لفظ الأجداث في سياق البعث ليكون حاملاً لهذه الصور الجانبية التي تكمّل الصورة السمعية الجانبية للحدث لحظة وقوعه. فالجدث ارتبط صوتياً بالجدثة التي تؤدي صوت إعادة تخلّق الجسد وصوت وقع أقدامه عند خروجه من الجدث.

**رابعاً: الفائدة البلاغية والأسلوبية للتعدد:**

إن تخصيص القرآن استعمال الجدث عند النشور يُحمّل هذه المفردة دلالةً تصويريةً مقصودةً، وتكمن هذه الدلالة في علاقتها بالمشابه اللفظي وهي كلمة (الجدثة)؛ ففيها دلالة على الحركة الناتجة عن احتكاك العظام مع شيء ليّن؛ فالأضراس وهي عظام عند مضغها للحم. والحافر وهو من العظام حين يحتك مع الأرض. والصورة الصوتية لاحتكاك العظم مع اللحم هي المعنية من هذا التخصيص للتذكير بالمشهد البصري والسمعي المصاحب للحركة. ويؤيد هذا أن سياقات القرآن تحدثنا عن حالة إحياء الموتى التي تتضمن رفع العظام وتركيبها وكسوها باللحم. وهذا التقارب الصوتي بين الأفعال هو المقصود دلالياً من وراء التخصيص. وهذا ما يُفسر علة الاختيار من جهة أسلوبية.

**خاتمة:**

من خلال ما تقدم ندرك أن ثمة مفرداتٍ وردت في القرآن لها معانٍ متعددة وكان اتساع السياق محفزاً على استيعاب كل المعاني مجتمعةً. فقابلية احتماله لكل المعاني لا تعني أنه يريد وجهاً واحداً منها؛ بل هو يريد كل وجوه الدلالية مجتمعةً؛ لأن في اجتماعها معاً تتضح معالم صورة طواها النص.

وقد تبيّن لنا من خلال الوقوف على عدد من مفردات القرآن أن السياق هو الضابط الفعلي لحركة الدلالة. غير أن السياق قد يتسع ليحتمل أوجهاً متعددة تكون معنيةً كلها بصورة قصدية؛ على نحو ما تقدّم في دلالة (الرهو) أو (النفش) وغيرها من المفردات.

كما تبيّن من خلال مناقشة بعض المفردات الدقة المتناهية لألفاظ القرآن الكريم؛ إذ لا يمكن إحلال بديل عنها في سياقها؛ لأنها تفقد دقتها عند نقلها من موضعها، كما تفقد الإشعاعات الدلالية التي يلم بها المتلقي.

كما تبين من خلال ما تقدم أن ثمة صورةً بديلةً يعمد إليها النص القرآني ولا تكون مقصودةً في ذاتها بل يجعلها متماهيةً مع المعنى ومتعالقةً معه في أكثر من وجه. كما هو الحال في سياق لفظة (نفشت). ففيها من البعد التصويري الشيء الكثير؛ إذ تسمح للمتلقي بتقدير مضمر الخطاب على نحو متسع بحيث لا يخرج عن ضوابط السياق.

كما أظهرت الدراسة أن حصر الدلالة المعجمية لبعض الألفاظ في وجه واحد يُعد تضييقاً لحركة المدلول التي شاء الله في بعض المواضع أن تكون مفتوحةً؛ وذلك إجمالاً منه لخطاب مضمر عبر لفظة واحدة. كما هو الحال في لفظة (بقية) وقد تنبّه بعض المفسرين كالبقاعي لهذا وأخذ يلتمس أوجها متعددةً ويصوغها في صورة واحدة.

**الهوامش:**

(١) عبدالواحد حسن الشيخ، **العلاقات الدلالية والتراث البلاغي**، مكتبة الإشعاع الفنية، مصر، ط١، ١٩٩٩م، ص٣.

(٢) عبدالوصيف محمد عبدالرحمن، **علم المنطق القديم والحديث**، مطبعة المعاهد، مصر، ١٩١٦م، ص٢١.

(٣) دلالة المطابقة: وهي دلالة اللفظ على تمام مسماه. ودلالة التضمّن: هي دلالة اللفظ على جزء معناه. كدلالة لفظ إنسان على (ناطق) فقط، أو دلالة البيت على الجدران فقط. وسُمّيت الدلالة هنا بالتضمّن؛ لأن اللفظ تضمّن ما دلّ عليه. ودلالة الالتزام:

وهي دلالة اللفظ على لازمه، كدلالة الأسد على الشجاعة. وهذا المعنى اللازم ذهني لا ينفك عن المعنى الحقيقي. فالشجاعة ملازمة للفظ الأسد ذلك اللفظ الذي يدلّ أصلاً على الحيوان المعروف، وعند سماع اللفظ ينتقل من المعنى الأصلي الأسد (إلى المعنى اللازم )الشجاعة. خليفة الحسن، مناهج الأصوليين في طرق دلالات الألفاظ على الأحكام، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م، ص٤٣-٤٤.

(٤) انظر على سبيل المثال: محمد بن محمد ابن أمير الحاج الحنبلي، التقرير والتحبير، دراسة وتحقيق: عبدالله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ج٣، ص١٣٢، وما بعدها.

(٥) محمد محمد يونس علي، **المعنى وظلال المعنى**، دار المدار الإسلامي، ط٢، ٢٠٠٧م، ص ١٤٤، ١٧٧.

(٦) أديب سيف، **الملاءمات النقدية من عالم الدلالة إلى معالم التأويل**، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، ص ١٨.

(٧) توشيهيكو إيزوتسو، **الله والإنسان في القرآن**، ترجمة: هلال محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧ م، ص٣٩-٤٠

(٨) الجرجاني، عبدالقاهر، **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ص٣٩١.

(٩) فايز الداية، **علم الدلالة العربي**، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٩٦م، ص٢٢.

(١٠) أحمد مختار عمر، **علم الدّلالة**، عالم الكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م، ص ٣٦-٤٠.

(١١) تمام حسان، **اللغة العربية معناها ومبناها**، دار الثقافة، المغرب، ١٩٩٤م، ص٣٣٧.

(١٢) جون لاينز، **اللغة والمعنى والسياق**، ترجمة: عباس صادق عبدالوهاب، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٨٧م، ص٢١٨.

(١٣) أحمد مختار عمر، **علم الدلالة**، ص٦٩-٧٥.

(١٤) سعيد بن محمد الشهراني، **السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة**، رسالة دكتوراه مقدمة لكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى، ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م، ص٢٢.

(١٥) ماجدة صلاح حسن، **السياق القرآني والدلالة المعجمية**، المجلة الجامعة، جامعة السابع من إبريل -لبيبا- الزاوية، العدد التاسع، ٢٠٠٧م، ص٢.

(١٦) عبدالمنعم خفاجي وآخرون، **الأسلوبية والبيان العربي**، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ص١١.

(١٧) عبدالسلام المسدي، **الأسلوب والأسلوبية**، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٣٩٧هـ، ص١٣٤.

(١٨) **المصدر نفسه**، ص١٣٥.

(١٩) تمام حسان، **الأصول- دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (دط) ١٩٨٢م، ص٣٢٧.

(٢٠) عبدالواحد حسن الشيخ، **العلاقات الدلالية والتراث البلاغي**، مكتبة الإشعاع الفنية، مصر، ط١، ١٩٩٩م، ص١١٣.

(٢١) القزويني، الخطيب جلال الدين محمد بن

سعد الدين، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق: عبدالمنعم خفاجي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٤، ١٩٨٨م، ج١، ص٢٠١.

(٢٢) ابن جزي الكَلْبي، القاسم محمد بن أحمد الغرناطي المالكي، **تقريب الوصول إلى علم الأصول**، اعتناء: جلال علي الجهاني، **مدينة ليدن**، ١٤٢٣هـ، ص٣٨.

(٢٣) فاطمة أبو سلامة، **السياق عند الأصوليين**، بحث في مجلة (الإحياء) الصادرة عن الرابطة المحمدية للعلماء، العدد: ٢٥، جمادى الثانية ١٤٢٨هـ/ يوليو ٢٠٠٧م، ص٤٦.

(٢٤) أسامة بن منقذ، **البديع في نقد الشعر**، تحقيق: أحمد بدوي، وحامد عبدالمجيد، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (دت)، ص٨٢.

(٢٥) ابن الجوزي، جمال الدين، **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**، تحقيق: محمد عبدالكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٨٤م، ص ٨٣.

(٢٦) مثنى عبدالفتاح عمر، **نظرية السياق القرآني**، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، الأردن، ٢٠٠٥م، ص ١٩٨.

(٢٧) في معنى الأضداد: "إيقاع الكلمة الواحدة على معنيين متضادين، "انظر: السيوطي جلال الدين عبدالرحمن، **المزهر في علوم اللغة**، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج١، ص ٣١٥.

(٢٨) الخليل بن أحمد الفراهيدي، **كتاب العين**، تحقيق: مهدي المخزومي إبراهيم السامرائي، دار الهلال، ط١، (دت)، ج٤، ص٨٣.

(٢٩) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الخوارزمي، **أساس البلاغة**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج١، ص ٣٦٩.

(٣٠) الجوهري، إسماعيل بن حماد، **الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية**. تحقيق: محمد زكريا يوسف، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٩٠م، ج٧، ص٢١٥، ٢١٦.

(٣١) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، طبعة: ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج٢، ص ٤٤٦.

(٣٢) ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط١، (دت)، ج١٤، ص٣٤٠.

(٣٣) الصاحب بن عباد، إسماعيل بن العباس الطالقاني، **المحيط في اللغة**، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، دار عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ج٤، ص٥٦.

(٣٤) ابن بنين، **سليمان بن الدقيقي النحوي المصري**، اتفاق المباني وافتراق المعاني، تحقيق: يحيى عبدالرؤوف جبر، دار عمار، عمان، ط١، ١٩٨٥م، ص١٩٥.

(٣٥) تمام حسان، **البيان في روائع القرآن**، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ص٢٥٩.

(٣٦) الزبيدي، **تاج العروس**، ج٣٦، ص٤٤٧.

(٣٧) الصاحب بن عباد، **المحيط في اللغة**، ج٤، ص ٥٨.

(٣٨) الزبيدي، **تاج العروس**، ج٣٦، ص٣٨٨.

(٣٩) ابن سيده، علي بن إسماعيل، **المخصص**، تحقيق: خليل جفال، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ج٢، ص٤٠٦.

(٤٠) الزبيدي، **تاج العروس**، ج١٠، ص٢٢٩.

(٤١) السيوطي، عبدالرحمن بن الكمال، **الدر المنثور**، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، ج٧، ص٤١٠. بتصرف

(٤٢) الزمخشري، **الكشاف**، ج، ص٢٧٨.

(٤٣) البقاعي، **نظم الدرر**، ج٧، ص٧٣.

(٤٤) وراجع الآيات: البقرة:٥٠، يونس:٩٠، الذاريات:٤٠، القصص:٤٠، طه:٧٨، الأعراف:١٣٦، الشعراء:٦٠-٦٦.

(٤٥) الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج٢، ص٥٦.

(٤٦) ميشال زكريا، **المكون الدلالي في القواعد التوليدية والتحويلية**، (بحث) مجلة الفكر العربي ، آذار ،١٩٨٢م، ص٣١

(٤٧) يحيى أحمد، **الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة**، مجلة عالم الفكر، العدد الثالث، ١٩٨٩م، ص٨١-٨٢.

(٤٨) الزبيدي، **تاج العروس**، ج١٧، ص٤٢٣، وانظر: الجوهري، **الصحاح**: ج٤، ص١٥٩.

(٤٩) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر، الطبعة الجديدة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج٣، ص٢٢٧. وانظر المعنى نفسه عند الزمخشري، الكشاف: ج٩، ص٢٦٥. وانظر: النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، تحقيق: زكريا عميران، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م. ج٥، ص٣٦.

(٥٠) جاء في تفسير الطبري تفصيل لهذه الخصومة وتتلخص فيما يلي: "حين دخلت في هذا الحرث غنم القوم الآخرين من غير أهل الحرث ليلا فرعته أو أفسدته...قضى داود عليه السلام بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان عليه السلام غير هذا يا نبيّ الله، قال: وما ذاك؟ قال: يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا كان الكرم كما كان دَفعت الكرم إلى صاحبه، ودَفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله:﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾، انظر: الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج١٨، ص٤٧٥.

(٥١) العكبري، أبو البقاء محب الدين عبدالله بن الحسين، **اللباب في علل البناء والإعراب**، تحقيق: غازي مختار طليمات، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٥م، ج٢، ص ٤٦٧.

(٥٢) الزبيدي، **تاج العروس**، ج٣٧، ص١٩٠-١٩٦. بتصرف

(٥٣) ابن جرير الطبري، **جامع البيان**، ج١٥، ص ٤٤٦-٤٥٠ بتصرف. وانظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج٢، ص٣٩٥. وانظر أيضا: أبا حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، ج٣، ص ٣٢٠.

(٥٤) السمين الحلبي، **الدر المصون في علم الكتاب المكنون**، تحقيق: أحمد الخراط، دار القلم،

دمشق، ط١، ١٩٨٦م، ج٨، ٣٣١.

(٥٥) البقاعي، **نظم الدرر**، ج٣، ص٥٦٥-٥٦٦. بتصرف.

(٥٦) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٧، ص ٢٥٧-٢٥٨

(٥٧) لمعرفة تكرار كلمة (بقية) ومشتقاتها في القرآن ومعناها في كل موضع، انظر: ابن الجوزي، **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**، ج١، ص٢٠٣.

(٥٨) ابن عجيبة الحسني، أحمد بن محمد بن المهدي الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس، **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م، ١٤٢٣هـ، ج٣، ص٦٢٤.

(٥٩) كذلك تكررت لفظة القبور في مواضع منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢].

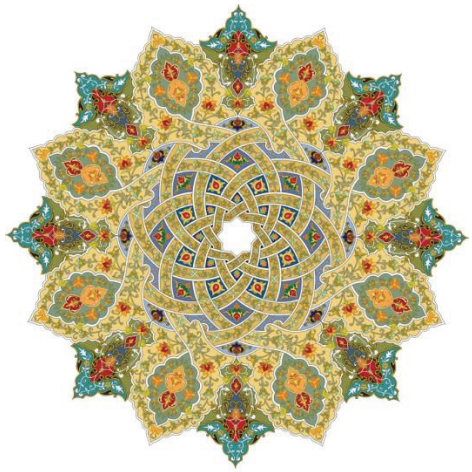
(٦٠) الزبيدي، **تاج العروس**، ج٥، ص١٩٦.

(٦١) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، **تفسير البحر المحيط**، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ج٧/ ٣٠٩.

(٦٢) الشربيني، محمد بن أحمد، شمس الدين، **تفسير السراج المنير**، دار الكتب العلمية ـ بيروت، (دط) (دت)، ج٤، ص٤٢٧.

(٦٣) ابن منظور، **لسان العرب**، ج٥، ص٤١٧.

(٦٤) تقتضي الأمانة العلمية أن أشير إلى صاحب هذا الربط بين المعاني الثلاثة وهو: د. فاضل صالح السامرائي. وذلك عبر برنامج تلفيزيوني اسمه (لمسات بيانية) وقد حاولت أن أوثق هذه الفكرة فلم أعثر في سلسلة كتبه التي منها كتابه (لمسات بيانية) على توثيق هذه الفكرة. فأحببت أن أشير إليها.



# Al- Mishkat

**For Humanities & Social Studies**

An International Research and Refereed Journal

Volume (3), Number (2), Ramadan 1437, June 2016

Editor in Chief

Prof. Abd al-Haleem al-Hroot

Editorial Staff

| | |
|---|---|
| **Prof. Abdul Qader al-Rabbai** | The World Islamic Science & Education University |
| **Prof. Farouq al-Rousan** | The World Islamic Science & Education University |
| **Prof. Mohamed al-Arnaout** | The World Islamic Science & Education University |
| **Prof. Mahmoud Kharbutli** | The World Islamic Science & Education University |
| **Prof. Nihad al-Musa** | The World Islamic Science & Education University |
| **Prof. Anwar abo-swailem** | Mu'tah University. |
| **Dr. mohammad al-Khawaldeh** | The World Islamic Science & Education University |

Advisory Editorial Board

| | |
|---|---|
| **Prof. Sameer al-Droubi** | Mu'tah University |
| **Prof. Abd El Kareem Khaleefah** | The Jordan Arabic Language Academy |
| **Prof. Afeef Abd ElRahman** | Former Editor |
| **Prof. Ali Tawfeeq al-Hamad** | Yarmouk University |
| **Prof. Yahya Ateyah Ababneh** | Mu'tah University |

English Language Editor

**Dr. Layla Farouq Abdeen**

Arabic Language Editor

**Dr. Hussien ghwanmeh**

Journal Secretary
& Designer

**Shaimaa Khasawneh**



All Correspondence Concerning this Journal should be addressed to:

Editor in Chief
Deanship of Academic Research
The World Islamic Sciences and Education University (W.I.S.E)
Amman- Jordan
P.O. Box: (1101), Post Code (11947)

Tel: 00962 6 5600230, Ext. 2012, Fax: 00962 6 5600237

Email: al_mishkat.journal@wise.edu.jo
Website: www.wise.edu.jo

The World Islamic Sciences and
Education University (W.I.S.E)

# Al-Mishkat

## For Humanities & Social Studies

An International Research and Refereed Journal

Volume (3), Number (2), Ramadan 1437, June 2016

The views and ideas expressed in the articles published in this journal are of their own authors and do not reflect the views of the editorial board or the World Islamic science and Education University or the policies of the Ministry of Higher Education and Scientific Research.

ISSN 2311-0538